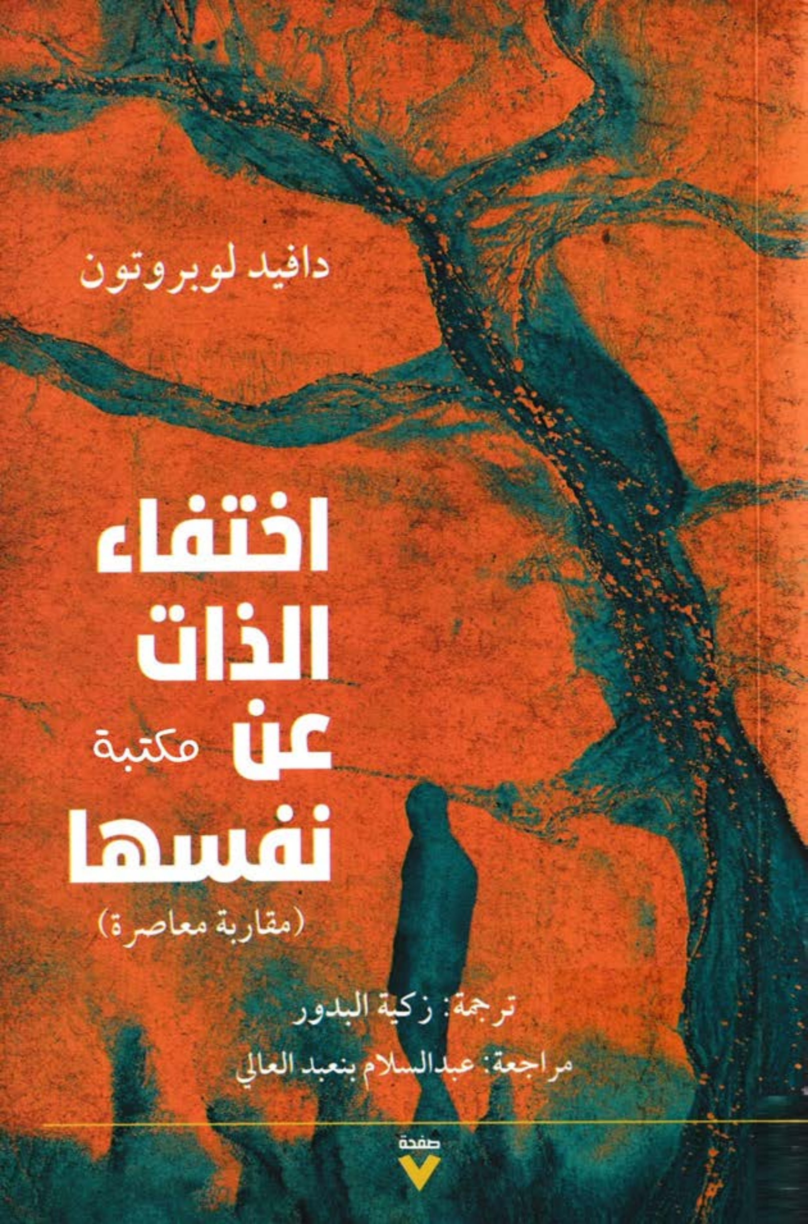


دافيد لوبروتون

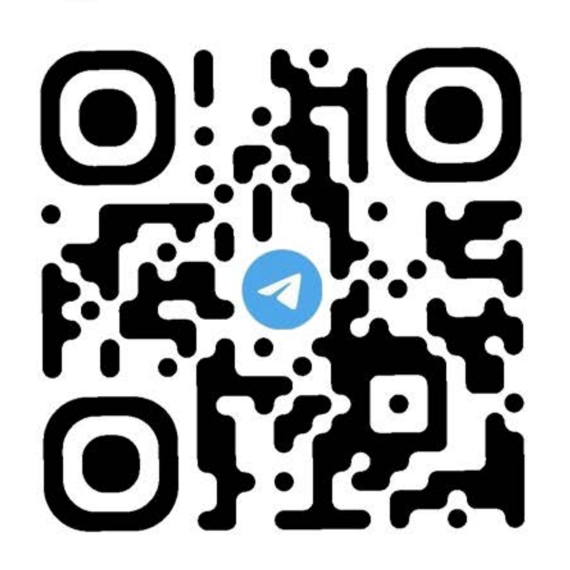
اختفاء الذات عن نفسها

(مقاربة معاصرة)

ترجمة: زكية البدور

مراجعة: عبدالسلام بنعبد العالي

صفحة 7



اختفاء الذات عن نفسها

«مقاربة معاصرة»

Disparaître de soi : Une tentation contemporaine

by David Le Breton

مكتبة
t.me/soramnqraa

اختفاء الذات عن نفسها

«مقاربة معاصرة»

دافيد لوبروتون

ترجمة: زكية البدور

مراجعة: عبد السلام بنعبد العالي

صفحة



كتاب
اختفاء الذات عن نفسها
المؤلّف
دافيد لوبروتون

الطّبعة الثانية:2023
التّرقيم الدّوليّ
978-603-8387-41-2
رقم الإيداع
1444/7473

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

«من لا يقبل هذا العالم، لا يبني فيه مسكنا. إذا تعرّض للبرد، فمن دون أن يشعر به. وهو يحس بالدفء من غير حرارة. إذا قطع شجرة البتولة، فكما لو أنه لم يقطع شيئا، لكن البتولة هناك، على الأرض، وهناك يتلقى المال المتّفق عليه، أو لا يتلقى إلا الضربات، يتلقّى الضربات مثل هدية لا معنى لها، فينطلق من جديد من غير اندهاش».

هنري ميشو، **الليل يحرك السواكن**

«انتهى كل شيء بالنسبة إلي على الأرض. لم يعد بالإمكان أن يُلحقوا بي فيها خيرا أو شرا(...) مرتاح أنا في قعر الهاوية(...) إلاّ أنني بارد الأعصاب، مثل الإله نفسه».

روسو، **أحلام متجول منعزل**

الفهرس

عتبة

هويات معاصرة عسيرة

«لا يمكنك إلاّ أن ترغب في أن تصبح شجرة بدوْرك»

جورج بيريك، **الرجل الذي ينام**

يثقل علينا وجودنا في بعض الأحيان. فنرغب في أن نتحرَّر، ولو لمدة محدودة، من الضرورات التي ترتبط به. فكما لو أننا نمنح أنفسنا استراحة من أنفسنا كي نستعيد أنفاسنا، ونخلد إلى الراحة. إذا كانت ظروف عيشنا بلا شك أفضل من ظروف عيش أجدادنا، فإنها لا تعفينا مما هو أساس، أي أن نعطي معنى وقيمة لوجودنا، وأن نشعر بالارتباط بالآخرين، ونحس بأن لنا مكانا ضمن الروابط الاجتماعية. عندما يتّخذ المعنى طابعًا فرديًا، فيحرر من التقاليد والقيم المشتركة، فإنّه يرفع كل سلطة. فيصبح كل فرد سيد نفسه، ولا يكون عليه أن يقدم الحساب إلا لذاته. إنَّ تفكك الروابط الاجتماعية يعزل كل فرد، ويجعله مسؤولا عن حريته، وعن التمتع باستقلاله الذاتي، أو أنه، يعمل، على العكس من ذلك، على رده إلى

الإحساس بالنقص والفشل الشخصي. إن الفرد الذي لا يتوفر على إمكانات باطنية قوية لكي يتأقلم ويضفي على الأحداث دلالات وقيما، والذي تنقصه الثقة الكافية في نفسه، يشعر أنه عرضة للفشل، فيكون عليه أن يكون سند نفسه لكونه لم يتلق السند من الجماعة التي ينتمي إليها. وغالبا ما يغرق في جو من التوتر والقلق والارتياب، ما يجعل حياته عسيرة. لا تكون لذة العيش متوفرة على الدوام. يطمح كثير من معاصرينا إلى تخفيف الضغوط التي تُثقل كاهلهم، وإلى إلغاء ذلك الجهد الذي ينبغي بذله دون انقطاع لكي يظل المرء هو هو على مرِّ الزمن، ومهما كانت الظروف، ولكي يكون دائما في مستوى المتطلبات إزاء نفسه وإزاء الآخرين. وحتى لو لم تكن هناك صعوبة ضاغطة، فإن الرغبة تنبع، في بعض الأحيان، في التحرر من الذات، ولو لمدة محدودة، هروبا من رتابة الحياة وهمومها. فكل تخفف مفيد. وهو يمكّن، أحيانا، من فك الروابط والتخفّف من الضغوط.

في مجتمع تَفرض فيه المرونة الاقتصادية، والعجلة والسرعة والمنافسة والفعالية الخ.. نفسها فأن يكون المرء ذاته لا يكون دائما أمرا من المتيسر، من حيث إنه ينبغي عليه، في كل لحظة، أن يهيئ نفسه لمواجهة العالم، وأن يتلاءم مع الظروف، ويتحمل تبعات استقلاله الذاتي، ويظل في المستوى. فلا يكون عليه أن يولد وينمو ويكبر، وإنّما أن يعيد بناء نفسه على الدوام، وأن يظل معبَّأً، فيعطي معنى لحياته، ويُرسي أعماله على قيم. أن يكون المرء فردا مهمة عسيرة، خصوصا إذا كان عليه أن يكون هو ذاتَه. إن العثور على

مقومات الاستقلال الذاتي والاكتفاء بالذات والاقتناع بها، أمر ليس في متناول الجميع، فما كل الأفراد يتوفّرون على الكفاءات نفسها. «إذا كانت الإكراهات الأخلاقية، قد تخففت، فإن الضغوط النفسية قد اكتسحت الفضاء الاجتماعي: فالتحرر والفعالية قد وسّعا من حجم المسؤولية الفردية بشكل كبير، وزادا من حدة الوعي بأن يكون المرء هو ذاتَه(...) لذلك فإن عدم الاكتفاء والتعطش عند الشخص المعاصر يحتل المكان الذي كان الصراع يحتله خلال النصف الأول من القرن العشرين» *(إهرنبرغ Ehrenberg، 276، 1998)*. لقد غدا الفرد اليوم فاقدا لكل بوصلة لكي يبني ذاته، أو لنقل بالأحرى، إنه يواجه عدة ممكنات، وهو يجد نفسه مضطرا إلى الاعتماد على إمكاناته الذاتية. هذا الاحتياج للسند الاجتماعي، وهذا الغياب للتنظيم الخارجي لا يسهلان الأمر على الاستقلال الذاتي. ورغم ذلك، فإن كل فرد مسؤول عن نفسه، حتى وإن كانت تعوزه الوسائل الاقتصادية، والرمزية على وجه الخصوص، لكي يتحمل مسؤولية حرية لم يخترها، لكنها منحت إياه عن طريق السياق الديموقراطي لمجتمعاتنا الغربية. وهو يواجه هذا المسعى وحيدا. فهو لم يعد يتوفر، مثلما كان عليه الحال فيما سبق، على إطار سياسي لكي يثبت نفسه ضمن نضال مشترك، كما أنه لم يعد محميا بثقافة طبقية ومصير يقتسمه مع آخرين. أن يكون المرء تحت سلطة نفسه، يتطلب التوفّر على إمكانات باطنية لا تنفك تتجدد، لأن تلك السلطة منبع قلق واضطراب، ولأنها تعبئ باستمرار مجهودات ضخمة. لقد غدت الهوية مفهوما أساسيا لمساءلة كل فرد،

ومساءلة مجتمعاتنا الغربية، لأن تلك الهوية، هي اليوم في أزمة، كما أنها تغذي «ارتيابا جذريا حول استمرار الذات ومتانتها» (غوشي Gauchet، 2004، 257). لقد اختفت الشفافية بين مختلف أشكال التنشئة الاجتماعية والذاتية. فإذا ما أراد الفرد أن يحافظ على مكانه ضمن الروابط الاجتماعية، فإن ذلك يقتضي توتّرا وجهدا كبيرا.

إن السرعة، وتدفّق الأحداث، وهشاشة الشغل، والانتقالات المتعددة، كل هذه الأمور تحول دون نشأة علاقات متميزة مع الآخرين، فترمي الفرد في العزلة. وحده تواصل الزمن، ومتانة الروابط الاجتماعية، وتجذرها، وحدها بإمكانها أن تتيح الفرصة لإقامة صداقات دائمة، وبالتالي، أشكالا من الاعتراف على المستوى اليومي. فالعلاقات الاجتماعية عن قرب، على سبيل المثال، تتم بكيفية أكثر سهولة وسيولة، وتكون سريعة الزوال وسطحية، بفعل الحركة الدائبة لساكني الشقق في الدرب أو في الحي. فيصبح من الصعب التعرف على الجيران. ويغدو الفرد الحديث غير مشدود إلى شيء بعينه، فهو يطلب الآخرين، ولكنه يطلب كذلك بُعدهم عنه. يذكرنا م. غوشي بأن المواطنة كانت، حتى السنوات الأخيرة، اقترانًا بين العام والخاص. كان على كل فرد أن يتملك وجهة نظر الجميع، وأن يتخذ موضعه كواحد من بينهم، ضمن حركة لا يضيع فيها لا هذا ولا ذاك. أما اليوم، «فإن الفصل هو السائد، وعلى كل فرد أن يثبت خصوصيته أمام مؤسسة العام التي لا يُطلب منه في أي لحظة أن يتبنى رأيها. وعلى المكلفين بالمهمة أن يتدبروا الأمر» (غوشي Gauchet، 2004، 106).

إن الروابط الاجتماعية تعني توفّر مناخ عام، أكثر منها مطلبا أخلاقيا. بل إنها لم تعد بالنسبة إلى البعض، إلا مسرحا لامباليا لنموهم الشخصي. فالعلاقة بالآخر أمر اختياري، ولم يعد معطى جاري به العمل. فعلى مرّ الأيام، تظل معظم الروابط في ظل اللامبالاة، فالتليفزيون والشبكة العنكبوتية ومختلف أشكال التواصل، والهاتف النقال، جميعها متوفرة تحت اليد من غير أن تكون كذلك، إذ يكفي للانفصال عن أيّ ارتباط إقفالُ الشاشة. الهاتف والوسائط الإلكترونية الأخرى، حتى في قلب المدينة، هي وسائل «لإطفاء أنوار المدينة»، أو لوضع حضور الآخر بين قوسين، حتى أثناء الحوار معه وجها لوجه. الفرد في المجتمع المعاصر متصل أكثر منه مرتبطا، إنّ اتصاله في تزايد مستمر، إلا أن التقاءه بالآخرين في تناقص مطرد *(لوبروتون، 2009، 44)*، وهذا بالضبط لأنه يفضل العلاقات الأفقية التي نخوض فيها أو نتخلى عنها حسب أهوائنا.

كثيرون هم أولئك الذين يجدون أنفسهم في هذا العالم شديد الحركة حيث ينبغي للمرء أن يضحّي فيه بشيء من عنده، ويتأقلم مع الظروف المتقلبة. يتوفر هؤلاء على طاقات باطنية لكي يواصلوا السباق، أو لكي يرتدّوا على أعقابهم. وهم يظلون يتمتعون باستقلال ذاتي، يظلون أفرادا بكل معنى الكلمة. وهم لا يخشون التوترات المرتبطة بكونهم مسؤولين عن وجودهم. إنّهم رجال ونساء يواكبون حركات العالم، وهم قادرون على الإبداع وعلى مقاومة الأوامر المتناقضة التي تتعرض لها حياتهم الشخصية والمهنية. ومع ذلك، وفي هذا السياق ذاته، فإن التخلي عن مجهود

الفرد كي يظل هو هو ذاته أمر يراوده في بعض الأحيان. إلا أنه يحصل بشكل متعمّد، وفي انشراح وسعادة، كأن يتمّ بالانخراط المنتظم في نشاط جسدي أو رياضي، أو بالتفرغ للأسفار، أو نهج حياة يلفّها الغموض مختلفة عن مظاهر الحياة العادية، كالانزواء في دير من الأديرة... إنها طرق لتغيير الشخصية، بحيث يكفّ المرء عن الانخراط ضمن ضرورة تعبئة تحبس الأنفاس. خلال هذه الأوقات، يهرب الفرد من ذاته بطريقة يطبعها المرح. فيشعر أنه في «عطلة» بالمعنى القويّ للكلمة. فمن غير أن يتخلى عن روابطه الاجتماعية، فإنه يضعها للحظة على بعد ومسافة منه كي يستعيد السيطرة، ويهدئ من روع حياته اليومية والمهنية، وينفتح على نشاط ممتع.

يشهد حماس مجتمعاتنا للمشي على هذه الرغبة في الانفلات من رتابة الحياة الشخصية لبضع ساعات أو أكثر، كي يغدو المرء مجهولا في الطرقات عاريا من قيود الهوية. يتمتع المشّاء بحرية الحركة، وإيقاع المشي، لا يدين بأي شيء لأحد، فلا من يأتي ليذكّره بمسؤولياته. إنه يكون بعيدا، ولا أحد يعرف من هو ولا أين يتجه. يقيم علاقات مؤقتة أو دائمة مع الآخرين، ولكن، وفق مشيئته. على الدروب العابرة، ينكشف الإحساس بالذات، وتخفت متطلبات الحياة الاجتماعية. المشي تمرين لعب ممتع وخاضع للرقابة، يلجأ فيه المرء إلى الاختفاء، وهو تملك جديد وسعيد للوجود *(لوبروتون،2012)*.

تُوفّر كثير من لحظات الحياة اليومية انسحابا خارج متطلبات

التواصل الاجتماعي: أحلام اليقظة، تأملات، قراءات، استماع الى الموسيقى، نوم، الخ. السياقة لمسافات طويلة، القيام بعمل متكرّر... آلاف الأنشطة تساعد على الاسترخاء الباطني الذي في مقدوره أن يتوقف في أية لحظة في حالة الإنذار. أشكال من الهروب خارج اليومي وشبكاته التي تحبس المرء داخل أدوار يكون من غير المريح الابتعاد عنها، إلا أنه من الصعب تحملها لمدة طويلة. هذا التوزع معطى أوّلي للحياة العادية، فمجرد تناسي المحيط، والغوص في الحياة الباطنية يؤديان إلى نوع من استرخاء الإرادة، ومن خفة النفس التي تكفي لكسر الملل أو العثور على بديل. لا أحد على الإطلاق يكون متنبها تمام التنبه لما يفعله (الفصل الثاني).

خلال هذا الكتاب، سأطلق اسم **البياض** على حالة غياب الذات عن نفسها، مهما كانت درجتها حدةً. إنها انفصال عن الذات، بشكل أو بآخر، نظرا لما يلقاه المرء من صعوبة أو من عقوبة كي يكون هو ذاتَه. في جميع الأحوال، تكون هناك رغبة في خفت الضغوط. الوجود لا يُعطى بيسر، وغالبا ما يكون مصدر عناء وتعب. حينئذ، يكون البياض استجابة للشعور بالتشبع، وبأنّ الفرد قد امتلأ عن آخره. إنه بحث عن علاقة مخفّفة مع الآخرين، وهو مقاومة تواجه مستلزمات بناء هوية في سياق النزعة الفردانية الديمقراطية للمجتمعات الغربية. بين الروابط الاجتماعية وبين العدم، ترسم منطقة وسيطة، وكيفية من افتعال الموت للحظة. في بعض الأحيان، فإن الاكتئاب والإرهاق، وانهيار الرابط المهم بالآخرين، وبالحياة الشخصية، كل هذه الأمور تعمل على تدمير كل

نزعة نرجسية، فيفشل الفرد في التمسك بجسده، وتخار قواه بشكل مؤلم. يختفي المعنى، ويحيط الفراغ بالذات، إلا أن الموت لا تزال بعيدة. ليس الجسد وحده هو الذي يظلّ معلقا لوقت محدود، بل الفرد في كليته، وفي أفكاره على وجه الخصوص، ومشاريعه وعلاقته بالعالم. يتوقف عالم التمثلات التي تراوده بشكل دائم ويختل، وتنفصل واسطة المعنى. إنه يختفي في ما تطلق عليه اللغة الإنجليزية **blank** (المكان المهجور، الفراغ). إنه يحافظ على وجوده كصفحة بيضاء كي لا يضيع، أو يتعرض لخطر الانضواء، والتأثر بالعالم. وهو يُقيم في لامبالاة الأشياء، مرتاحًا لمجهوده في أن يكون هو ذاتَه، وفي بعض الأحيان لا يعود يدري حقا من هو، ولا أين يوجد، لا يعود يتحّمل أيّ مسؤولية نحو الآخرين أو نحو وجوده. لا يعود يأبه بالعالم، إنّه يتيه في مكان مجهول، ولكي يستعيد أنفاسَه، يكون عليه أن يخفّف من توتّره. إنه يقيم في النسيان، لا في الحياة ولا في الروابط الاجتماعية، لا داخلا تماما، ولا خارجا. نقول أحيانا باللغة الفرنسية: «لديّ بياض» كي نعبر عن سهو، عن غياب، عن نوع من الأقواس المفتوحة. يتحدث أ. غرين A. Green وج-ل دوني J.-L. Donnet عن (**الذهان الأبيض**)، «عندما يأخذ الأنا في التوقّف عن توظيف تمثلاته، فيغدو في مواجهة الفراغ الذي يكوّنه. يعمل الأنا على إخفاء ذاته» *(1973، 174)*.

يصيب البياض امرأة أو رجلا عاديا بلغ الحدّ الأقصى من نفاد الصبر، ولم يعد قادرا على الاستمرار في تحمّل شخصيته، لقد تعب وملّ، فوجد نفسه خارج حركة الروابط الاجتماعية. إلا أنّه يعرف

ذلك، وفي استطاعته ذات يوم أن يعود إلى جلده القديم أو أن يبلغ آخر جديدا بعد لحظة الاختفاء هذه التي كان في حاجة إليها كي يواصل ويستمر في العيش. سيعيش حينئذ لحظة يطبعها التناقض كي يتمكن من تجديد نفسه، وإفراغ ما في جوفه، والتخلّص مما صار يثقل كاهله. هذه التجربة تظلّ تحت السيطرة. إلا أنّها قد تصبح، في بعض الأحيان، حالًا قارّة تفرض عليه نفسها حينما يستسلم ويترك نفسه لثقل الأحداث دون الرّغبة في ردّ الفعل إزاءها.

البياض خمول وفتور، إنه تخلٍّ يتولّد عن صعوبة إلحاق تغيير بالأشياء. في عالم السيادة هذا الذي يفرض نفسه في مناخ مجتمعاتنا الغربية التي تسودها نزعة ليبيرالية جديدة، يغدو البياض إرادة عجز تطبعها المفارقة. إنه رغبة في التخلي عن التحكم في الوجود، ونزوع نحو الانحدار. وهو سعي متعمَّد نحو النّدرة والخصاص في السياق الاجتماعي لوفرة الأشياء. إنه شغف بالغياب في عالم يطبعه سعي محموم نحو الأحاسيس والمظاهر. وهو مصدر قلق حيث تطغى في المناخ الاجتماعي هيمنة التقنية وتراكم الخيرات. إنه رغبة في المحو في مواجهة ضرورة الالتزام بالتفرد. وهو تفضيل متناقض للأقل على حساب الأكثر. فمقابل اليقظة المفرطة التي ينبغي توفّرها لكي يستمر الفرد في ممارسة استقلاله الذاتي، فإنّه يعتمد الحدَّ الأدنى من درجة الوعي. فلا يعود يرغب في التواصل، ولا في التبادل، ولا في تخطيط مشروع للمستقبل، ولا حتى في المشاركة في الحاضر. إنه بلا رغبة، وليس لديه ما يقوله. وهو يفضل أن يَرى العالم من ضفة أخرى (الفصل الأول).

يمكن للاختفاء أن يكون تآكلا للمعاني التي تمكّن الفرد من البقاء في العالم، وتجربةً وجيزة للانفصال والتخلي. تزخر عيادة المراهقين بهذه الحالات التي تذهب حتى البحث عن الغيبوبة بتعاطي الكحول أو ألعاب الاختناق، أو أشكال أخرى من الدوخة والدوار حيث يغرق الشاب كي لا يكون عليه أن يفكر في حضوره المؤلم في العالم. فعندما يكون غارقا في البياض، من دون هوية، ومن دون أن يمكن التعرفُ على شخصه، فإنه يفلت من كل تواصل حتى وإن ظلّ جسده قائما هناك. لم يعد له اسم، ولم يعد يستجيب، وهو يقدم نفسه كلغز. فإذا ما ضغطنا عليه محاولة لإيقاظه، فمن غير جدوى، إنّه غارق في منفى باطني بسبب إغمائه، والطائفةِ التي تتحكّم في أفعاله وحركاته، ودرع الأدوية، والكحول أو المخدرات التي تفصله عن الروابط الاجتماعية العادية، أو أنه قد يكون منغمسا في حياة ثانية second life بفضْل الحاسوب (الفصل الثالث).

نلفي كذلك هذه الرغبة في الانسحاب، الذي يكون جذريا في بعض الأحيان، في الطرف الآخر من الحياة، أثناء الشيخوخة، وعند ظهور اضطرابات مثل اضطرابات الزهايمر أو أشكال أخرى من الخرف. في هذه الحال، تتعطل المنابع الباطنية للمعنى بشكل دائم. وتُعلّق الدلالات برميها في الفراغ، أو بالأحرى في عالم تعجز الألفاظ عن وصفه. لا يعود هناك تواصل، ولا أيّ استعداد، ولا أيّ حضور لا أمام الذات، ولا أمام الآخر. بل لن تعود هناك أيّ نرجسية، لأن الأنا قد اختفى. يصبح الوعي أصمّ وأعمى (الفصل الرابع). **البياض** هو فقدان للهوية، هو لامكان، حيث ترفع القيود

التي يفرضها العالم المحيط. التشبه بالموت هو وسيلة خداع، ونجاة من الموت، بل إنه تجنّب قتل الذات. عندما يقيم الفرد حول نفسه حائطا، فإن صيحته تسعى لألاّ تضيع فيه. حسب المواقف والأوضاع، فإن البحث عن الغياب يسود بكيفية دائمة أو مؤقتة.

بيد أن إخفاء الذات لا يتم دوما عن طريق الباطن، وإنّما يتم أيضا عن طريق الذهاب خارجا. يذهب البعض من غير أن يتركوا عنوانا، جاعلين أسَرهم أو أقرباءَهم يغرقون في حالة اضطراب، في الوقت الذي لا يكونون فيه قد خمّنوا قرارهم. يبدؤون حياة جديدة، مُتخلِّين عن هويتهم القديمة، والمسؤوليات التي كانت تثقل كاهلهم، لذا يكون بإمكانهم أن يبدؤوا من جديد من غير أن يقدّموا حسابا لأحد، ما داموا سيبتدعون شخصية لا تتوقف إلا على المعلومات التي سيدلون بها لمحاوريهم (الفصل الخامس).

يقع انسحاب الروابط الاجتماعية في بعض الأحيان، وكذا اللامبالاة، تحت تهمة الأنانية، إلا أنهما تكونان على وجه الخصوص استجابة للرغبة في الابتعاد، والانفصال عن الأهواء المشتركة، والرغبة في عدم الانسياق وراءها بالرغم منها. إنه زهد من وحي رواقي، إلا أنّه لا يكترث كثيرا بكمال أخلاقي. يدرك الآخرون إخفاء الفرد لذاته كهجر وعزلة خارج الروابط الاجتماعية. لذا فهو يثير استنكارا أو قلقا، بيد أن الفرد لا يهمّه ذلك، إنه بمعزل عن الوضع، وهو يشعر بأن لا شيء في حوزته يمكنه تقديمه، وأنه من العياء بحيث لم يعد في إمكانه أن يواصل بذل المجهود من أجل أن

يعيش. لذا فإن سلاحه هو العطالة التي يواجه بها رغبة الآخرين في أن يدفعوه إلى السير من جديد[1].

يتحدث ميلفيل في **موبي ديك** بشكل مثير للإعجاب عن مفارقات **البياض** ولُبسه، وعن الفتنة والرهبة اللتين تمتزجان بصدده: «ومع ذلك فإننا لم نرفع بعدُ حجاب البياض التعويذي، ولم نتعلم قطّ لماذا يتمتع بهذه القدرة الجبّارة على فتنة الروح وإغوائها، ولم نتعلم على وجه الخصوص(...) لماذا هو أكثر رموز الأمور الروحية دلالة، أو، أدهى من ذلك، فهو حجاب الألوهية عند المسيحيين، لكنّه أيضا ممثل الرهيب الذي يزيد من حدة الرعب في كل الأشياء الرهيبة بالنسبة إلى الإنسانية. هل هو بفضل لانهائيته مرآة الفراغ العظيم القاسي ومرآة الكون الشاسع؟» *(1941، 314-315)*.

يتعلق الأمر في هذا العمل بالانغماس في الذاتية المعاصرة، وتحليل واحدة من أكثر ميولاتها حيوية، وهو الميل إلى التخلّص من الذات، حتى ولو لِلَحظة وجيزة. يسعى هذا المؤلف إلى مسح أنثروبولوجيا الحدود، إن بشكل مؤلم أو بشكل ميمون، بين تعدد العوالم المعاصرة

(1) لن يتم التطرق إلى عديد من أشكال الاختفاء: اختفاء طالبي الحمى واللاجئين (أجيي Agier ، 202) والمنفيين السياسيين، أو الأشكال المهنية للاختفاء كاختفاء علماء الإناسة (ديبي Dibie، 1998) أو رجال الصحافة المنغمسين بشكل مؤقت في عالم آخر اجتماعي وثقافي كي يتمكنوا من فهمها بشكل أفضل (والراف Wallraf ، 1987، 2010، أوبينا Aubenas، 2011). وكذلك الإقامة في أديرة الرهبان أو الانسحاب الروحي أو الصوفي في عالم باطني (لوبروتون، 1997). أو حتى اختيار الانعزال (كيلين Kelen، 2005).

(لوبروتون، 2007، 2010، 2012)، وهو يرمي إلى استكشاف الحميمية، عندما يستسلم الفرد من غير أن يرغب في الموت، أو عندما يخترع لنفسه وسائل مؤقتة لكي يتخلص من ذاته. كثيرا ما تختلط الظروف الاجتماعية بالظروف العاطفية. وهذه الأخيرة هي التي تكون وراء سلوكيات الشباب المحفوفة بالمخاطر في سياق معاناة شخصية، أو التي تسبب الاكتئاب، وربما معظم حالات الخرف. إذا كانت المقاربات النفسية غالبا ما لا تأخذ بعين الاعتبار التجذر الاجتماعي والثقافي، فإن مقاربات علماء الاجتماع تهمل المعطيات الأكثر ارتباطا بالجانب العاطفي، معتبرةً الأفراد دائما أفراداً كبار السن، لم يسبق لهم أن عاشوا طفولة، ولا شعورا، ولا صعوبات حميمة. يمكن للفهم الاجتماعي والأنثروبولوجي للعوالم المعاصرة أن يتدارك تفرد تاريخ شخصي عن طريق المزج بين المسار العاطفي والاجتماعي الذي يغمر الفرد، وخاصة المعاني التي تغذي علاقته بالعالم. وتلك هي مهمة هذا الكتاب.

1. ألا تعود أحداً

«الغياب قدَري»

روبرت فالزر (Robert Walser)، *في المكتب*

الحياة اللاشخصية

في بعض حكايات الحياة، يؤدي تفكك معين، قطيعة، فقدان قريب، فصل أو إرهاق، إلى انفصال تدريجي عن الوسط العائلي. لم يعود الفرد يشعر بمكانه، إذ لطالما أحس بأنه مستبعَد، لكنه كان يحاول أن يتلاءم، وفي تلك المرة، تخار قواه، أو أنه لم يكن قط قادرا على ذلك. ينفلت العالم من بين يديه. حينذاك، يهجر عالمه المهني أو المنزلي، فيمّحي، ولا يعود يغادر البيت إلا نادرا، كما لا يعود مهتما بمحيطه، ولا حتى بشؤونه الخاصة. إنه يلغي العالم من حوله. يبتعد الآخرون بدورهم، إذ تضعف جدوى مخالطته، أو أنهم ينزعجون من حال وجوده دوما في منأى عنهم. تنتهي رغبتهُ في أن يكون ذا شأن بالنسبة إلى الرباط الاجتماعي، أو بالنسبة إلى أسرته، فيتنازل عن وجوده شاعرا بأنه يحيا مثقلا بالوجود. إنه هنا من غير أن يكون.

لقد تخلّى عن شخصيته القديمة، فأصبح يتعذر التعرف عليه عمدا. يتخلى البعض على هذا النحو عن مراكز ثقلهم، فيدَعون أنفسهم تتهاوى في اللامكان. فكأنهم يعملون على نفي ولادتهم، ويتخلصون من طبقات هويتهم كي يقلّصوها إلى أدنى درجة، ليس من أجل بدء حياة جديدة وبعث جديد، وإنّما من أجل التنحي بتكتم. عندما يتوفى البعض، فإنهم يكونون قد اختفوا منذ زمان مضى، ولا تعود الموت بالنسبة إليهم إلا إجراء شكليا.

آخرون، من غير أن يكونوا قد تعرضوا بالضرورة لحكاية مؤلمة، فإنهم يختارون التكتّم والعزلة و«اللجوء إلى الغابات» أو البرية، بحثا عن هدوءٍ لم يعد الرباط الاجتماعي يوفره لهم. إنهم ليسوا مُعادين للبشر، إلا أنّ عشقهم للصمت، والحميمية، والرصانة يفوق مزايا الروابط الاجتماعية. هم لم يتخلوا بالتمام عن تلك الروابط، إلا أنهم، رغم ذلك، يوفرون لأنفسهم لحظاتِ تنحٍّ وانسحاب. يمكن للمرء أن يغلق الأبواب على نفسه، ويجعل من بيته ديرا بألا يعطي نفسه للآخرين إلا لماما، وألاّ يُكثر من الخروج إلا من أجل المهام الضرورية كي يوفّر الغذاء ويسهر على نظافة المكان.

يتذكر **السيد ليريس** مقالا كان قد اطلع عليه في صحيفة لوموند. يستحضر صحافي مصارعَ ثيران شهير يعبر عن وداعه في إحدى حلبات مصارعة الثيران في مدريد. عندما طرح عليه السؤال: ماذا ينوي فعله فيما بعد؟ ردّ قائلا: «سأتعلم ألا أكون شيئا». انزعج

ليريس من هذا الردّ، وفيما وراء إجابة المصارع، أخذ يفكر في دلالة التنحّي. فأعطاه تعريفا يمكن أن يصدق على **البياض**: «ألا يعود للمرء وجود، لا من قِبَل نفسه، ولا من خلال وسيط. أن يكون المرء خارج فعل الكينونة، مثلما هو شأن العبارة خارج مدارات الخطاب، الخطاب الملغى (...) حيث لن يكون هناك من يعبّر عن شيء. إنه بلوغ النقطة التي تتمرد على أسماء المواقع الجغرافية جميعها، بما فيها تلك المحاولة لوصفها لكي نمارس عليها سيادة مجردة، وهي نقطة من شأن كلمة صفر الفرنسية مجردة من بعض أحرفها أن تغدو دائرة ترسم صورتها» *(ليريس Leiris، 1976، 249)*. التحلّل إمكانية للانسحاب من وضع يبدو ألا مخرج منه. عندما يواجه الفرد اللامبالاة الاجتماعية إما نتيجة لتغيّر وضعه بعد تقاعده على سبيل المثال، أو بعد دخوله في البطالة أو، في بعض الأحيان، بعد صعوبات العثور على مكانه في العالم، فإنّه يتخلّى عن القتال، ويهمل نفسه إهمالا شديدا أو خفيفًا حسب الظروف. وقد يجد في ذلك راحته المنشودة في بعض الأحيان. إنه يعلم أنّه لا يستطيع أن يبدّل الأمور. وكل نقاش مآله الفشل، فالوضع ميؤوس منه. الانسحاب هو الإمكانية القصوى والفرصة الأخيرة لكي لا يتعرض المرء للسحق، أو لكي لا يشعر بثقل ذلك على كاهله. من الأفضل للمرء أن ينسحب وفق ما تمليه عليه نفسه عوض أن يطرده الآخرون، أو تقصيه الظروف. بانسحابه، يظل محافظا على التحكّم في وجوده، حتى وإن كان يفقد، في نهاية الأمر، كل ما كانَه فيما قبل.

حينئذ، يرفض الفرد كل اعتراف اجتماعي. وهو يوجد بين

الآخرين مثل شبح وظل منفصل عن شخصه. يقفل غرفة على نفسه، ولا يغادرها إلا من أجل قضاء حاجات بسيطة تتعلق ببقائه على قيد الحياة، كالتغذية على سبيل المثال. أو أنه يظل عالة على أقربائه الذين يستسلمون لحضور ساخط غير مبالٍ. إنه ينحدر من مرتبة الشخص personne إلى مرتبة القناع persona، حسب الاشتقاق اللاتيني للكلمة الفرنسية. يصبح قناعا لا وجود لشخص يلبسه، ويعطيه وجهه. لا شيء يخفيه القناع. لا شخص.

البياض إرادة إبطاء تدفق الفكر أو تعطيله، إنه رغبة في وضع حدّ للضرورة الاجتماعية لتكوين شخصية بحسب المخاطب الماثل أمامها. وهو سعي وراء فقدان الشخصية، وميل نحو الظهور بشكل محايد. وهو يغدو، في بعض الأحيان، نمطا مألوفا للعيش. إنه تحويل الفرد لروابطه الاجتماعية إلى صحراء كي يتصرف كمتفرج لا مبالٍ بعيدٍ عن كل تأثير. **البياض** انغلاق وانسداد أمام الحدث، إنه تخفيض للطاقة يدفع المرء لأن يحيا في أدنى حدّ، بله في توقف، وفي وضع شبيه بالزِّين الشرقي، وفي انفصال مطلق. على هذا النحو وصف بيير جاني - P. Janet ، ومنذ بداية القرن الماضي مرْضى أنهكَهم الشعور بالفراغ، إنهم لا يشكون من أيّ ألم، ولا يهتمون بشيء، ولا يحسون بشيء مثل مادلين التي تقول: «لم أعد أقوى على فعل أيّ شيء، ولا الشعور بأي شيء. أنا في عطالة تامة، في حالة خمول لن يخرجني منها أيّ شيء. منذ طفولتي، كنت أعرف لحظات اللامبالاة هذه اتجاه كل شيء، وكذا فظاظة القلب التي يستحيل التعبير عنها» *(جاني، 2005، 55)* لكن، في ذلك العهد

كان هؤلاء الرجال والنساء ما زالوا نادرين.

على هذا النحو، تروي غوينيل أوبري Gwenaëlle Aubry التحوّل التدريجي لوالدها نحو الامّحاء، ورغبته الملحّة لكي يعود لا أحد. فهذا الرجل، الذي كان فيما مضى شديد الحركة والنشاط، منخرطا في الحياة الاجتماعية، أخذ، على مرّ الأيام، يتخلص من كل صفات الوجود الجماعي: «رأيت والدي عريانَ وقد هوى من عرشه، لقد غدا والدي لا شيء، لا شيء إطلاقا، رأيت والدي وقد أفرغ من كونه شخصا» *(2009، 33)*. هذا الرجل يتوق إلى الاختفاء بحيث لا يعود يُرى. «بمعنى أنه كان يريد فقط أن يكتفي بالوجود، خالعا أقنعته، مجردا من ثيابه، نابذا أدواره، والشخصيات التي ما انفك يجسدها، خلال حياته بكاملها. كان يريد أن يتخلص من الخصال التي تحلّى بها واحدة تلو الأخرى، باحثا عن تلك التي تحدّد شخصيته، وتعطيه شكلا ومحتوى(...) حل يوم أراد فيه أن يتخلص منها، ولو كلفه ذلك أن يسير عاريا، وألا يكون أيّ شيء، رجلا من غير خصال أو حتى أقل من ذلك، أو أكثر بكثير، رجلا فحسب كان يحيا بالرغم من كل شيء» *(120-121)*.

كثيرا ما نلفي هذه الرغبة في الامّحاء والتستر. يصف بول أوستر Paul Auster ، الذي تقع شخصياته كثيرا تحت تهديد الغياب، يصف والده من المنظور نفسه: «كان، حتى أثناء حياته، غائبا، وكان أقرباؤه قد تعلّموا منذ زمان أن يتقبلوا هذا الغياب، وأن يروا فيه تجليا أساسا لوجوده. والآن وقد رحل، فإن باستطاعة الناس أن

يستوعبوا، دون صعوبة، فكرة أن الغياب سيدوم. لقد هيأتهم طريقة حياته لتقبل موته-لقد كانت موتا قبل الأوان (...) لم تكن له القدرة إطلاقا على أن يوجد حيث كان. كان طيلة حياته بعيدا، بين الهُنا والهناك. ليس هنا أبدا. وليس هناك بالفعل(...) لا يمكن للمرء أن يؤمن بوجود مثل هذا الرجل، الخالي من المشاعر، والذي لا ينتظر من الآخرين إلا القليل» *(أوستر، 1988 أ، 13، 27، 29)*.
يظل الفرد على سطح الروابط الاجتماعية، غارقا في شخصه، يشوش عليه وجودٌ لا يعرف كيف يقوده. هو لا يعطي نفسه للآخرين، ولكنه لا يفعل ذلك حتى بالنسبة إلى نفسه. يتعلق الأمر بأن يكون المرء موجودًا أقل ما يمكن، وألا يجد نفسه محشورا ضمن تدفّق الحياة المشتركة.

بعد تأثر إيميلي ديكنسون من دون شك بفعل انفصالها المبكّر عن أمها مباشرة بعد ولادتها، اتخذت نفسها ملجأ، ودخلت في «عزلة وجودية» *(مالرو Malroux، 2005، 146)*، وستقول فيما بعد إنها لم تكن لها أمّ قط. عندما بلغت سنّ الثلاثين، قررت ألا تغادر البيت. انزوت في غرفتها، رافضة اللقاء مع الآخرين، بعد أن كرّست فترة طويلة من أجل والديها. عندما يرن جرس الباب، تحتمي بغرفتها، وإذا ما اضطرت إلى تبادل بعض الكلمات مع الزائر، فإنها كانت تحدّثه من وراء الباب رافضة كل مواجهة. بيد أنّ الزيارات كانت من النّدرة إلى حدّ أن مالرو يتحدث عن مجرد إطلالات *(152)*. تذهب إلى الكنيسة في الصباح الباكر كي لا تصادف أحدا. عندما توفيت والدتها، حضرت مراسيم الجنازة في منزل العائلة مطلة من

أعلى نافذة على الدّرج. كانت تحبس نفسها في غرفتها في زنزانة دير، لا تعيش إلا من أجل الكتابة، إلا أنها لم تنشر أيّ نص أثناء حياتها. عندما يصيبها المرض، يكتفي الطبيب بأن يلقي نظرة على مريضته الممدَّدة على السّرير من غير أن يقتحم باب الغرفة. يتحدث مالرو *(143)* عن «صوت مسجونة على قيد الحياة». عندما استقبلت في آخر حياتها، صديقة طفولة، لم تنزل من غرفتها كي تراها، تبادلت المرأتان الكلام على بعد طابق من آخر. من أجل جنازتها، أوصت بألاّ يعبُر نعشها الطرقات، وإنّما الحقول، وقد دفنت في مرج في ملك أسرتها بين نباتات أزرار الذهب التي كانت تحلم بها. كانت تحرص على الاختفاء طيلة حياتها، بل وحتى بعد موتها. كانت تحرص على البياض، فتلبس رداء أبيض، وتملأ غرفتها زنابق بيضاء. يحبس البعض أنفسهم في شقتهم أو منزلهم، ولا يغادرون إلا من أجل الضرورة القصوى. إنهم يحولون مساكنهم إلى نوع من المناسك لإيواء رغبتهم في العزلة أو انسحابهم الجذري من العالم. لا يعود هنالك زوار يأتون لرؤيتهم. مثال من بين ألف، ففي شهر سبتمبر 2012، عثر على جثة محنّطة في إحدى الشقق. كانت جثة رجل في سن الأربعين. كانت والدته قد توفيت في شهر نوفمبر من العام السابق. كان حاضرا أثناء الدفن، فجدّد عقد الإيجار، ثم أغلق على نفسه الشقة مرتديا ملابس والدته، كما لو كانا كائنا واحدا هي وهو، فجوّع نفسه حتى الموت *(ليبيراسيون، 3 سبتمبر، 2012)*. مثل هذه الوقائع أمر شائع، وهي تشهد على الرغبة اليائسة في الانسحاب بعيدا عن الروابط الاجتماعية عندما لا يتبقى هناك معنى ويتبدّد

طعم الحياة. صحيح أنّ هذه العزلة الشديدة لا تكون دوما عن اختيار وطواعية، فهي قد تفرض فرضا في بعض الأحيان، وتنكشف كعرَض من أعراض الانعزال الذي يطرأ على الروابط الاجتماعية، وكلامبالاة بالآخرين.

إلا أنّ الأمر لا يتعلق، في بعض الأحيان، بفقدان الشخصية، وإنّما بإذابتها، والتخلص من إكراهات الهوية جميعها بهدف الوجود في حد أدني. روبرت فالزر R. Walser كاتب عظيم، إلا أنه ليس معروفا إلا عند القليلين لكون أعماله خارجَ المألوف. يقول في هذا المضمار بنوع من الاطمئنان: «هناك بالفعل أناس يودون أن يستخلصوا من الكتب دروسا من أجل الحياة. بالنسبة إلى هؤلاء الذين يستحقون كل الاحترام، عليّ أن أقول لهم إنني، بكل أسف، لا أكتب». عن شخوص ر. فالزر وقصصه ورواياته، يقول ف. بنيامين W. Benjamin إنها لا تأتي إلا عن مجنون. «إنها شخوص تخطّت الجنون، ولهذا السبب، فإنّها تدل على سطحية مروعة، لاإنسانية ولا يمكن مسّها. لكي نوجز ما تتضمنه من سحر وقلق، يمكننا أن نقول إنّها جميعها قد مثلت للشفاء» *(بنيامين، 2000، 160)*. ر. فالزر شخصية تدفعها الرغبة في أن تتخفى عن ذاتها، تحركها إرادة ألا تتحمل الإكراهات التي تمليها عليها هويتها. رغم ما نشره من كتب ومقالات، فإنّه يرفض أيّ حل وسط في عالم لا يتمكن فيه من أن يتعرّف على ذاته من غير أن يكون في وضعية رفض إزاءه. العالم حاضر موجود، إلا أنه يفقد الاهتمام به، لأنه إذا كان ينبغي التوقّف عنده، فيلزم أن يضطلع باسمه، وتاريخه، وهي

مسؤولية بكاملها. وهذا بالضبط ما رفضه على الدوام.

لكي يختفي فالزر، يتقمص الدور الذي أُسند له، إنه يمّحي كفاعل يتحكم في وجوده ويسلّم نفسه طواعيةً لثقل الأشياء. كتب: بما أنه لم يكن قطّ طفلا، فإنه سيحتفظ دائما في نفسه بشيء من الطفولة. يظلّ كما لو كان معلقا خارج الوجود، وراء جدار لامرئي يقوده نحو أسلوبه الغريب، المتميز في الوقت نفسه بالسخرية، والصبيانية والجدية والاستطراد، بحيث يحيد دوما ولا يدور حول مركز بعينه. إنها كتابة الغياب، والمسافة، والحنان الذي تطبعه خيبة أمل. وهي تبدو في الظاهر كما لو كانت من غير سُمك، إلا أنها قد أثارت، بالرغم من ذلك، إعجاب كافكا، وموسيل Musil، وهيس Hesse، وبنيامين، وتوشولسكي Tucholsky. «نكتفي بالقول إنَّ الكتابة من غير تصحيح للأخطاء هي التي تمثل أحسن تمثيل غيابا مطلقا للقصد والتعمّد» *(بنيامين، 2000، 157)*. تسعى شخوصه، على غراره، نحو اللامعنى، وهي ترمي إلى الاندماج في الوسط، وألاّ يكون لها هدف، وأن تضيع في التفاصيل. فهي من دون سمك، أو لنقل، بالأحرى، إن كل عمقها يُعطى على سطحها. كتب في **الأبناء تانر** Les Enfants Tanner *(فالزر، 1985، 336)*: «أنا دائما أمام باب الحياة، أطرق، وأعيد الطرق، صحيح من غير عنف، أسيخ السمع، وأصغي ما إذا كان أحد قادما ليزيح القفل، ويفتح لي الباب (...) أنا شخص يُحسن الإصغاء، وينتظر، لا شيء غير هذا، إلا أنني، بهذا الصدد، مثالي، لأنني، عند الانتظار، تعلمت أن أحلم». يتعلق الأمر بأن يوجد الشخص

حسب الأنماط الباطنية للغياب.

غادر فالزر المدرسة بسرعة. ودخل للتدريب المهني في سنّ الرابعة عشرة في أحدِ فروع الشركة التابعة للبنك كانتون برن. عندما كان يشتغل فيها موظفا تجاريا، برز بجمال خطه فأخذ يتطور في مجال عمله. بعد سنوات قليلة دخل مدرسة الخدم التي مكنته سنة 1908 من تأليف **معهد بنيامانتا** L'institut Benjamenta. تولى لفترة خدمة قصر دامبروDambreau. فشرع في الكتابة. عند عودته إلى برلين، تردّد على الأوساط الأدبية، من غير أن يرتاح لها. أخذ ينشر نصوصا نثرية قصيرة، ثم نشر **الأبناء تانر** Les Enfants Tanner سنة 1906، و**الإنسان القادر على فعل أيّ شيء** *L'Homme à tout faire* سنة 1911. أثار **معهد بنيامانتا** انتباه كافكا، فقرأه كمؤلّف باعث على الحيرة، جاء قبل أوانه. في سنة 1911 اشتغل فالزر ككاتب وموظف تجاري وملمّع أحذية. كان يقحم نفسه في أعمال وضيعة بحيث لا يعود مرئيا، لا جدوى منها اللهم إلا التنقل من مهمة لأخرى، ودون تبرير أو تقديم أيّ حساب. بعد فترة من الفوضى الباطنية، كان خلالها يسمع أصواتا، التجأ إلى أخته، ثم إلى أبيه، إلى أن كان انعزاله لوحده في سقيفة. لا يربطه بالعالم سوى الكتابة. فيها يختفي، لأنّ العيش، حتى في أدنى درجة كان بالنسبة إليه أمرا أكثر من اللازم.

اضطرابات نفسية أدت إلى إدخاله العيادة في فالداو سنة 1929. سنوات فيما بعد، نقل فالزر إلى هيريسو، فلم يعد يكتب فحسب،

بل إنه غدا لامباليا بمآل ما سبق أن كتبه، كما لو أن أحدا آخر هو الذي حرره. يكاد لا يستقبل أي زيارة، اللهم إلا زيارة س. سيليغ C. Seelig الذي كان يأخذه للمشي مسافات طويلة حول المصحة، وهي جولات كتب عنها سيليغ كتابا مدهشا: **جولات مع روبير فالزر** Promenades avec Robert Walser (1992). داخل المؤسسة، كان فالزر يسعى كذلك إلى التخفّي عن ذاته، فكان يقضي الساعات الطوال في تقشير الخضر، أو فرز البازلاء، أو صنع القنب والأكياس، أو تقديم يد المساعدة لمدبرات النزل. خلال جولاته مع سيليغ، كان يذكّره برغبته في العودة إلى المصحة في الوقت المناسب، وبالضبط ليتمّ نسيانه هناك كي ينخرط في شؤونه من غير أن يزعج أحدا: «إنها مسألة شرف. ثم إنني الآن محسوب على هيريسو، وعليّ واجبات يومية لا أريد أن أخلّ بها بأيّ حال من الأحوال. فضلا على أنني لا أريد أن أثير الانتباه، لا أريد أن أعّكر نظام رعاية المسنين. لا أسمح لنفسي بذلك(...). ألست في حاجة إلى طمأنينتي؟ في مثل هذه الحال، الأفضل أن تبقى بمفردك. لم أكن أريد شيئا آخر، عندما أدخلوني إلى المشفى. البسطاء مثلنا ينبغي أن يتركوا لشأنهم قدر الإمكان في مثل هذه الأحوال» (أورده سيليغ، 1992، 71). كان فكره يثقل عليه لأن «الإنسان عندما يكون واعيا بحاله، فإنه يلاقي دوما ما يعكر ضميره» (46). في مستهل كتابه **معهد بنيامانتا**، يذكر الولد الصغير برنامجا هو الذي سيطالب به فالزر: «ما أعرفه هو أنني سأصبح لاحقا صفرا أجوف». لا طموح آخر سوى الامّحاء، والتحلل من أيّ رابطة اجتماعية، ولكن

في تستر لا متناه. يفسر تهميشَه في محادثاته مع سيليغ على هذا النحو: كونه لم يرد قط أن يبذل أدنى مجهود: «لذا بقيت في أعينهم صفرا أجوف، شخصا لا يضاهي قيمةَ حبلِ مشنقته». يقول ب. لاكادي P. Lacadée: «أن تصبح عديم الدلالة تافها، أن تكون في الوقت ذاته بلا معنى، ولا أهمية اجتماعية» (2010، 95). يبني فالزر لنفسه ملجأ، ديرا باطنيا، لا أحد يمكن أن يقتحمه. وهو يسعى إلى أن يمرّ من غير أن يلتفت إليه أحد: «كانت الأرض قد أصبحت حلما، وأنا نفسي كنت قد صرت شيئا باطنيا... لم أعد أنا نفسي، بل صرت آخر، ومع ذلك، ولهذا السبب بالذات، كنت أنا نفسي... الإنسان بداخلي هو الذي يوجد بحقّ». الشخوص الذين يبدعهم فالزر لم يريدوا أن يكونوا أفرادا، ومهمة أن يكونوا هم ذاتَهم مهمة لا تعنيهم في شيء، كانوا يرمون إلى الاندماج في الديكور.

يطارده بياض الثلج، كهاجس من غير شك، ولكن، قبل كل شيء، لأنه يغلف ببساطته الهادئة تعقيدات العالم وتناقضاته. إنه يضفي على الأشياء مسحة انسجام ووحدة وانتظام. وهو يقضي على كل مسؤولية إزاء الوسط، ويود أن يتلحّف بها كي يغدو هو كذلك أخرسَ لا مرئيا. عندما تكسو الفضاءَ بياضا، فإنها تجعله يختفي برقة ومن غير إزعاج. فيزيد الصمت من حوله من حدة هذا الشعور بعالم ملغى لم يعد في حاجة إلى أيّ شيء، ويمكن أخيرا الاستراحة منه. كل هروب نحو مسؤولية ما سيصبح ملغى. «هذا النوع من السلم كان خارجا، كما كان ينبغي أن نتقبل بالرغم منا أنّ كل شيء في العالم قد امتلأ، وانقضى وتهدّأ» *(فالزر، 2000، 228)*. الثلج

مكان ملكي للاختفاء.

ظل فالزر في الملجأ واضحا مع نفسه لا يتراجع بصدد قراره في التخلّي عن هويته. كتب في **معهد بنيامانتا**: «أن أكون تافهًا لا أعني شيئًا، وأظل كذلك. وعندما تحملني يد، أو ظرف من الظروف أو موجة من الأمواج، فتأخذني نحو الأعلى، هناك حيث تسود القوة والائتمان، فإنني سأعمل على تدمير الوضع الذي قد يكون في صالحي، وألقي بنفسي في هاوية الظلام المتدني عديم الجدوى. فأنا لا أقدر على التنفس إلا في المناطق الدنيا» *(1960، 209)*. تلقى نبأ وفاة أخيه كارل بنوع من المسافة. عندما أصيبت أخته ليزا بمرض، وكانت تشقّ طريقها ببطء نحو الموت، لم تخطر بباله أيّ رغبة في رؤيتها من جديد. عندما كشف الطبيب إصابته باختلال في الأمعاء، رفض كلّ علاج، وأيّ عملية جراحية، إلا أنّ المرض لم يؤثّر عليه، ولن يتوفى إلا أحد عشر عاما فيما بعد. كما أنّه رفض أيّ علاج تحليلي اقترحه عليه أحد الأطباء النفسيين في هيريسو. كان يشعر برضا في غيابه، ولم يكن ليرغب في تغيير شخصه.مكتبة سُر مَن قرأ

في الأبناء تانر (Les Enfants Tanner) يصف اكتشاف أحد شخوصه في الغابة لـ«شاب ملقى في الثلج على الطريق»، سقط منهكا على الأرض فتوفي من شدة البرد. ظلّ مندهشا فقال في نفسه: «إنه اختار قبره بنبل. هنا، تحت أشجار التنوب الخضراء الرائعة المغطاة بالثلوج» *(1985، 135)*. أياما قليلة قبل ذلك، كان هناك لقاء آخر مخطط له مع س. سيليغ، يوم عيد الفصح لعام 1956،

وكان وقتها قد بلغ سن ثمانية وسبعين عاما، فقام فالزر بجولته المعهودة في الريف المكسوّ بالثلوج. اتجه نحو أطلال روزنبرغ، لكي يتأمل المنظر الرائع لجبال الألب. تسلق بين أشجار الزان والتنوب. وفجأة خانه قلبه، فهوى إلى الوراء، ووضع يده على صدره وهو ممدّد على ظهره. مات فوق الثلج. فيما بعد اكتشفه أطفال، فأعلموا بالفاجعة. تُوفي فالزر وهو يقوم بإحدى جولاته. إنّها كيفية أخرى، أكثر اعتيادا، لكي لا يكون هنا.

مثل الدير، ولكن في سياق دنيوي، يشكل مستشفى الطب النفسي مكانا للاختفاء، إنه ملجأ لا يعود فيه للفرد أيّ حساب يقدمه، حيث ينتقل من مهمة لأخرى خلال جدول زمني تدبره المؤسسة بكامله. لم يعد عليه أن يعتني بوجوده، هناك آخرون من حوله مكلفون بالسهر عليه. المستشفى فضاء يتخلى فيه المرء عن نفسه، حتى ولو كان يخيّم عليه محيط صعب في البداية، إلا أن ذلك هو الثمن الذي ينبغي دفعه مقابل الهدوء وراحة البال وتعطيل الوعي عن العمل، ومحو الزمان لصالح ديمومة لا تُخفي أي مفاجأة. كثير من الأفراد يجدون فيه مأوى وحِمَى ضد اضطراب اجتماعي لا يجدون فيه أنفسهم. ومهمة أن يكونوا هم أنفسَهم، مهمة عسيرة بالنسبة إليهم. فكما يقول أحد شخوص بيكيت، الذي عجز عن أن يستمر في العيش داخل الروابط الاجتماعية: «كانت تراودني الرغبة في أن أحبس من جديد في مكان مغلق، فارغ ودافئ، تنيره أضواء اصطناعية» *(1950، 86)*. يفوّض الفرد مسؤولياته للآخرين، لأقربائه الذين يواصلون زيارته والمحافظة على وجوده الشّبحي

داخل حضنهم الاجتماعي، كما يفوضها للطاقم الطبي الذي يسهر على راحته باستمرار، ويخفف عنه كلّ مهام الحياة اليومية. في كثير من الأحيان يقبل أيضا مؤثرا عقليا يزيد من محو إحساسه بذاته، ويتركه عائما على مدار الأيام. في هذه الظروف يقيم لنفسه مساحة تخميد بحيث لا تصله ضوضاء العالم إلاّ بعد تصفية، فيتمكن من أن يعمل كما لو أنّه لا يسمعها، فيواصل حياته ببطء. المؤسسة خطّ فاصل، وهي نوع من الملاذ بعيدا عن تناقضات العالم الخارجي التي لا تحتمل. في إحدى قصص بيكيت، لا يرى مورفي Murphy «المرضى كما لو كانوا منبوذي نظام صالح، وإنما كمن نجوا من إخفاق هائل» (بيكيت Beckett، 1947، 133)[2] آخرون أكثر عددا، يظلون عند أسرهم، محميين محاطين معفيين من المهام المعتادة. يعيشون بصمت مكتفين بحركات دنيا، وبحفنة من الأنشطة المتناثرة، أو أنهم يظلون قابعين في غرفهم.

---

(2) يمكن أن نضع أعمال بيكيت كلها تحت راية الاختفاء، شخوصه تتحلل شيئا فشيئا على مر الزمان، وعندما تتآكل بفعل التاريخ، وتغدو بلا سُمك، تود أن تصبح هوائية محررة من عناء عيشها والعوائق التي تشدها إلى العالم، إلا أن بقايا جسد يشدها إلى وضعها البشري. فتغدو كلماتها نادرة، وتُستنفد وسائل تعبيرها، بحيث لا تغدو اللغة أو الصوت إلا شظايا وجود ما زالت أسيرة بقايا جسد. المكان مشترك بينها، لكن الزمان موزع إلى ما لانهاية له، وكل شخص من الشخوص يسبح في قطعته. المتشردون يطاردون صفحات بيكيت، وهم يجسدون بالضبط اللامأوى واللامكان، رحلة الذات، واستحالة حمل هوية. "لم أكن هنا قط.. أنا غائبة على الدوام. كل شيء تمّ من دوني. لا أدري ما الذي وقع" (1957، 97). على خشبة مسرحية يا لها من أيام جميلة، تتساءلويني: "(...) ماذا عساي أعمل. طوال اليوم، أقصد منذ اللحظة التي ترن فيها ساعة المنبه من أجل الاستيقاظ، إلى حين ترن من أجل النوم؟ (وقفة) ببساطة التحديق أمامي والشفاه مطوية؟ (وقفة طويلة بينما هي تقوم بذلك. تتوقف عن جر العشب.) لا كلمة حتى آخر نفَس، لا شيء يعكر صفو صمت المكان" (1974، 27).

في بعض الأحيان، لا يجد الفرد مكانه في العالم، فيحس بأنه مختلف، وأنه غير معني كثيرا بالحركات التي تجري من حوله. بما أنه يكون غارقا في منفى باطني، مستبعدا من الحياة الاجتماعية حتى ولو قبل المشاركة فيها بحد أدنى، فإنه يفصل عن عالم الآخرين، فيقتصر على العيش في عالمه الخاص. يتعرض ثقل التفرد، وضرورة بذل مجهود دائم ليكون الفرد هو ذاته، وكذا التظاهر بالحضور في حضن المجتمع، تتعرض كل هذه الأمور إلى التهديد الدائم بالاكتئاب، ولكن أيضا بصورة أكثر تسترا، هي صورة فقدان الفرد لشخصيته التي تعني رفض المشاركة في مهزلة الاستعداد للتواصل مع الآخرين وذلك بالانزواء في ركن ميت ضمن الحياة الاجتماعية. حينها يغدو الفرد منفصلا، لامباليا، إلا أنه هنا من غير أن يشعر بأنّ عليه أن يشارك. مواجهةً لحركات العالم هذه، التي يعجز عن متابعتها، يطالب بالحق في الامتناع، وبالصمت، والامحاء والانسحاب. العيش في نطاق الحياة الاجتماعية المشتركة يشكل بالنسبة إليه مطلبا مضنيا. لذا ينعزل، ولا يغادر البيت إلا نادرا، تفاديا لكل لقاء إن لم يحس أن في مقدوره مواجهته، فيدخر بذلك قواه الباطنية، ويصبح ناسكا ضمن الحشد. إنه يظل يظهر في المجال، إلا أنه يمتنع عن المشاركة. ينتابه الإحساس أنه لم يعد لديه ما يعطيه.

لامبالاة

هناك لامبالاة ضرورية لسلوك الحياة اليومية، إلا أنها قبل كل

شيء، شكل من أشكال التكتم، تفاديا لإزعاج الآخرين، أو تجنبا لملاحظاتهم. إنها نوع من «عدم الانتباه المهذّب». يكون الانفصال، في بعض الأحيان، شكلا متعمّدا من الاستقلال الذاتي، وموقفا رواقيا يتخذه الفرد الواعي إزاء عجزه عن تغيير الأشياء، أو ما لا يودّه. غير أن اللامبالاة تتعلق هنا بالأشكال الجذرية التي تعبر عن الرغبة في عدم المساهمة في حركات الروابط الاجتماعية، والتزام المسافة إزاء التفاعلات المتبادلة، وعدم المشاركة فيها إلا على نحو غير شخصي. إنّها تكون حينئذ نوعا من الإلغاء الجذري لكل إحساس عاطفي، ومن الإبطال الذي يتخطى مجرد التحفظ الذي تفرضه الحياة اليومية حمايةً من الآخرين.

أحيانا يكون التخلي عن الذات هو الطريقة الوحيدة لكي لا يموت المرء، أو لكي ينجو مما هو أشد سوءا من الموت. لا يعود الأمر يتعلق بالانزلاق على غرار «الأنا آخر»، وإنما على غرار «أنا موجود في مكان آخر، إلا أن ذلك لا يهمني». إنها محاولة للاستمرار في العيش بالتخلص من مجهود العيش، وهي تعبر عن مسافة، وعياء، وليس عن رغبة في الموت. إنه الخروج عن الذات من أجل التقاط الأنفاس، ألاّ يكون هنا، ولكن مع الاحتفاظ بالعودة إن أمكن. إنه تخل متعمَّد عن الشخصية، يكاد يكون تخليا تجريبيا، ولكن، ليس أساسا لاستكشاف عوالم أخرى، بقدر ما هو تحرر من ثقل أن يكون الشخص هو ذاتَه. إنه انغماس في زمن بطيء، بل هو توقف للزمن، وركود يمحو الديمومة، ويحول دون الارتماء في المستقبل. يستسلم الفرد، ويتوقف عن التشبث بواقع يثقل كاهله.

يفقد الوجود كل طعم، ويبدو كما لو أنه بعيد، لامبال، يدعو إلى الاستقالة الهادئة، إنها كيفية لترك الأشياء تعمل لوحدها. ينساب الزمن من غير مشاركة الفرد الذي يُعفى من أيّ مسؤولية في سياق التبادل. إنه لم يعد معنيا، لأنه منسحب من العالم. بهذا المعنى، فإن اللامبالاة شكل من أشكال الطمأنينة الأبيقورية وفقدان العاطفة الرواقي. إنها موقف سلبي إزاء الأحداث(3).

يحكي ميلفيل Melville قصة بارتلبي Bartleby، وهو موظف مكتب تمّ تعيينه مؤخرا. واجه الرجل عمله في البداية بنوع من الشغف، «حتى وإن كان يكتب بطريقة باهتة صامتة وميكانيكية» *(ميلفيل Melville، 1951، 44)*. بعد أن استوفى، على هذا النحو، متطلبات عمله خلال أسابيع، قرر فجأة، من تلقاء نفسه، ألا يهتم إلا ببعض الأعمال. كلفه مستخدِمه ذات يوم مهمة بسيطة، لكن بارتلبي امتنع. وعبر عن ذلك عن طريق عبارة مقتضبة وهادئة: «أفضّل ألا أقوم بذلك»، كان يرفض المهامّ التي تسند إليه، ولا

---

(3) يزخر الأدب بأشكال الغياب أو السينما اليابانية. هذا شأن أفلام كيتانو التي غالبا ما تدور أحداثها في "فضاء اللامبالاة". حيث تولّد لامبالاة الممثل. "مشيته والمسافات التي تخلق في اللقطة من طرف عين بعيدة. تخلق مناخا باردا يزيد من حدة عنف ياكوزا أو الشرطة" (بوسي-غلوكسمان، 2001، 125). إنها شخوص متصلة منفصلة في الوقت ذاته، هي هنا وفي أي مكان آخر، بدون سمك، ومع ذلك في تحيا، إلا أن مسافة تسكنها. سنة 1967 صور إمامورا فيلم "تبخر الانسان"، وهو يحكي قصة بحث عن موظف هجر يوما ما عمله، ففقدت عائلته وزوجته كل أثر عنه. يستحضر إمامورا عشرات الآلاف من الاختفاءات السنوية المماثلة كان المجتمع الياباني قد عرفها وقتئذ. لكن ينبغي أيضا أن نذكر روايات يوكو أوغاوا، وآروكي موراكامي، وريوموراكامي، وهايشيرو هيرانو الخ. وكذا أفلام كيوشي كوروزاوا، وهيروكازوكوريدا، وناوومي كاوازي، الخ. الأمر نفسه بالنسبة للمسرح: بوتو وأجساده العارية والمجردة من كل بهرج اجتماعي، وكل حمولة معنوية، بحركاتها شديدة البطء، والبعيدة عن أي مرجعية اجتماعية.

يرضى إلا ببعضها. وفيما بعد، ورغم إصرار رئيسه أو الموظفين معه، فإنه لم يكن يجيب، فكان يخلد لصمت لا يمكن اختراقه، أو لتكرار مؤلم لرفض يسبب قلقا متزايدا. يعكس بارتلبي Bartleby وضع المشاركة الذي يفرض على الموظف الخضوع لأمر معقول يصدر عن مستخدِمه، أو على الأقل، تبرير رفض الاستجابة الفورية لذلك الأمر. تخلى عن متطلبات الروابط الاجتماعية، ولم يعد يقبل المعاملة بالمثل من غير أن يقف متمردا أو منشقا. لقد كان يقدم نفسه كشخص بعيد المنال. ولم يكن مع الرفض، ولا مع القبول would prefer not to، فلا يترك فرصة لمحاوريه المندهشين من هذا الموقف. يعمل مستخدِمه على تصحيح أقواله، في محاولة يائسة لرده إلى قواعد الروابط الاجتماعية الجاري بها العمل في هذا السياق: «أنت لا تريد؟» فإذا ما قبل التراجع عن أقواله، فإن الأمور تعود إلى مجاريها، وتستعيد معناها. إلا أن بارتلبي يواصل إصراره، فتظل كلماته خالية من كل دلالة. فمهما قلبناها، فإنها تعرِّض اللغة إلى الفشل مستبعدة إياها من مرجعياتها المشتركة. فإذا كانت أقوالها مفهومة بمعناها الحرفي، فإنها لن تعود كذلك في سياق التبادل الاجتماعي، «إنها لا يمكن أن تُردّ لا إلى قطب الوجود، ولا إلى قطب العدم» *(أغامبن Agamben، 1995، 49)*.

كل المحاولات التي تروم إخراجه من تحفظه تبوء بالفشل واحدة تلو الأخرى: التهديد، الإغراء، التودّد، كل هذه المحاولات تلاقي العبارة ذاتها «أفضل ألا أقوم بذلك»، يتلوها صمت لا يمكن لأيّ كان أن يبدّده. تظل توسلات مستخدِمه من غير جدوى. يرفض

بارتلبي حتى أن يغادر المكتب حيث يقف صامتا أمام دعوات رئيسه الذي يرغب في أن يراه قد أخلى المكان. لقد كان جدارا من الصمت الهادئ أمام رفقائه المذهولين العاجزين عن تحريكه أو التخلص منه. أيُّ مسعى لفهم موقفه، وتتبع مسار تاريخه، لا يؤول إلا إلى الفشل وعدم القبول. بيد أن الامتناع لا يمكنه أن يستمر لمدة طويلة خلال جدال، اللهم إلا إذا تسبب في إزعاج المحاور، بل فقدانه لصبره، لكنه هو الطريقة الوحيدة التي يقدم بها بارتلبي نفسه. إذا كان إنسان ما على خلاف مع المهمة المسندة له، أو إذا ما أبى أن يجيب عن سؤال يطرح عليه، فلديه ما يسمح بأن يتردد أو ينتفض، ولكن إذا ما راهن على اللامبالاة، فإنه يغدو منبعا لبث الفوضى. عندما يخرق بارتلبي قواعد المعاملة والتبادل، وعندما يجعل من الصمت وسيلته الوحيدة في التواصل، فإنه يحكم على نفسه بالاستبعاد، لأن مثل هذا الموقف، في الحياة اليومية، ليس إلا جوابا مؤقتا مستندا إلى أسباب ضمنية عند الأفراد الداخلين في الحوار (لوبروتون، 2015). وهو عندما يجعل منها أسلوب علاقته بالعالم، من غير أن يتمكن شركاؤه من الإمساك بمعنى ذلك، فإنه يقضي على الروابط الاجتماعية، ويجعل الامتناع يعمل كرفض جذري للغة، فيغدو موقفه غير مقبول، فيدفع الآخرين إلى أن يتساءلوا بشكل مطول، بكيفية لا تخلو من انزعاج، كما يتضح ذلك من موقف مستخدِمه الذي بلغ تلك الدرجة من الإرباك بحيث أخذ يبحث له عن أعذار، وهي طريقة لشده إلى الروابط الاجتماعية، حتى ولو اقتضى الأمر أن ينسب إليه وضعية الكائنات

الهادئة غير المؤذية.

بما أنه أعجب بهذه الشخصية التي ترفض أكثر مبادئ الحياة المشتركة بداهة، فإنه يجعل من الناسخ معلم نوع من الحقيقة التي تظل بعيدة عنه. فيسقط على تقاعد بارتلبي دلالة تبرر هجره للكلام، وتعفيه بشكل قانوني من قواعد الحوار، أو من واجباته نحو الآخرين. وهكذا يتمّ حسم الشك لصالحه: لأسباب غامضة، لا يعرفها إلا هو، يُعفى الناسخُ من طقوس التواصل: «نعم، لقد فكرت يا بارتلبي، ابق هناك خلف شاشتك، لن أضطهدك بعد الآن، أنت أيضا لا تضرّ، صامت مثل تلك الكراسي القديمة. باختصار، إنني لا أشعر قط أنني في راحتي إلا إذا علمت أنك هنا. فعلى الأقل، إنني أحس وأرى وأفهم سبب الوجود المقدر في حياتي... يمكن لآخرين أن يلعبوا أدوارا أرقى، أما أنا فمهمتي في هذا العالم، يا بارتلبي، هو أن أمكنك من مكتب طالما تراه مناسبا لأن تظل فيه» *(ميلفيل، 1951، 73-74)*.

صار المكتب محبس بارتلبي، وملجأه لكي يتقي اضطرابات العالم. غير أن هذا الوضع لا يمكن تحمّله لمدة طويلة. ورغم ما يحسه مستخدِمه من تمزق داخلي، فإنه قرر استبدال المحل كي يتخلص منه. فموقف انسحاب من التواصل بهذا الحسم، يقتضي في المقابل رد فعل جماعي يعادله قوة. قررت السلطات المحلية نفي بارتلبي إلى محل يدعى «المقابر»، وهو مؤسسة إصلاحية، يُحتفظ فيها بالمجانين كذلك. لم يحاول أن يدافع عن نفسه. «واكتفى بأن أومأ برأسه في

صمت، على طريقته الجافة الخالية من كل شحنة عاطفية» (82). مارس هناك الامتناع عن الكلام وعن المشاركة ذاتهما. فأطلق عليه السجان لقب «الرجل الصامت». فترك نفسه يموت جوعا.

شكلٌ آخر من أشكال تخفّي الذات عن نفسها هو عدم القيام بأيّ عمل، وإظهار واجهة ملساء أمام الأعمال الاجتماعية المحيطة. شخصية أوبلوموف Oblomov *(غونشاروف Goncharov، 1988)* هي رمز دال على هذه الكيفية التي تمحو فيها الذات نفسها، مع مراعاة المظاهر. فبما أنها لم تتمكن من أن تجد مكانها هناك، فهي تلغي العالم المحيط، وتظل عند العتبة، على طريقة متفرج غير مبال. وهي تنتظر أن تمر الأحداث، من غير أن تحشر نفسها فيها، ومن غير أن تدرك أن عدم تورطها لا يبقى بلا عواقب وتأثير على وجودها. إنها تمتنع عن كل عمل، من غير أن تبرر ذلك كما رأينا عند بارتلبي، وهي تؤجل المهام التي ينبغي القيام بها إلى الغد، ويوما بعد يوم، شهرا بعد شهر، سنة بعد أخرى. من تأجيل إلى تأجيل، ومن كسل إلى كسل، حتى تنسى ما كانت تودّ إنجازه، بل إن المرأة التي كانت تحب تلك الشخصية قد فشلت في إخراجها من هذ الإحجام عن الوجود. هذا الإحجام، عدا ما يتعلق باقتناع تلك الشخصية بألا تغادر فراشها، يجعل من غرفتها عالمها الوحيد. فعلاقتها بالآخرين علاقة سطحية، وهي تقتصر على الحد الأدنى لكي لا تبلغ الانقطاع التام. وهي ترفض الزمن الذي يمر، أو أنها تسعى سعيًا محمومًا وراء زمن دائري لا ينفكّ يعيد ابتهاج النوم. تعود كل طاقتها إلى العطالة التي تواجه بها مجهودات الآخرين لإخراجها من غرفتها.

باستطاعتها أن تتبنى لحسابها عبارة باسكال الشهيرة: «لطالما قلت إن شقاء الناس يعود لأمر واحد، وهو كونهم لا يعرفون المكوث في غرفهم».

تضع اللامبالاة نوعا من الزجاج الفاصل بين الذات والعالم، جدارا لامرئيا، لكي لا يتأثر المرء بحدث أو شخص قادر على أن يُبعده عن الرتابة التي يفضّل أن يظلّ فيها. إنه يلغي معنى التجربة كي يحوّلها إلى فرجة، لا رابطة تشدها إلى الذات. فهي لا تتأثر بالأحداث التي تمر بالقرب منها، ولا تكترث بها. والآخرون يظلون بعيدا، في حياد تام، ولا يعودون مصدر خوف من ضرورة الانخراط. يصبح الفرد غريبا بالنسبة إلى أشدّ المقربين إليه. وهو يكون من غير عاطفة، ولا ألم، ولا إحساسات، ولا خوف، ولا رغبة، إنه موجود خارجا حيث لا يؤثر فيه شيء، وحيث لا يهاب شيئا. تعفي اللامبالاة إزاء العالم ونحو الآخرين من كل انخراط، إلا أنها تعرّض للفراغ. وبما هي انغلاق نرجسي، فهي تصبح رغبة في اللاحركة والسكون، وثبات الديمومة حتى لا ينشدّ المرء إلى علاقات غير مرغوب فيها. يصنع اللامبالي عالما خاصا به، عالما مكتفيا بذاته. إنه يفضل العلم عن بعد، من غير أن يجره انسيابه. لا يعود هناك خارج. تغدو اللامبالاة نوعا من الهروب. يسحب الفرد مشاريعه من العالم الخارجي. ولا يعود يسقي العالم الذي يحيطه بالدلالات إلا بكيفية مقلصة، وهو يحتفظ بها لنفسه كي لا ينخرط فيحس بانفعالات من شأنها أن تجعله يفقد توازنه، فيغرق في معمعة عالم يرفضه أو يصيبه بكدمات. في حمى جزيرته القاحلة، يتأمل عن

بعد حركة مُضجة لا تعنيه. أطفال مهجورون أو أسيئت معاملتهم، مع بالغين قليلي الحضور العاطفي، حتى وإن كانوا يلبون حاجاتهم الفسيولوجية، يغرقون في لامبالاة تحميهم، يتخلون عن وجودهم كي لا يكونوا تحت رحمة شوق للمحبة لا يُشبع أبدا ولا يرضي، لا يكف نقصها عن تعذيبهم. بما أنهم لا يعودون حاضرين هنا، فإنهم يُخفتون هذا التوتر الذي وضعهم لفترة طويلة في ارتباك شديد.

في رواية جورج بيريك **الرجل الذي ينام** Un homme qui dort (1967)، ينسل طالب خارج الروابط الاجتماعية ببطء. يتخلص مما كان عليه، وما كان ينتظره منه وسطه الاجتماعي. يوم إجراء الامتحان، ظل نائما، لزم غرفته. منذ ذلك الحين، تخلّص من جميع المسؤوليات التي كانت تدفعه إلى الاستجابة إلى إرضاء العلاقات المشتركة. «لن تنهي شهادة الإجازة، ولن تبدأ قط في مشروع دبلوم، لن تدرس بعد الآن» (بيريك، Georges Perec 1998، 20). شيئا فشيئا، أخذت حركاته تتضاءل، ولم يعد يبدي استجابة إلا إلى أبسط الأفعال التي تمكّنه من البقاء على قيد الحياة. لم يعد يتصفّح بريده، كما لم يعد يفتح الباب عندما يرن الجرس، لقد غدا لامباليا بدعوات الخارج. انزوى في غرفته مثل دير، ولم يعد يستجيب إلا إلى جزئيات متوالية تستحوذ على انتباهه مع مرور الأيام، مثل شقوق السقف، والبقع على الجدران، وضوضاء الجوار. أحيانا، يخرج ليلا فيتجول في الطرقات عندما لا يعود المارة، وحتى هو نفسه، سوى ظلال. «لا تتخلَّ عن شيء، ولا ترفض شيئا. لقد توقفت عن المضي قدما، لأنك لم تكن تتقدم، ليس عليك أن تغادر من جديد، لقد وصلت،

فأنت لا ترى ما الذي ستفعله بعيدا» (25). يتلاشى ببطء، فلا يبذل المجهودات اللازمة للاستمرار في الحياة العادية. في هذه المرات النادرة التي يمشي خلالها في المدينة، أو التي يتناول فيها الطعام في كشك، فإن ذلك يتمّ في غفلة من الآخرين. «الشفافية، والسكون واللاوجود. تتعلم أن تكون ظلا، وأن تنظر إلى الناس كما لو كانوا أحجارا» *(55)* شفّاف على الأرصفة، غائب عن نفسه حتى في غرفته. توقفت ساعته المنبهة. وتوقف الزمن، وألغيت الديمومة. إن اختفاء الذات هو أيضا تحرر من الإكراهات المتعددة للزمن الاجتماعي[4].

يكتسب حالة **بياض** أمام العالم، لم يعد أيّ شيء يهمه. «على مرّ الساعات، والأيام، والأسابيع، والفصول، تتخلى عن كل شيء، تنفصل عن كل شيء. تكتشف، أحيانا بنوع من الثمالة، أنك حر، وأن لا شيء يثقل كاهلك، لا شيء يروقك أو لا يروقك» *(74)*. كان يحصل له أن ينام أياما بكاملها. «ليس للاّمبالاة بداية ولا نهاية: إنها حالة ساكنة، إنها ثقل، وعطالة لا يمكن لأي شيء أن يهزها» *(87)*. الإنسان الذي يخلد للنوم شقيق لبارتلبي. بل إن بيريك كان يستحضر شخصية ميلفيل عندما كان يكتب نصه. إلا أنه لا يعلم

(4) يتحدث التراث الديني عن الانفصال. وانحلال الذات لكن في امتلاء الذات الإلهية والتجربة الصوفية. التخلص من الذات في هذا السياق الاتصال بمطلق الحضور في العالم. صحيح أن ذلك يتم بفقد الهوية المحدودة للرجل أو للمرأة، ولكن مشاركة مع لامحدودية الله. يكتب المعلم إيكهارت Maître Eckhart في **مطوّله**: "إن الإنسان الذي أصبح هكذا في انفصال مطلق يكون مأخوذا بالخلود لدرجة أن لا شيء من عالم الزوال يمكنه أن يحرك ساكنه. إنه لا يحس بأي شيء له علاقة بالجسد. إنه ميت في هذا العالم، لأنه لم يعد يتذوق طعم ما هو دنيوي".

النهاية المأساوية للكاتب. لذا فهو يخرج من اللامبالاة دون أن يحس. فكما لو أن غيابه عن العالم كان بمثابة استراحة لالتقاط أنفاسه، والعودة ببطء نحو الروابط الاجتماعية. يقول بيريك إنه كتب هذا الكتاب مباشرة بعد **الأشياء**، «في فترة من حياتي كنت فيها لامباليا بصفة مطلقة. إنه ليس الانبهار والإعجاب، وإنما «الرفض»، رفض الأشياء، رفض العالم» *(174)*.

بيسوا (التعدد طريقا نحو اللاأحد)

يتوفر الفنان، والكاتب على وجه الخصوص، على إمكانية استفراغ الذات، وتعديد الشخوص في الكتابة السردية التي يكتبها، أو في وجوده ذاته بأن يتبنى اسما مستعارا، أو بأن يجمع بين إمكانيات أن يكون هو ذاتَه، وبين أنداد متنوعين كما هو حال بيسوا. فهو هنا وفي مكان آخر، أي أنه ليس في أي مكان، وهو في كل مكان. إنها طريقة ذكية للاختفاء. ما من شك في أن مصدر هذا الإحساس بأنك بعيد عن العالم، انفصال عنيف عن الطفولة، مع تعاقب أحداث قاسية، وهي كيفية للخفض من قوة الحداد عن طريق التعدد، إلا أنه تعدد سطحي، تفاديا للكدمات القاتلة للوجود. توفي والده سنة 1893، ولم يكن عمره يفوق الخامسة، توفي شقيقه بدوره أشهرا قليلة بعد ذلك، بعد أن أصيب بمرض السل، جدته دخلت مصحة لشبونة. سنتين بعد ذلك، تزوجت والدته من جديد، فرحلت برفقة ابنها وزوجها كقنصل للبرتغال في دوربان جنوب إفريقيا، وهناك أكمل الابن دراسته. ابتدع شخصيته الأولى الباطنية

خلال هذه الفترة: وهي فارس البا، عبرها أخذ يراسل نفسه. فيما بعد، وعند عودته إلى البرتغال، عمل مترجما للرسائل التجارية إلى اللغة الفرنسية والإنجليزية عند شركات الاستيراد والتصدير. حتى نهاية حياته، ومن غير أن يسافر، ظل يجوب شوارع لشبونة إلى ما لا نهاية، ويقضي أيامه في المقاهي أو في مكتبه. كان يكتب ليلا، مستغلا أرقه. توفي سنة 1940 في لشبونة، عن عمر يناهز سبعة وأربعين عاما. كتب عنه ر. بريتشون: «كتب بمفرده أعمال خمسة كتاب عباقرة على الأقل، يختلفون بعضهم البعض، كما لو أنهم وجدوا بالفعل» *(R. Bréchon، 1994، 9)*. خلّف إنتاجا ضخما متراكما في صندوق، لم يُفتح إلا عام 1982: آلاف الصفحات من الشعر والنثر، نُشرت تدريجيا خلال السنوات الأخيرة.

عاش بيسوا حياته باطنا وخارجا في الوقت ذاته، وكأنه خلف زجاج، ولكن، مع الإحساس بجمال الأشياء، وانغماس لامتناه في الأحلام، ولكن دون التمكن من نسج عرى الوصل بينها، كما لو أنه كان سجين الممر. إذا كان الحلم ملاذه للاحتماء من قسوة العالم، فإنه كان يحدد له ملامح الواقع، إنه يُؤخذ ضحية لعبته الخاصة من غير أن يكون مخدوعا. كتب: «عندما كنت طفلا، كان عندي ميل إلى أن أخلق من حولي عالما وهميا، وأن أحيط نفسي بأصدقاء ومعارف لم يسبق وجودهم (بطبيعة الحال، أنا لا أعلم حقا، إذا ما كانوا قد وجدوا بالفعل، أو أنا الذي لا أوجد (...) منذ أن عرفت نفسي على أنني ما أدعوه أنا، أذكر أنني قد حددت في ذهني مظهر كثير من الشخوص اللاواقعية، وحركاتها ومزاجها وحكاياتها،

كانت بالنسبة إليّ مرئية هي كذلك، فكنت أمتلكها مثلما أمتلك أشياء ما ندعوه، عن خطأ ربما، الحياة الواقعية» *(في بلانكو Blanco، 1986، 301)*.

في الوقت الذي كان ينتابه فيه الشعور أنه لم يعد أحدا يوم 8 مارس 1914، أنجب أنداده الأكثر شهرة. لا يتعلق الأمر بأسماء مستعارة، وإنما هم أغيار سواه يبتدع لهم حياة وأعمالا، وحكايات، فيضفي عليهم وجودا في الحياة الفعلية. كان يزودهم بجسد ووجه وتاريخ خاص، وحالة مدنية، وأعمال، وأسلوب خاص في الكتابة، بل إنه كان يعقد معهم جدالا فيعارض بينهم. كانوا يجسدون بالنسبة إليه طريقة لتوجيه حركة الكتابة، والتحكم في سيرها مع الحفاظ على أسلوب ومناخ مميز لكل عمل يخلقه على هذا النحو. هذه الشخوص تخفف عنه أعباء نفسه وتريحه منها. إنها أقنعة من ورق تحميه في الوقت الذي تسمح فيه بتطور أعماله. إنه لا يودّ أن يضاعف من نفسه اجتماعيا ويخلق نسخة منها بأن يحافظ على واجهة، كما لو كان ذلك مجرد احتماء خلف اسم مستعار. «أغياره وأنداده»، ألبير توكايروCaeiro Alberto، ريكاردو ريسRicardo Reis، ألفارو دو كامبوس Alvaro de Campos، يعيشون حياة خاصة، بعيدا عن حياته، وهم يؤسسون طليعة الأدب البرتغالي، مثلهم مثل ب. سواريس B. Suares، الذي ظل مجهول الحياة، والذي لم يفرج عن أعماله إلا سنة 1982. كتب بيسوا: «وضعت في كايرو كل قوتي في التبديد المأساوي للشخصية. كما وضعت في ريكاردو ريس منهجيتي العقلية مكسوة بالموسيقى

الخاصة به. ووضعت في ألفارو دو كامبوس كل الانفعال الذي لا أنسبه لا إلى الحياة، ولا إلى نفسي» *(1994، 21)*.

هو الذي كان يدعى بيسوا (يعني اللفظ باللغة البرتغالية لا أحد) ينفصل عن كل انتماء للذات، والأفراد الذين يخلقهم يفرضون نفسهم عليه، فيؤلف كل واحد منهم عمله الخاص. إذا كانوا الأكثر شهرة، فهم ليسوا الوحيدين، لأن الأنداد متعددون، وبعضهم لم يكتشف إلا مؤخرا. تحت اسم ب. سواريس يصف الإرهاق الشديد الذي تولده الحياة (...) «إنه ضجر رهيب من الحياة (...). ضجر لا يود أن يزول-الأمر الذي يكون، أو لا يكون في نطاق الممكن-، وإنما شيء آخر أكثر فظاعة وأكثر عمقا: التوقف حتى عن أنه كان موجودا، الأمر الذي لا يمكنه أن يكون بأيّ حال من الأحوال» *(1988، 112-113)*. ثم كتب مضيفا: «المصدر الذهني لأندادي يرجع إلى سعي عضوي ثابت عندي نحو تبديد الشخصية والنزوع نحو التشبّه. هذه الظواهر، لحسن حظي ولحسن حظ الآخرين، تتخذ صورة ذهنية. أعني أنها لا تتجلى في حياتي العملية الخارجية، وفي العلاقة مع الآخرين. إنها تنفجر في باطني، وأنا أحياها بمفردي مع نفسي» (بيسوا، 1994، 22). هو ذاته يصف نفسه كما لو كان «مستقيم الاسم». «في نهاية الأمر، يتبقى من اليوم ما تبقى من الأمس، وما سيتبقى من الغد: الرغبة التي لا تشبع، الرغبة التي لا حصر لها، أن أكون مطابقا لنفسي، وأن أكون آخرَ في الوقت ذاته» (17). إنه تمزق لا يُشفى بين الغياب والتعدد. «يلازمني الخيال مثل ظلي. وما أريده هو أن أخلد للنوم» *(بيسوا،*

.(115،1988)

بين عام 1913 و 1934، وحتى وفاته، راكم بيسوا شذرات نوع من اليوميات المنسوبة إلى بيرناردوسواريس BernardoSoares، تحت عنوان: O livro do desassossego **(كتاب اللاطمأنينة)** استحالة الهدوء والضرورة الباطنية لأن يظل في حالة تأهب، على أهبة، غير مطمئن، لا ينفك يندهش من كونه محشورا ضمن حشد، شاعرا مع ذلك بأنه خارج النفَس المشترك: «لقد سلبوا مني القدرة على أن أكون قبل وجود العالم. إذا ما كنت مضطرا إلى التناسخ من جديد، فذلك من دوني، دون أن أكون أنا قد حللت في جسد جديد. أنا ضواحي مدينة لا وجود لها. أنا التعليق المطوّل على كتاب لم يكتبه أحد قطّ، أنا لا أحد، أنا بيسوا. أنا شخصية روائيَّة، ما زالت لم تُكتب، أنا أطفو في الهواء، متناثرا، دون أن أكون قد وجدت، من بين أحلام كائن لم يعرف كيف يقضي علي(...) وأنا، ما هو فعلا أنا، أنا مركز كل هذا، مركز لا وجود له، اللهم إلا من خلال جغرافية الهاوية. أنا هذا اللاشيء الذي تدور حوله تلك الحركة» (1988، 36-37) الرجل يشبهه في كل شيء، حتى وإن كان يتحدث عنه كآخر. في مكتبه الكائن في زنقة دورادوريس في لشبونة، يعمل في التجارة، من بين أعمال أخرى، لكن وجوده يتمحور أساسا حول الكتابة. وهو انفرادي، صموت، فريسة لـ«مرض الوعي» (1992، 218)، يراقب العالم عن بعد من مكتبه، أو من نافذة غرفته. على طول الشوارع التي تقوده نحو مكتبه، يصف الاكفهرار الذي يغلّفه بنوع من الأرق الذي لا نهاية له *(في تابوتشي Tabucchi، 1998)*.

وهو لا يتجاهل ارتعاشة المدينة من حوله، وجمالها. هو يتحدث عنها، إلا أنه لا يوجد داخلها، يتأمل العالم الخارجي «بذلك الانتباه الشديد، وغير المبالي في الوقت ذاته، الذي هو في طبعي» *(1988، 87)*.

إنه يطفو بين عالمين من غير أن يتمكن من أن يتجسد بالفعل، ثم إن مناخ الكتابة يزيد من حدة هذا الشعور بالغياب عن الذات، كما لو كان صدى مناخ الشارع، متنبها للمطر، والرياح، للفجر والغسق، لتعابير المارة، أو الطرقات. «ما زلت أفكر، وما زلت أحس، إلا أن فكري، لا يحتوي إعمال عقل، ومشاعري لا إحساس فيها. لا أنفك أسقط، بعد باب السقيفة هناك، وعبر الفضاء اللانهائي، في سقطة من دون اتجاه "لانهائية ومتعددة" وفارغة» (بيسوا، 1988، 36).

لا يعلم هل هو حقيقي أم متعدد، هل هو موجود أم أنه مجرد فيلم من الأحلام، ومركز مجرد من الإحساسات الموجودة أساسا على الورق، حتى وإن كان يُحس بها. «أعتني بنفسي في مختلف التنكرات التي تجعلني على قيد الحياة. لقد غدوت وهم نفسي إلى حد أن أي إحساس تلقائي يمكنني أن أحس به سرعان ما يتحوّل، بمجرد ميلاده، كي يصبح شعورا بالخيال: تتحول الذكرى إلى حلم، ويتحول الحلم إلى نسيان للحلم، وتتحول المعرفة التي لديّ عن نفسي إلى غياب لكل فكر عن نفسي» *(بيسوا، 1994، 50-51)*. الكتاب يؤلف اليوميات الحميمة لهذا المحاسب المساعد، المستقر،

مثل بيسوا. «في هذه الانطباعات المفككة، التي لا رابطة تربطها، والتي لا ترغب في ذلك، أحكي، بلامبالاة، سيرتي الذاتية من غير وقائع، وتاريخي من دون حياة (...) إذا كنت أكتب ما أحس به فلأنني أقلل بهذه الطريقة من حرارة الإحساس. لا قيمةَ لما أعترف به، فلا شيء له قيمة. أنقل ما أحسّ به. وأترك مشاعري دون قيود. أتفهم كامل التفهم النساء اللواتي يطرزن بفعل الحزن، وتلك اللواتي يغزلن لأن الحياة موجودة. كانت عمتي تقوم بأعمال دقيقة خلال أمسيات لا متناهية. هذه الاعترافات بمشاعري، بالنسبة إلي، هي أعمالي الدقيقة» *(1988، 31)*. لن يظهر العمل إلا مدة طويلة بعد موت بيسوا، وبالضبط سنة 1982، وذلك بعد فتح الصندوق الذي سبق أن تحدثنا عنه، والذي كان يحتوي المخطوطات العديدة التي ظلت غير منشورة. «أعيش أكثر لحظاتي سعادة عندما لا أفكر في شيء، ولا أريد شيئا، ولا أحلم بشيء، فأضيع في خمود النباتات، والطحالب البسيطة التي تنبت على سطح الحياة. أتذوق من دون مرارة الوعي العبثي بألا أكون شيئا، ذاك هو طعم الموت والاختفاء» (63).

الاختفاء، هو في الوقت ذاته، حلّ في مواجهة العياء من أن يكون المرء نفسَه، وكذا في مواجهة الإحساس بأن المرء قد أعطى كل شيء، أو أن يرغب في أن يحافظ على نفسه في ضبط النفس أو في العزلة، إلا أنه كذلك حل في مواجهة الشعور بتعدد الذات، والاقتناع بإيواء شخوص متعددة، مع عدم القدرة على التضحية بهم. يتخيل ل. رينهارت L. Rhinehart في مؤلفه **الرجل-النرد** *L'Homme-dé*

(2009) شخصية تود التحرر من إكراهات الهوية جميعها، وتتخلى عن أي قرار ذاتي، فتسلم نفسها لمصادفات النرد الذي ترميه إلى حد تترك له أن يملي عليها كل مناحي وجودها. كما أنها تتمنى أن تحرر الشخوص التي تضمها في حضنها. «في مجتمعات قارة ومندمجة ومتناسقة، كانت لضيق الشخصية قيمة، وكان يمكن للمرء أن يحقق ذاته عن طريق أنا واحد. واليوم، لم يعد الأمر في الإمكان. ففي مجتمع متعدد القيم، وحدها الشخصية المتعددة يمكنها أن تفي بالغرض. لكل واحد منا مئات من الأنا الممكنة والمقموعة» (315). النرد هو السبيل لتحريرها بأن يفسح لها مجال خيارات مختلفة، إنه خدعة جذرية، ولكن من الصعب تنفيذها، لكي لا تبقى خاملة خامدة في الشخصية نفسها. لكن النتيجة هي عدم القدرة على التنبؤ بالوجود، وبالعلاقة مع الآخرين.

من لورنس الجزيرة العربية إلى ج. ه. روس

شارك ت. لورانس T. E. Lawrence في حرب التحرير التي خاضها العرب ضد الأتراك. فمن سنة 1917 إلى أكتوبر 1918، بلغ اكتمالَ وجوده، عندما صار لورانس الأسطوري للجزيرة العربية. رافق جنود القبائل إلى شمال الجزيرة، ووجههم في انتصاراتهم ضد الأتراك. عندما حل السلم، تمت دعوته إلى مؤتمر باريس (1919) ثم مؤتمر القاهرة (1921) الذي أعاد رسم خريطة الشرق الأدنى. إلا أن عدم وفاء السلطات الإنجليزية والفرنسية، التي رغم أنها وعدت بإحداث مملكة عربية كبيرة برعاية

فيصل، وافقت سرا على تقاسم المنطقة، قد أخل بشرف وعده، وعكر حبه للحضارة العربية.

بعد أن اشتغل لفترة مستشارا لتشرشل، لم يعد يشغل أي مهنة، بل إنه تخلى حتى عن اسمه، ليحمل رمزيا هوية مجرد الجندي روس Ross ، وذلك كميكانيكي في سلاح الجوّ الملكي البريطاني، ليخضع للاستعباد العسكري، والأعمال الدنيئة والسلطة الفاسدة لرؤسائه الذين كانوا يجهلون من كان. تخلى لورانس عن الأسطورة التي كانت تحفُّه، بنيّة صريحة بأن يختفي، ويلغي مهامه السابقة. لقد أصبح تاريخه الآن يخنقه. تخلَّص من كل شيء، وأخذ يطمح إلى اختفاء ذاته كملاذ أخير. كتب في **السجل** La Matrice: «كل عام، يصبح العيش باسم نكرة أمرا أكثر إغراء بالنسبة إلي. فقط، بإخفاء هذه الهوية السابقة، يمكنني أن أُعامَل ببساطة مثل باقي البشر. تبيّنت حينئذ أنني، بالأحرى، شخص أقل فائدة من متوسط النوع الذي أنتمي إليه. إنه درس سليم في التواضع، لكنه درس مكلّف، إذ لو أنني أردت أن ألعب دور الرجل الجديد، فذلك يتطلب اليقظة ليل نهار، ولا يمكنني أن أصبر على ذلك إلا بفضل حالة من التمجيد الجسدي» *(la Matrica,1955,197)*. في هذا العمل يرسم تجربته في الجندية من غير أن يخفي استهزاءه، ومن غير أن يتوانى في تذكير قارئه بالرجل الذي كان عليه. كان قد كتب من قبل في أركانِ الحكمة السبعة Les Sept Piliers de la sagesse: «في حالتي الخاصة، جهدٌ مطول خلال سنوات لكي أعيش بزي عربي، وقد تطلب منّي تعويدُ نفسي حياتهم الذهنية أن أتخلص من شخصيتي

الإنجليزية: وهكذا تمكنت من أن أنظر إلى الغرب وقناعاته بأعين جديدة، فأكف عن تصديقها. ولكن كيف السبيل إلى لباس جلدة عربية؟ لقد كان ذلك محض انتساب من جهتي. من السهل أن نجعل الشخص يفقد إيمانه، لكن من الصعب أن نحوّله إلى آخر. وبما أنني تخلصت من شكل من غير أن أحصل على آخر، فقد أصبحت شبيها بنعش محمد الأسطوري» (1969، 30-31). إنها رغبة في احتقار النفس، والتضحية من أجل مهام أخرى، الرغبة في الإمّحاء، والتنكر في لاشيء. عندما وقع التعرّف عليه في يناير 1923، اضطر إلى مغادرة الجندية قبل أن يسمح له بأن يعود إليها سنتين ونصفا فيما بعد، وذلك تحت اسم آخر. وقد توفي سنة 1935 إثر حادثة دراجة نارية أشهرا بعد إلغاء عقده مع الجيش.

وقفت هنا عند مجموعة من الحكايات النموذجية لاختفاء الذات، إلا أنّ ذلك يمكن أن يمتد إلى حالات أخرى. إن هذه الحيوات على حافة شفرة حلاقة توضح البعد الأنثروبولوجي لهذا الشكل من الإمّحاء. وهو ليس ابتعادا عن المركز ولا شذوذا أو مرضا، وإنما هو تعبير جذري عن الحرية، حرية رفض التعاون بأن يظل المرء على بعد، أو أن يحذف أكثر أجزاء الهوية إكراها داخل الروابط الاجتماعية. تعبر لنا هذه الأشكال عن مزيج من القوة والهشاشة الكامن في الشعور بالذات، كما تعبر عن أننا يمكننا أن نتخلى عن ذواتنا لابتداع آخر عندما تسود الضرورة الباطنية.

2. طرق متسترة للاختفاء

«بين حب الذات حتى إلغاء الباقي (النرجسية)، والرغبة في محو الذات في أكثر تجلياتها تنوعا، بين أن نوجد مطلقا وأن نكون عدما، فإننا ربما لن نكف عن التأرجح بين الطرفين. ذلك، على أيّ حال، هو الألم اليومي المضني، الذي لن يمكّننا من تناسيه أيُّ شيء مقدس: إنه تناقض الرغبة الذي لا يُغتفر، والكامن في الرغبة في أن يكون المرء ذاتا فاعلة».

مارسيل غوشي، **فقدان العالم لفتنته**

الاختفاء في النوم

إكراه النوم طريقة لتفادي صعوبة أن يكون المرء هو ذاته. إن كون النوم فقدانا للشعور يجعله عنصر جذب بالنسبة إلى أولئك الذين يرغبون في أن يتحرروا أكثر ما يمكن من كل انتباه نحو حياتهم الشخصية. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الحالة تزعج أولئك الذين يهابون أن يُختزلوا إلى لا شيء، ولو لبضع ساعات. النوم طريقة للتهرب من المسؤولية، أو من ضرورة الحركة في أعين الآخرين،

وذلك بالحصول على نوع من العذر الذي يمكنه أن يخدع لبضع الوقت. عندما لا يقتصر النوم على أن يكون استرجاعا للقوى بعد تعب النهار، فيغدو تغطية لا نهاية لها، حينئذ يكون تخليا عن ضرورة أن يضحي المرء بذاته عندما يصبح المجهود مفرطا. يرى فرويد في النوم نوعا من العودة إلى رحم الأم، «بالنسبة إلى هذا العالم الذي جئناه دون إرادة، نجد أنفسنا في وضع لا يمكننا تحمله بكيفية مسترسلة. وهكذا فنحن نغرق من جديد، ومن حين لآخر في الحالة التي كنَّا عليها قبل أن نأتي إلى العالم، حينما كنا موجودين في رحم أمهاتنا. أو لنقل على الأقل، إننا نوفر الظروف المماثلة لتلك التي كانت تطبع ذلك الوجود: من حرارة، وظلمة، وغياب للإثارة (...). فكما لو أننا، حتى عند بلوغنا سنا متقدمة، لا ننتمي إلى العالم إلا بنسبة ثلثين من شخصنا، أما بالنسبة إلى الجزء الثالث، فإننا لم نولد بعد» *(فرويد، 1978، 74-75)*.

يسيّج النوم العالم من حولنا. جدار من عدم الانتباه يعزل النائم الذي لا يعود معنيا بالأحداث التي يمكنها أن تقع من حوله، اللهم إلا إذا أيقظته شدّتها. حسب العمق الذي يطبع إغراق النائم، فإنه يظل يشعر بالضوضاء الطفيفة من حوله، اللهم إلا إن كان محتاجا إلى أن ننبّهه كثيرا فنصرخ ونهزه كي يستيقظ. يختلف الانغلاق من شخص لآخر، وتتنوع صلابة السياج. تمكنت جويس كارول أوتس Joyce Carol Oates، التي كانت متأثرة من جراء حدادها على فقدان زوجها، تمكنت من أن تعود إلى النوم في بعض الأحيان، بتناول العقاقير المؤثرة نفسيا، إلا أنّ وجودها كان يثقل عليها حتى

لو أنها استمرت في أداء مهام الحياة اليومية، والاستجابة للدعوات. «رغبتي التي أتخيلها، والتي لم أحدّث أحدا عنها، ولن أفعل ذلك قط، هو أن أتناول قرص دواء كي أتمكن من النوم، وعند اليقظة، قرصا أخرى، وعند اليقظة... الزمن الذي يمكن لهذا أن يستغرقه لا يلهمني إلا بفضول طفيف» (أوتس Oates، 2011، 208). يصبح النوم، في بعض الأحيان، حِمى وملجأ عميقا، وطريقا لكي نولي ظهرنا لإكراهات العالم. وبالفعل، فإن كل نائم كائن وحيد، وهو مفصول عن محيطه وعن الآخرين، في الوقت نفسه الذي هو تحت رحمتهم. لكي يستلم أموره بيده من جديد، ويستعيد العلاقة مع هويته الاجتماعية، يكون عليه أن يستفيق من الحلم.

قرب نهاية الحرب العالمية الثانية، كان إيروين، شخصية أ.أبيلفيلد A. Appelfeld، وعمرها سبعة عشرة سنة، قد فقد والديه في المخيّمات، فكانت تحرّكه الرغبة التي لا يمكن كبتها في النوم. خلال الطريق التي كانت تقود الناجين من مخيمات الموت إلى ضفاف مدينة نابولي، كان يغرق في نوم لا نهائي. «كنت أنتقل من قطار إلى آخر، ومن شاحنة إلى أخرى، ومن عربة إلى عربة، مع بقائي غارقا في نوم عميق، خالٍ من الأحلام (...) لا أذكر أي شيء عن هذه المتاهة الطويلة، ولا عجب في ذلك (...) كان اللاجئون يحملونني على مسافة ذراع. إذا ما تم نسياني، كان هناك دوما من يأتي بحثا عني» *(أبيلفيلد، 2011، 7)*. كان رفاق الطريق يلقبونه بـ«ولد النوم». بنومه المتواصل، كان يهرب من التاريخ، ويختبئ في غياب طويل. إنه ينام حتى لا يفكّر، ولا يقرّر أي شيء، ويسلم نفسه إلى

الأحداث. شيئا فشيئا، أخذ يتحرر من إكراه النوم، حتى وإن كان قد استمر في الانغماس فيه. حدث تطور بفضل مجهودات بعض الأشخاص في محيطه، ولم تعد لياليه غيابات متلاحقة، وانغماسا في النسيان، ففي أحلامه أخذ يربط حوارا متواصلا مع والدته ووالده، اللذين توفيا في المخيمات. إذا ظل النوم هنا شكلا من الاختفاء، فهو أيضا عالم مضاد حيث يمكن إلغاء الموت، والعثور على الأصول. والدته، على الخصوص، تواكب الغزو الذي يخوضه بدخوله ضمن مجموعة صغيرة من الجند المرتبطين بالمشروع الإسرائيلي. لا بد من هذا الغياب عن العالم، لدرء المفسدة خلال النوم والأحلام، واسترجاع ما ضاع. النوم هو تحوير للغياب، إنه نجاة خارج الديمومة. يتم الحديث في بعض الأحيان عن «ليلة بيضاء» كناية على استحالة النوم. بعض أشكال النوم هي أشكال من البياض من حيث إنها انغماس مضنٍ في لا مكان. النوم ملجأ من لا يريد أن يظل هنا، إنه يعفي من الانخراط في عالمٍ يُدرك كما لو أنه مفرط في القساوة. ليس النوم استراحة فحسب، وإنّما هو أيضا توقّف. كتب بودلير في **نهر الجحيم** "Le Léthé": «أريد أن أنام! النوم بدلا من العيش!» أن يظل المرء بعيدا عن الهزات الخارجية، وأن يتخدّر من غير أن يتناول أقراص التخدير. يجد النائم نفسه بمعزل عن العالم بطريقة «طبيعية»، فهو لا يعود معنيا، ونومه يلقى، مبدئيا، نوعا من الاحترام. بهذا المعنى، فالنوم خدعة للانفلات من محنة التحمّل الدّائم للوجود. إن السّعي الحثيث نحو النعاس يساعد على التخفّي المنتظم عن الذات، من غير شعور بضرورة تقديم الحساب

للآخرين. على غرار تلك المراهِقة التي تنام، والتي بالكاد تتناول غذاء بين جرعات الهيروين. من غياب لآخر، فهي تزاوج بين جهد النهوض والجهد الذي تبذله كي تحيا: «الحياة لا تهمني، إنها مضنية بشكل مبالغ. ومع ذلك، فأنا لا أريد أن أموت». وأخرى تتذكر اليوم مبتسمة محاولتها لشل حركتها التي استسلمت لها في فترة صعبة من حياتها: «كنت أنام لكي أنام، كنت أتناول الأقراص المنومة. كان الأمر جيدا. في تلك الفترة، لم تكن لديّ رغبة في أي شيء، حينها طفح الكيل».

النوم حفرة لا قعر لها حيث يمكن للمرء أن يختفي بشكل مؤقت من غير أن يموت. النوم هو «موت مصغر»، إنه تشبّه بالموت، إلا أننا نعود منه لكي نحمل هويتنا لوقت معين. إنه شكل ناعم من الموت، لكننا نستطيع التعافي منه. يقول **الرجل الذي ينام** لبيريك: «أحيانا، تحلم أن النوم موت بطيء يصيبك، تخدير ناعم ورهيب في الوقت ذاته، نخر سعيد: يعلو البرد طول رجليك، طول ساقيك، إنه يعلو ببطء، يخدرك، يُبيدك» *(بيريك Perec، 1998، 128)*. تقول ماري (17 سنة): «ليست لدي رغبة إلا تلك، أن أنام. لو كان في إمكاني، لظللت دائما في غارقا في الأحلام»، وهكذا فقد كانت بذلك تفلت من ضرورة مواجهة مغص عيشها. كتب روبير فالزر Robert Walser ، عندما كان يقضي وقته في النوم، وقبل أن يدخل المشفى: «أن أظل ممدودا مستلقيا كشجرة مقطوعة، من غير أن أكون مضطرا إلى تحريك أصبع من أصابعي. كل الرغبات تنام كأطفال أنهكهم اللعب». كما كتب: «نشعر كما لو أننا في دير من

الأديرة، أو كأننا في الغرفة المجاورة لغرفة الميت». *(ذكر في سيليغ Seelig، 1992 ، 48)*. حينئذ يغدو النوم قوة وسلطة تأسر العالم تحت السلاح بحيث لا يعود بإمكانه بلوغه. إنه ممارسة مراقبة، مثل باب نفتحها أو نغلقها كما يحلو لنا تفاديا لكل إرباك. «الإنسان الذي يخلد إلى النوم يحيط نفسه بانسياب الساعات، وانتظام السنوات والعوالم» *(بروست Proust، 1988 ، 5)*. إنه مكان هجران الذات، وتسليمها إلى قوى الأحلام أو النسيان. ليس النوم بالضرورة تخليا، إنه كذلك طريقة في التفكير، واستعادة القوى *(باشي Pachet، 1988)*. عند النوم، يتمّ التعليق المؤقت للأنشطة الحسية، والاتصال الهادف بالعالم. يمارس النوم خلال الحياة اليومية مفعولا تصحيحيا، وذلك بعزله الفرد عن المسؤوليات التي يفرضها عليه محيطه. إنه التخلّي عن هموم العالم جميعها، للعودة إليه بقوى متجددة بعد الاستراحة، وهو دعوة إلى التهدئة ومراعاة المعايير. لكي يواصل المرء الانفتاح على حركات العالم، يتوجب عليه أن ينفصل عنها بضع لحظات. ومع ذلك، فإن التوترات المتأصلة في الحياة الشخصية قد تجعل النوم عسيرا في بعض الأحيان. البعض يتجنبه خوفا من الكوابيس التي تخترق أفقهم، والتي تحول دون أي استرجاع، لكونه ينفلت من كل رقابة، ولاسيما الأحلام التي تجعل النائم في مواجهة مع آخر لا يطاق، إلا أنه، بالرغم من ذلك، مستقر في قلبها. كتب بودلير Baudelaire: «أخشى النوم، كما يحدث أن نهاب ثقبا أسود كبيرا، مليئا رعبا غير محدد، يؤدي إلى حيث لا نعلم» (**في الهاوية**). إن التخلي عن مراقبة الذات، ولو

لبضعة ساعات، من شأنه أن يخيف أولئك الأشخاص. لذا يودون البقاء يقظين على الدوام، واعين أحوال العالم من حولهم. إنهم يخافون فقدان معالمهم ومرجعيات هويتهم، فيحاولون التمسّك بها خوفا من الضياع. حينئذ يغدو النوم سقوطا في الهاوية، واختفاء لا شك فيه، إلا أنّه اختفاء في الرعب.

قد يحدث أيضا أن ينزلق النوم بعيدا، رغم إرادة الفرد الذي يسعى إلى الراحة بشغف. «يتقلب النائم السيء بحثا عن ذلك المكان الحقيقي الذي يعلم أنه مكان متفرد، وأنه، عند هذه النقطة وحدها، سيتخلى العالم عن شساعته التائهة» *(بلانشو Blanchot، 1955، 363)*. يتعذر على المؤرَّق الاختفاء، فينشدّ إلى نفسه بإصرار، وينصاع لضغط الهوية الذي يؤدي إلى اجترار الذات. لكن النوم يبحث عن طرق أخرى، لأنه يتوقف على الإكراهات البيولوجية للوجود. لذا فهو يكتسح الحياة اليومية حتى وإن أدّى إلى الإرهاق الذي يختزل هامش فعالية الفرد ومبادراته، فيجعله حبيس نفسه، تاركا غشاءً كافيا لكي يستمر الضنى في اجترار الهموم. إنه يجعله عرضة لتقلبات الظروف، خصوصا إن كان يقود سيارته، أو يعمل عن طريق آلة خطيرة. إن غياب إمكانية الانسحاب من الانخراط في العالم نتيجة فشل النوم هو آلة جهنمية تدفع الفرد إلى أن يبلغ آخر أشكال الانعزال، وتجعله عرضة للعواقب الوخيمة لمحيطه ولأهوائه التي يحلم بتحقيقها. بالنسبة إلى كلٍّ منَّا، وحتى في لذة العيش، هناك درجة معينة من **البياض** لازمة طوال اليوم كما لو كانت من الضروريات.

الباشانكو (Le pachinko) أو حيل الإمّحاء

تعرف اليابان شكلا مرحا وبسيطا لإخفاء الذات على مر الحياة اليومية، إنه فراغ جماعي: الباشانكو ممارسة انتشرت في اليابان بعد استسلام البلاد (*بونس، 1988، 399*). في البداية، كان موجها إلى الأطفال بعد الحرب، وسرعان ما غدا لعبة شعبية تعني الأعمار كلها، كما تهمُّ الطبقات الاجتماعية جميعها. القاعات المخصصة له متعددة في جميع أنحاء البلد. يقتني اللاعب عند المدخل مجموعة من الكريات مقابل مبلغ متواضع، فيجلس على كرسي أمام آلة. يسحب بإحدى يديه الرافعة التي ترمي الكريات على لوحة عمودية، فتنزل حسب مسار فوضوي تحدده ممرات منعرجة، وتحت ضغط هذه الكريات تتحرك أخرى يسترجعها اللاعب كي يعيدها إلى اللعبة، وهكذا إلى ما لانهاية. هناك نوع من التشابه بين الباشينكو ولعبة الفليبير، رغم أن لاعب الفليبير يمكنه أن يهز الآلة ويزعزعها ويضربها، لكن لاعب الباشينكو يجلس أمام آلته من غير حراك، اللهم إلا ليسحب الرافعة كي يشحن اللوحة العمودية بكريات جديدة. يركز اللاعب انتباهه على الرافعة ليحرص على أن يعطيها الدفعة الملائمة. يجلس اللاعبون جنبا إلى جنب، لا يبالي أحدهم بالآخر، وكلهم غارقون في تأمل حركة الكريات، وفي توحّد جماعي لن يخرجوا منه إلا فيما بعد. مكاسب اللعبة ضئيلة، وليست هي الهدف من اللعبة. إنها أساسا أماكن مشروعة اجتماعيا للتبديد المؤقت للهوية، من غير الخروج عن الروابط الاجتماعية. إن اللاعب موجود وسط الآخرين، إلا أنه وحيد بالرغم من ذلك،

وهو يتغيب لوقت يزداد طوله أو يقصر في التكرار المتعب للحركات نفسها. إنه في وضع دوار من خلال التنويم المغناطيسي لحركة الكريات، وتحريكه هو للرافعة، وكذا الأنوار المتلألئة للآلة، وحشرجة الكريات، فلا يعود يتبين شيئا من حوله، فتمحي همومه وانشغالاته. لا يعود أحدا بعينه، ولكن في شكل معترف به اجتماعيا. يظل بعض الأشخاص هنا لساعات طوال، وهم يأتون يوميا.

هذا البحث عن الدوخة والدوار ونسيان الذات، يفسر لماذا يحب مدمنو المخدرات أن يضيعوا فيه قبل أن يعثروا على جرعة المادة التي تعوزهم. تمثل القاعة، بالنسبة للكثيرين، مكانا للاستراحة داخل المدينة، وملجأ يبتعدون فيه عن أي إلزام اجتماعي، فيذوبون في حياة مجهولة الاسم، ويؤخذون بكليتهم في الحركة الآلية للّعب. يقدر ب. بونس P. Pons معدّل ساعتين في اليوم مخصصة للعب، بالنسبة للمدة التي يقضيها أتباعه أمام الآلة.

بعيدا عن الباشينكو، الذي هو نموذج اجتماعي لكثير من الألعاب، فإن المجتمعات الغربية مغرمة بلعب الغياب هذه، حيث يضيع الأفراد في أنشطة تنويم تستهويهم. ويكفيك أن تقوم من مكانك في قطار أو طائرة كي تلاحظ العدد الهائل من الأشخاص الغارقين بكليتهم في هذه الأنشطة أمام حواسبهم أو هواتفهم النقالة، فريسة لانبهار بالكريات الملونة التي يستغرقون الساعات الطوال كي يضعوها في الخط نفسه، أو بالنسبة لنماذج أخرى لا تقل عنها ابتكارا خياليا.

التعب المنشود

يمكن للتعب أن يكون موضع اختيار لكي يمحي المرء قليلا، ويستعيد بهجة امتلاء أن يكون هو ذاتَه بعد الاستراحة، إلا أنه ينبغي، في هذه الحال، ألا يكون مفروضا. «لا نستلذ التعب إلا إذا لم نكن مرغمين عليه. ليس هناك من تعب فرح إلا إذا كنا مغمورين فرحا قبل أن نتعب» (كريتيانChrétien، 1996، 28). هذا ما يكون عليه الأمر عند الانخراط في نشاط بدني شاق، لكنه مريح، كأن تمارس البستنة، وتقطيع الخشب، والقيام بمهمة معينة من أجل نفسك أو من أجل الآخرين. من خلال الانخراط في مجهود دائم، و/أو مع غياب الاستراحة، فإن التعب يكون حالة من أجل الاختفاء، وامّحاء مؤقتا بدافع العناء، بحيث يدع المرء نفسه تنزلق برفق في عالم منكمش، حتى ولو لم تكن الإحساسات طيبة. إحدى مزاياه هو أنه يجعل تركيز الذهن أمرا عسيرا. لا شيء يشده، فهو يسري، فيكون من الثقل بحيث لا يمكن حمله. ثم إنه يُضعف من هامش المناورة المعتادة ضمن المجال اليومي أو المهني، فيخفف جزءا من المسؤولية. وهو يؤدي بالمرء إلى أن يطفو فوق الأحداث بنوع من مبرر الانسحاب. لا يعود الانخراط المعتاد في الوقائع اليومية متوفرا على وسائل عمله، فالانتباه يتبدّد. التعب انفصال، وهو يكون، في بعض الأحيان، من التفاقم حتى يدفع الفرد لأن ينغمس فيه أكثر فأكثر. فيضيع في مهمته، أو أنه يتعاطى أعمالا بدنية أو رياضية طويلة المدى، يخرج منها مستعدا للبديل، مهووسا بالرغبة في الاستراحة. «التعب أكثر المحن تواضعا، أكثرها حيادا،

إنه تجربة، إذا ما كان لنا حق الاختيار، فإن أيا منا لن يختارها غرورا. أيها المحايد، خفف عني تعبي، قدني نحو ذاك الذي، حتى وإن كان سيشغل بالي إلى درجة احتلال المكان كله، فإنه لن يهمني. — لكن، هذا هو التعب، إنه حالة لا تمتلكك، فهي تمتص من غير أن تضع موضع سؤال» *(بلانشو Blanchot، 1969، 21)*. إنه عذر لانكماش الذات حول نفسها، والخفض من شدة العلاقة مع العالم. فعندما يكون الفرد أقل انتباها إلى الآخرين، وإلى المهام التي يتعيّن إنجازها، فهو لا يوجد إلا على السطح من نفسه، ويكون متوفرا على عذر صادق لكي يتخلص من مستلزمات العمل أو الروابط الاجتماعية.

في الأنشطة البدنية والرياضية «المبالغ فيها»، يكون البحث عن التعب متعمّدا. ومن ثمة تختفي الحمولة المتعبة التي يتطلبها. لا يعود الأمر متعلقا بعناء ذي دلالة سلبية، أعني، بعناء يطبعه الألم. فهو يصاحب حينئذ محنة شخصية بحثا عن المعنى الذي ينتج عنه الابتهاج، كما هو الشأن في الانخراط الجسدي الذي يتطلب جهودا جبارة، وحدّة طبع. هنا يُقذف بالجسد في العالم بهدف إقامة حدّ، والشعور بالوجود. التعب أو الألم، هما بالفعل حواجز الهوية (لوبروتون، 2010). يدفع التعب نحو التحوّل سواء نحو الأفضل أو الأسوأ. وإذا فَرَض نفسه على الفرد على مضض، فهو يغدو قوّةَ دمار. أما إذا تمّ اختياره عن علم بأسبابه، ثم قبوله، فإنه يؤدي إلى تغيير ميمون. إذا كانت الرغبة في التعب خلال محنة شخصية، رغبة متعَمّدة، فإنها تزيد الوجود شدة، ويعلم الفرد أن بإمكانه أن يتخلى

عنها في أيّ لحظة، إذا ما أصبحت الظروف شديدة القساوة بالنسبة إليه. فدرجة ضبطه لما يواجهه مقياس للألم الذي يحسّ به.

في الأنشطة البدنية أو الرياضية يكون التعب تعلقا بالوجود، وشكلا أقصى لبناء الذات. يمّحي الفرد في النشوة الطويلة للإرهاق، إلا أنّه يجد فيها منفعة التخلص من عناء أن يكون هو ذاتَه. يغدو همّه الوحيد هو أن يبلغ مرماه. جزء كبير من هويته يكون معلّقا، لكنه قادر على أن يعود إلى وعيه الكامل في أيّ لحظة، كما إذا واجه في طريقه مشكلا ينبغي حله، أو إذا ما نودي عليه. في بعض أشكال **البياض**، يكون السعي وراء وهَج الأحاسيس الذي يمهد للاختفاء. إنه التوهج الأقصى لكي يكون المرء هو ذاتَه قبل أن يغدو لا شيء لفترة قد تطول أو تقصر. أن توجد، لا يعود بالأمر الكافي. ينبغي أن يشعر المرء بأنه موجود من خلال حشد شخص آخر عن عمد، وأن يوفّر الظروف لكي يعيش بانتظام لحظات قوية، ويكابد محنة صدمة الواقع.

بمجرد أن تفرض الظروف العناء في عمل مرهق، يكون الفرد مرغما على العمل فوق جهده، وبلا هوادة، أو أنه يقرر من تلقاء نفسه، أن يضيع لكي لا يبقى عليه أن يفكّر، وأن يتحمل ذاته، حينئذ يأخذ التعب في انتسابه إلى **البياض**. إذا ما حافظ التعب على قليل من الحضور في العالم، فإن الإرهاق يبدّده. في التعب، لا يُمسّ إلا الجسدُ وحده. أما في الإرهاق فإن الكائن ينهار بكامله. إذا كانت هناك إمكانية للاستمتاع بالتعب، بحيث نجد فيه سباتا خفيفا

يضفي مسحة من الخفة لكي يكون المرء هو ذاتَه، فإن عودة قريبة إلى الأنشطة الاجتماعية يغدو معها الإرهاق، على العكس من ذلك، تآكلا للذات. بما أن الفرد يبلغ أقصى جهده، فهو يعوّل على استحالة أن يواصل انخراطه على المنوال نفسه، فلا يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك، وحالته البدنية «تستنفد كل الممكن» *(دولوز Deleuze، 1992، 57)*. على حدود الانهيار، لا يتبقى له من الموارد لكي يستمر في الوجود. أما العودة إلى الأنشطة المعتادة فتكون ممنوعة بشكل مؤقت. والأشياء التي يحاول الإمساك بها تفلت منه فجأة، فهناك بينه وبين نفسه نوع من السُّمك الذي ينبغي اقتحامه لكي يتمكن من الدخول في أكثر الأنشطة ابتذالا.

بعيدا عن التعب، لا يؤدي الإرهاق إلى النوم أو الراحة، وإنّما إلى الذوبان في الغياب بفعل القضاء على كل رغبة، واستنفاد كل طاقة. فسواء أقصد الفرد ذلك، أم لا، فإنه يسعى إلى أن يسكر من التعب كي يتحرر من ذاته، ويوقف مدّ التفكير، فمن دون نشاط الفكر، فإنّ الفرد يتحلل. «لقد متّ تعباً»، هذا ما يقوله الرجل المنهك.

الانهيار (Burn out)

نصيب القرار الذي يتخذه الفرد في الإرهاق لا يمكن إدراكه، فهو أقرب إلى الالتباس، كما يشهد على ذلك عالَم الشغل على سبيل المثال، حيث غالبا ما يُصاحب بضائقة نفسية. يسود اليوم منطقَ الأعمال، ليس بما تفرضه الصناعة، وإنما بما يمليه الاقتصاد المالي

الذي يقضي على ما كان يحمي العمل فيما قبل. بالنسبة للمقاولات المدرجة في البورصة، فإن الأرباح لها الأسبقية فوق الاعتبارات الأخرى، ويكون على المساهمين أن يهيؤوا أنفسهم في المدى القصير أو المتوسط. تزيد تقنيات التواصل من حدة ضغوط الزّمن الفعلي، وضرورة اليقظة الدائمة بالنسبة للأطر. حينئذ تغدو السرعة مصدرا أساسيا بالنسبة إلى المقاولات في تنافسها مع المقاولات الأخرى. فيصبح ربح الوقت أحد أعصاب الحرب بين المقاولات، وكونها هنا وخارجا، أمام كل الجبهات، مخافة أن تضيع فرصة، أو تغيب عنها معلومة أساسية.

الهاتف النقال أداة رئيسية للتنقل، وسرعة رد الفعل، والقدرة على التكيّف، وتعدد الالتزامات، فهو يجعل وقت العمل غير محدود. كما أن الحاسوب المحمول يسمح بمواصلة العمل من غير انقطاع، حتى في القطار أو الطائرة، وفي الفندق مساء أو في البيت. إيقاف هذا أو ذاك لا ييسر الأمور، لأنه من المطلوب، من أجل حسن سيْر المقاولة، للرد مباشرة على أي طلب، إذ الامتناع قد يهدد سير عملية تسويق، ويؤجل حل المشاكل، وفي جميع الأحوال، قد يراكم المهمات في المستقبل. يحث النقال على استمرارية العمل، وعلى هاجس سماع رنينه، على غرار ذلك الإطار الإداري الذي كان على حافة الانهيار، والذي تتحدث عنه ن. أوبير N. Aubert (2003، 66) «يمكن أن تُطلب مني معلوماتٌ في أي وقت كان... إنه الجحيم، لا يمكنني الذهاب في إجازة، من غير أن ينتابني القلق من كون النقال سيرنّ كي يطلبوا مني ما إذا كان ينبغي القيام بهذا العمل

أم ذاك». التوقف عن العمل في طريق الزوال. والحياة اليومية مغزوة بكاملها بطوارئ لا تنتهي تتعدى حدود المؤسسة، ولا تسلَم منها حتى الحياة الشخصية أو العائلية.

صحيح أن العمل قد تحرّر، وأصبح رهينا بمبادرة الإطار الإداري الذي أصبح حكَم نفسه في التزامه المهني، إلا أنه لا يفلت من التقويمات مجهولة الاسم، التي تسهر عليها برمجة المعطيات التي تقيّم إنتاجه. لم تعد الضغوط تثقل على الأجساد، وإنّما على العقول، ولم تعد هناك مراقبة، وإنما مراقبة ذاتية مسترسلة، واستعدادٌ لا يكلّ. بالنسبة إلى الإطار الإداري، كونه مجبرا على أن يتابع عدة مشاريع في الوقت ذاته، وأن يكون على اتصال دائم في كل ساعة وحين، ليل نهار، وحيثما كان، كل ذلك يزيد من حدة الضغوط حارمة إياه من مناطق الاحتياط، بل حتى من حياته الشخصية. وبما أنه في حالة تأهب دائم، كما لو أن مسؤولياته أصبحت عقابا لا منتهيا، فإنه لا ينفكّ يكتسح من جراء تدفق العمل الذي لا يسلم منه أي شخص من العاملين داخل المقاولة *(أوبير Aubert، 2003)*. يتحدث ر. كاستل (R. Castel- 2009) بهذا الصدد عن « أفراد في حالة امتلاء»، يحيون في الامتلاء المبالغ في الفيض، حتى وإن كانوا يحسون، في بعض الأحيان، بضرورة خفض الضغط كي يعودوا إلى أنشطتهم بطاقات مضاعفة. الوجود كله يسقط في العجلة وضرورة عدم إضاعة الوقت، والحفاظ على انتباه متواصل. ينبغي التحرك بسرعة تتزايد باستمرار، للبقاء في المكان نفسه. بما أن عبء العمل يتوقف على شروط المنافسة بين المقاولات، فإنه يُقبل على أنه الثمن

الذي ينبغي للعامل في المقاولة أن يدفعه. والفائدة المؤقتة التي تُجنى من ذلك هي السماح بنوع من الإثارة التي تساهم في حفظ الذهن ما دام الفرد قادرا على المواصلة.

تمتد المنافسة اليوم إلى المقاولات التابعة، وإلى الأقسام، والفرق، والزملاء. يصاحَب تقويمُ المجموعات الكبرى بتقويم مختلف وكلاء الفريق نفسه، وذلك بوضع البعض منهم في مواقف حرجة، اتجاه إنجاز الآخرين. تعيق المنافسة بين الزملاء كل تضامن أو صداقة. إن السعي وراء تحقيق أهداف، عملت على إعادة صياغتها الظروف والتوترات بين الإدارة والموظفين، من شأنه أن يعزز ميل البعض إلى أن يصبحوا عناصر بث العنف، كما يعمل على جعل الآخرين عرضة للتحرشات المعنوية. إن اعتبار الأدرينالين، والضغوط كشرط لعمل فعال، سلاح ذو حدين. «الاستعجال هو أحد سلوكيات الإدمان، ونوع من الأمفيتامين المشجع على العمل، والذي يسمح بالعيش بوتيرة سريعة، وبصورة أقوى، وأكثر كثافة» *(أوبير Aubert، 2003، 114)*. إلا أنها تستنفد الطاقات الجسدية والمعنوية شيئا فشيئا. المؤثرات العقلية هي أدوية توازن تستعمل لكي تكون دوما في المستوى، فتزيد من وتيرة الإنجازات، وتضاعف الطاقة، وأحيانا حتى تحدث تصدعات باطنية. إلا أنها أيضا درع كيميائي للدفاع ضد الخوف من الانهيار، وفي الوقت نفسه، وسيلة للإمّحاء بلطف وهدوء.

إن المنطق المتحكم في المقاولات المعاصرة يلح على أشكال

الإدارة، ويراهن على الفرد «المكافح» القادر على رد الفعل الفوري بمجرد ما تُنبهه الظروف. يبرئ النظام نفسه من أي تهمة بممارسة العنف بدعوى أنه مقبول من لدن الفاعلين الذين يستفيدون منه لفترة، قابلين لأن يغدوا ذات يوم إحدى ضحاياه. ولكن، بعد ذلك ينقلب عدم اليقين إلى تهديد. إن النظام الإداري الذي يسود اليوم المقاولات جاعلا من الموظفين ومن الأطر الإدارية متغيرات تعديل، يمنع هؤلاء من أي مشروع مستقبلي معتقدين أن ظروف العمل ستتحسن، فيما بعد. في كثير من الأحيان، يكونون دون مستوى قيمهم، كما يشير إلى ذلك س. دوجور C. Dejours «إن من يعملون لا يفتؤون يقومون بتجربة كون مجهوداتهم المبذولة داخل المقاولة، وانخراطهم فيها، ونواياهم، وتضحياتهم من أجلها، كل ذلك لا يؤدي في النهاية إلا إلى تفاقم الوضع. كلما ضحوا وأعطوا من أنفسهم، وزادوا إنجازات، وكلما ازداد الضرر الذي يسببونه لجيرانهم في العمل، ازداد تهديدهم لهم بفعل ما يبذلونه من جهود» *(1998، 16)*. وما لم يغلف الفرد نفسه بعدم الحساسية، بأن يعتقد أنه لا يوجد شيء آخر يفعله، وأن هذا هو المنطق الذي لا يرحم للنظام، وأن الآخرين لو كانوا مكانه، فإنهم سيعملون نفس ما يعمله هو، وأنه إن كان ما زال يحظى بوظيفة، فإن ذلك نوع من الامتياز. ينبغي له أن يحمد الله على مصيره وأن يزم فاه إزاء ما يعانيه، وما يعانيه الآخرون، معتبرا أن هذا نوع من القدَر الذي ينبغي التكيف معه، مهنئا نفسه بأن له وظيفة. تسعى اللامبالاة بمصير الآخرين إلى احتلالِ المكانة التي كان التضامن يلعبها فيما قبل.

في بعض الأحيان، يضطر الإطار الإداري إلى فصل بعض الزملاء من العمل، فيكون عليه أن يحتمي بنوع من انعدام الضمير ويلجأ إلى نظام حماية يطبعه الفساد حيث «يكون الرجل الشهم، هو الذي يتمكن من أن يلحق الأذى بالغير، ويذيقهم العذاب بدعوى ممارسة احتكار السلطة» *(دوجور، 1998، 114)*. لكن تصوير المكر على أنه قوة الشخصية (دوجور Dejours، 1998، 128) لا يعفي من خطر صدمة رد الفعل. يقع الإطار الإداري أحيانا في تناقض مؤلم مع ما تفرضه عليه أخلاقه المهنية، سواء في متطلباته الشخصية بالنظر لجودة العمل، أو في إحساسه بالمسؤولية تجاه أعضاء فريقه. ثم إنه هو نفسه يكون، من جهة أخرى، معرضا لمنطق الاحتقار ذاته. تجاه المسؤوليات الملقاة على عاتقه لا يلقى الإطار أو الموظف الدعم من لدن فريق متضامن قادر أن يسنده إذا ما واجه صعوبة من الصعوبات. باستثناء بعض الحالات الشاذة، فهو اليوم وحيد أمام المضايقات والضغوط العائدة لثقل مهامه في العمل، أو مواجهة للقرارات الصعبة التي يكون عليه اتخاذها. إن تقسيم المهام، والتنافس بين الزملاء، وضغط التسلسل الهرمي، كل ذلك يحول دون الاستفادة من الاعتراف بقيمة العمل، وإضفاء معنى إيجابي على التزاماته داخل المقاولة.

كل مسؤول إداري وكل موظف مرغم بأن يضفي على عمله طابعا متفردا يميزه حماية لنفسه، وهو يسهم بذلك في كسر وحدة التضامن والمعارضة. وأولئك الذين يتراخون، يعرّضون أنفسهم لمعاناة أكثر حدة، لأنهم يصبحون معزولين. في نهاية كل خطة

اجتماعية، فإن متطلبات أولئك الذين بقوا تكون أكثر شدة، لأنهم يكونون قد أعفوا، الأمر الذي يبدو لهم حظا سعيدا، برغم من أن مهمة العمل وهشاشتهم هم تكون قد ازدادت تفاقما.

لقد أخذت دلالة العمل وقيمته تختفيان، فتحوّل إلى إكراه، وإلى عبء ينبغي حمله. وعندما يعجز الفرد عن متابعة الإيقاع، ومواكبة التسارع الذي تقتضيه وظيفته، أو مسؤولياته، يتهدده العناء الدائم الذي يحول دون أيّ شكل من أشكال الراحة، والذي يعكر صفو أوقات الفراغ. زيادة على الخوف من فقدان الوظيفة، يعمد الموظف إلى التخدير بالعمل وذلك بأن يضاعف من مهامه عن طريق تعبئة نفسية كثيفة، سواء أكانت عن قصد وطواعية، أم فرضت بسبب النقص في عدد الموظفين، وضرورة الحفاظ على إيقاع معين، وكل ذلك مقاومةً للتفكير، وهروبا إلى الأمام تجنبا للنظر في الهاوية. في هذا السياق يظهر في بعض الأحيان، خلل في الذاكرة، والتفكير، كما يعرف الفرد لحظات من الارتباك، أو عدم الصفاء الذهني، وكلها علامات على محاولة الهروب بعيدا عن سحق الضغط النفسي المتولد عن التحمّل الدائم للمسؤوليات. ولا يسلم الوجود الشخصي الأكثر حميمية من هذه العواقب، مع ظهور خلل في النوم والحياة الجنسية، وقلق الأقرباء الذين يجدون صعوبة في تحمل تلك الاضطرابات إلخ. شيئا فشيئا، يحس الفرد أنه قد تعب، وأنه محبط، فيسقط في «انهزام الذاتية» *(دوجور Dejours، 2004، 34)*.

إن الحاجة إلى ضمان دائم لمستلزمات الهوية، وإعطاء الآخرين

علامات تدل على حسن إرادة، لا سيما ضمن دائرة العمل، كل ذلك يزيد من حدة الإرهاق، واستنفاد طاقة أولئك الذين تُنهك قوتهم يوما عن يوم فلا يعودون يقوون على ما يمكّنهم من إعادة بناء ذواتهم. إن التعبئة الدائمة تدفع الفرد إلى حدوده القصوى. هذا هو burn out ، إنه الاكتئاب المتولد عن استنفاد القوة، بحيث لا تتبقى له أي طاقة لكونه قضى مدة طويلة فوق طاقته، وذلك هو الثمن الذي ينبغي دفعه مقابل مثل هذا الانخراط. لا يعود الفرد قادرا حتى على تحمّل حياته اليومية. فهو لا يكف يتنقل من مهمة لأخرى من غير أن يتمكن من انتهاج إيقاع مناسب، أو أن يتوقف من أجل الراحة. ترصد ن. أوبير أمراض العمل هذه حيث يؤدي الانخراط المفرط إلى نوع من «ارتفاع الحرارة». وهي تورد شهادات «تصف أشخاصا يأخذون في العمل كبطاريات كهربائية لا يمكننا فصلها، وآخرين لا يبرحون أماكنهم مثل العلبة التي تضبط سرعة السيارة، والتي تدور في الفراغ، كما تصف آخرين لا يقوون على المواصلة» *(أوبير Aubert، 2006، 77)*.

يبلغ الانهيار في بعض الأحيان درجة الاختفاء التام. إنه يصل إلى نوع من الانفصال الباطني، الذي يطلق عليه اليابانيون شوشة كيوهي shussha kyohi (الخوف من المقاولة أو فوبيا المقاولة) *(جوليفي C. Jolivet، 2002، 74)* وهو يؤدي إلى العيش مثل ظل في هوس العمل. بين عشية وضحاها، يتخطى الموظف عتبة لامرئية، فيصبح غير قادر على العودة إلى المقاولة، من غير أن يتمكن من تفسير سبب ذلك، وينتابه إرهاق شديد. يعرف اليابان كذلك

منذ عدة سنوات، وباء كاروشي karôchi، وهو موت مفاجئ، تصيب الشخص عند الثلاثينيات في بعض الأحيان، عن طريق نوبة قلبية. هؤلاء عمال شغوفون، ذوو ضمير، يكرسون أوقاتهم كلها للعمل على حساب عائلاتهم، أو صحتهم، فيبذلون قصارى جهودهم بلا هوادة حتى الانهيار. يحبسون أنفسهم في نوع من نشوة العمل التي تنخرهم شيئا فشيئا. إنهم يُضحون بأنفسهم من أجل المقاولة. يقدر عدد الضحايا بعشرات الآلاف. يعرض س. جوليفي (2002، 109) بحثا أجراه حول عيّنة من 500 موظفا يعملون في شركة تأمين، تتراوح أعمارهم بين 20 و50 عاما، 88 ٪ منهم يعتبرون أنهم يتوفرون على «حظوظ كبيرة»، و37 ٪ أنهم سيلقون حتفهم ذات يوم من جراء الكاروشي. بالنسبة لآخرين، الانتحار طريقة للتعبير عن رفضهم الاستمرار في التعاون بهذا الثمن، وهو مقاومة نهائية تجاه العنف المُعانَى، إنه اختفاء جذري.

اكتئاب

الحداد انسحاب مؤقت من العالم، إنه وجود في أدنى درجة تحت رعاية الحزن، لكنه لا يدوم. وهو شكل عادي للوجود بعد اختفاء قريب أو بعد محنة شخصية: «من اللافت للنظر أنه لا يخطر ببالنا أن نعتبر الحداد كحالة مرضية، فنعهد بعلاجه لطبيب، رغم أنه يبعد كثيرا عن السلوك الطبيعي. نحن نعول على أنه سيتم التغلب عليه بعد فترة زمنية معينة، فنعتبر أنه من غير المجدي، بل من الضار، أن نعكر مجراه» *(فرويد،1968، 148)*. الحداد انسحاب جزئي من

الذات، واختفاء مؤقت محدود، وهو مقبول اجتماعيا. فالفرد، عندما يفقد حضور قريب، أو يُسحب منه نشاط كان مرتبطا به، فإنه يصبح مبتورا على المستوى النفسي، فاقدا ذلك الجزء من ذاته، فيسعى إلى أن يحدد من جديد علاقته بالعالم بمواجهة الألم والمعاناة.

بعد الحداد، يكون الاكتئاب هو أيضا تجربة مرغمة على الاختفاء، وهو يشكل اليوم أحد أكثر أشكال الاضطرابات التي يتم تشخيصها في العالم *(كلاينمان Kleinman وغود Good، 1985)*. خارج نطاقه الطبي، فإن مفهوم الاكتئاب صار مرجعا شائعا، يترجم لدى كثيرين الشعور بسحق وجودهم. فإذا ما أصيب الفرد بصدمة في طفولته (اغتصاب جنسي على سبيل المثال، هجر...)، فإن ذلك يغذي فيه الاكتئاب ويعطيه نقطة ارتكاز، فيظل وجوده الحالي دائما ضمن مدار الحادثة، متأرجحا في حركة بندول بينهما، فيحول بذلك دون ارتماء حقيقي في المستقبل، وانتفاضة إزاء الماضي، طالما أن هذا الماضي ليس معروفا ومتجاوزا بهدف إعطاء سيولة للحاضر، يكون الفرد سجين فترة شاقة من حياته لا يعيها دائما تمام الوعي.

ومع ذلك، فلا يمكننا أن نعتبر أن جذورها متأصلة في الطفولة وحدها، فهي أيضا، وربما أساسا، نتيجة لصعوبات أن يكون المرء ذاتَه في مجتمعاتنا، وعناء ضرورة البقاء الدائم في مستوى متطلبات حياته الفردية. إن الاستقلال الذاتي للفرد محمّل بالتوترات الباطنية. فالفرد يغدو، رجلا كان أم امرأة، مسؤولا عن نفسه، وعليه تقديم

الحساب للآخرين ولنفسه في حالة الفشل. عليه أن يبرهن دون انقطاع على كفاءته أن يكون مصدر تصرفاته. فمكانته الاجتماعية لا تعطى إياه ببساطة، وإنما عليه أن يبنيها مستفيدا من عدة مرجعيات متاحة. إذا كان الربط بين علامات الهوية في بعض الأحيان سائلا، سارا بالنسبة لأولئك الذين يتوفرون على أركان مترسخة في النرجسية، فإن الهوية، بالنسبة إلى آخرين، تكون عندهم نسيجا ممزقا لا ينبغي الكف عن رتق أجزائه، ولا يليق بسهولة بالفرد فيُحدث عنده تخوفا وعدم ارتياح. يكون على الفرد ألا يكف عن بناء تجربته.

الاكتئاب يتجذر أيضا في حادث حاليّ لا يستطيع الفرد أن يتخطاه، مثل حداد أو فصل عن العمل، أو فراق... إلا أنه قد لا يعود إلى سبب واضح، فهو يضرب فجأة رجلا أو امرأة كان كل شيء بالنسبة إليهما يسير على ما يرام. يتحدث فيديدا P. Fédida عن ذلك كـ «مفهوم-عناء» *(2009، 203)*. وهو يتجلى بشعور حاد بالذنب، وعدم الأهمية، واستحالة تغيير الأمور، للتمتع بالسعادة، وكذا بنوبات قلق، وصداع في الرأس، الخ. إنه إفقار للذات وحرمانها مما تملك، فتشعر كأنها صارت سجينة رسم كاريكاتوري تعيس. كل هذا يصاحب بتباطؤ جسدي، وببطء الحركات، والأفعال، والتفكير، واتخاذ القرارات، ولكن أيضا تثاقل النطق مع رتابة التعبير، وانخفاض الصوت، الفاقد لكل نغمة، والثقيل حملُه.

يشكل الانغماس في الحياة اليومية على المدى الطويل إحدى

البداهات، فالفرد ينغمر فيها من غير أن يشعر بمسافة أو حاجز من الحواجز. تكون كل لحظة في رباط مع سابقتها، وهي تغذي ارتماء في المستقبل، وترقبا. إلا أن هذا التصور يتوقف على المعاني التي يعطيها الفرد لوجوده في لحظة بعينها. ففي بعض الأحيان ينساب الزمن ببطء، أو أنه يتعجل، فيعرف إيقاعات متباينة، أو أنه يتجمد في نوع من السكون المتعب. إنه مرض يصيب الزمان، وتوقف للديمومة يعلّق الوجود، ويسهم في جعله باهتا، ليس فيه نتوءات. إنه انتظار لاشيء، بنبرة مريرة قائمة على عجز عن العمل، وإطلاق حركة الزمان بوضع مشاريع. صحيح أن الإحساس باستمرارية الذات، واستذكار التاريخ الشخصي يظل قائما، إلا أنه يتخذ شكلا مبخسا. يتغير التوقع في عمقه. إذا كان الانتساب للحاضر (praesens)، هو أن يكون المرء متقدما على نفسه، ففي الحالة التي نتحدث عنها، يغدو الإسقاط متعِبا مرهقا، إنه يجر أعقابه. يتغير إدراك الحدث، يكفي أن يكون العائق بسيطا حتى يتحول إلى جبل، وملاحظة تافهة، تتحول إلى نقد جذري للذات...

بالنسبة إلى الشخص الذي يعاني من الاكتئاب، يبدو الزمن كما لو أنه توقَّف، وهو يغذي المعاناة، بأن يجعل الأيام والليالي لا تنتهي. يهرب النوم، فيغدو مشكلا من المشاكل. تختفي الشهية، ومعها يتم فقدان طعم العيش. أدني حركة تتطلب مجهودا مضنيا. يشعر الفرد أنه «فارغ أجوف»، «حبيس نفسه» (موريرا Moreira، 2003، 117)، لا يلذ له شيء، ولا ينفك يجتر أفكارا مؤلمة، يشعر بالعجز وعدم الجدارة، وفقدان الكرامة. يكاد ينعدم تقديره لذاته. تشل

حركته، وتلاقي مثبطات، حتى تغدو مستحيلة. يفقد وجوده كل حيوية، أو بالأحرى، فإن انسحاب معناه وقيمته يجعله باهتا فارغا. الاكتئاب «مرض المسؤولية» (إيهرنبرغ Ehrenberg، 1998، 10)، قياس مدى قصوره عن ضمان مهمة أن يكون ذاتَه، حيث لا توجيه يأتي ليرشد الفرد من خارج. قال (ه.روزا- H. Rosa): «إذا كانت الكآبة هي سمة الإنسان الاستثنائي، فإن الاكتئاب هو علامة على التحول الديموقراطي للاستثناء. نحن نعيش بصحبة هذا الاعتقاد، وحقيقة أن كلا منا من حقه أن يخلق هو نفسه تاريخه الخاص، عوض أن يُفرض عليه فرضا كقدر محتوم» *(2013، 303)*.

يصبح الشعور بالذات مفارقة لا ترتفع، وتناقضا قائما لا يجد حلا. «إن استحالة اختزال المسافة التي تبعد الذات عن نفسها متأصلة في تجربة أنثروبولوجية يكون فيها الإنسان مالك نفسه، ومنبعا فرديا لأعماله. الاكتئاب هو حصن الإنسان الذي لا دليل يرشده. وهو، إلى حد ما، شقاؤه، إنه المقابل لصرف طاقاته» *(إيهرنبرغ Ehrenberg، 1998، 250)*. فهو يتجرد من شخصيته القديمة، فيستعيدها مجددا، إلا أنه الآن لم يعد متأثرا بها. الاكتئاب عند فيديدا P. Fédida (2009) هو استحالة أن يستشعر الفرد إصابته بالاكتئاب، أي لحظاته الطبيعية، المتأصلة في حياته اليومية، من تعب، وحزن، تتخللها لحظات سعيدة. يفقد الفرد نفسه العاطفي، ويغرق وجوده في تجربة عدم لا تبقي ولا تذر.

الكلمة الفرنسية التي تعني الاكتئاب Dépression، تشتق من اللاتينية depressio وتدل على الانغماس والسقوط من أعلى إلى أسفل. فهي تعبر إذاً عن الشعور بالضعف والهبوط، والانهيار، والسقطة، والاقتناع بأنك أصبحت أسفل سافلين، وأنك لم تعد متجذرا في الأرض، وفي وجودك، وإنما تتأرجح حولها من غير أن تسترجع ذاتك، كما لو أن الاختفاء يتواصل بفعل انفصال الجسد عن العالم، ونتيجة حالة من التعليق تكون على وشك الانهيار الدائم. لا يعود الفرد محمولا على وجوده، وهو يكون قد فقد ركائزه، فيتقدم وهو يهاب السقوط. يتخيل نفسه عائما في الفضاء، دائما على حافة السقوط. كتب ا. ستروزE. Straus (ذكره جينار *Gennart، 2011، 46*): «رغم أن هؤلاء المرضى، موضوعيا، ومن وجهة نظر الملاحظ، يقفون في استقامة تامة، ورغم أنهم يستطيعون المشي بشكل قويم، فيقومون به بالفعل، فإن الانطباع بأنهم يسبحون أو ينزلقون لا يمكن ألا يؤخذ بعين الاعتبار. فالأرض لا تكون صلبة إلا بالنسبة لمن يتماسك في الوقوف عليها، وإلا لمن يحتمي بنفسه، ويكون قادرا أن يعرف حدوده مع العالم بطريقة أو بأخرى». يكون الفرد على حافة حفرة خائفا من الاختفاء النهائي. وهو يقف عند الحدود القصوى. عندما لا يلتحم المرء بالوجود، فمن المنطقي أن يشعر بأنه فقَد قدرته على الوقوف على الأرض، فيسقط في تأرجح باطني، خوفا من أن ينهار بفعل الثقل الوازن للساعات والأيام. عندما يهجر المعنى الشخص، فإنه بلا كلل لا يستطيع إلا السقوط، لكن، طالما أنه يسقط، فهو لا

يزال على قيد الحياة. طيف الاكتئاب متسع، بما أنه يأتي خاصة بعد خيبة أمل، وخيانة، وحادثة، وفصل عن العمل، وحداد، وفراق ينزع الفرد من مرجعياته السابقة، ويحطم ثقته الوجودية في العالم، وذلك من خلال الإضرار بتقدير الذات. كما أنه يصيب أشخاصا تضرروا من الأزمة الاقتصادية، وتراجُع التضامن الاجتماعي: في شكل انعزال، إقصاء، عوز، هشاشة، بطالة، الخ.، وكل تلك الأحوال التي تُضعف قواهم، بأن تمنحهم الإحساس بأن تلك الأضرار لا علاج لها. الاكتئاب رد فعل إزاء العداوة، لكنه قد يتولد من لا شيء، من نقطة الماء التي تُفيض الإناء، والتي يفشل الفرد نفسُه في تحديدها، وهذا هو الدفع النهائي الذي يعمل على سقوط صرح وجودٍ بكامله. حينئذ يُقصى الفرد من الحياة، وهو لا يعود يتعرف على نفسه، كما أنه يغدو غير قابل للتعرف عليه من طرف محيطه. فيختفي بشكل مأساوي ومؤلم، مدركا بشكل حاد بأنه قد ظل هو نفسَه في الوقت ذاته الذي جُرّد فيه من كل سلطة، لدرجة أن وجوده قبل الاكتئاب يظهر له كفردوس مفقود لم يعد بإمكانه بلوغه. إنه لا يجد نفسه في ما يعمله، والمعاني والقيم التي كانت محبوبة لديه تأخذ في الانهيار. يجتر صدماته القديمة بحثا عن دلالة حالية لما يعيشه، وقد ينعشها ويحييها في بعض الأحيان، في حين أنها تكون قد فقدت رباطها مع الوضع الراهن. يتأثر جسده بالعديد من التغيّرات، مثل الصداع النصفي، واضطرابات الجهاز الهضمي، والأرق، الخ. تتأثر انفعالاته باجترار الألم، فلا يعود هناك مكان للفرحة، حتى وإن تحقق حادث طالما رغب فيه. «أنا لا أحارب

العالم، وإنما أحارب ضد قوة أعظم، ضد ضجري من العالم» (سيوران Cioran، 1979، 107). يؤدي الاكتئاب، بمختلف أشكاله، إلى إعادة صياغة الضياع. يكون الفرد أمام غرابة تجربته المتعبة، وهو يُلقى خارج نفسه، في الوقت ذاته الذي يظل فيه هو هو نفسه، إلا أنه شخص أفرغ من جوهره.

الاكتئاب انفراج، انخفاض للتوتر يستشعره الفرد كي يكون هو هو عن طريق التخلي عن الصراع. إنه إرخاء مؤلم للشكيمة. حينئذ يتحرر الفرد من شخصه. ولا يعود يعنيه، ولا يعود يراه إلا في ضباب عدم التقدير الدائم. إنه يصبح على هامش نفسه، مبتعدا عنها، محررا من المسؤوليات التي تلقيها عليه الحياة اليومية. يرى د. فيلوشر D. Widlöcher «أن الانطواء الاكتئابي يشكل موقفا وقائيا للانسحاب، وهو شكل من أشكال السبات يسمح للفرد أن يستمر في الحياة عندما لا يعود يتوفر على قدرة على الصراع(...) فأن يجمّد المرء نفسه، هو موقف يتشبه بالموت، فينجز موتا نفسيا، وهو، في الوقت ذاته، تبيُّن قد يكون صوابا أو خطأً، لكون ظروف العيش لم تعد تُقبل، ولا تسمح بأي شكل من أشكال الصراع» *(1983، 217 و235)*. عندما يدفع الفرد ثمن معاناة طويلة، فإنه «يتشبه بالميت» اتقاءً للموت، وفشلا في الاستمرار في معاناة طعم الحياة. الاكتئاب هو الوسيلة التي يعثر عليها الفرد، على الرغم منه، لكي يخفض من السرعة. وهو شكل من أشكال لا تطاق لاختفاء الذات، يفقد فيه الفرد كل رباط لفترة طويلة. لكنه كذلك غرفة معادلة الضغط للعودة إلى الوجود يوما ما بمزيد من الابتعاد، وقد

استعاد طعم العيش، وأصبح قادرا أن يكون هو ذاتَه.

شخصيات متعددة

يمكننا أن نختفي من خلال التجفيف، بأن نخفت نور ذواتنا إلى أقصى درجة، إلا أننا يمكن أن نختفي كذلك بأن نجزئ ذواتنا كما هو الشأن في تقمص شخصيات متعددة[5]، ظهرت في السنوات الأخيرة في الولايات المتحدة على سبيل المثال. يحمل رجال ونساء، على الرغم منهم، هويات متعددة تتعايش فيما بينها من غير أن تتعارف، وتتمايز تواريخ حياتها. لا ذاكرة مشتركة تربط بينها، ويجهل الفرد كونه المسرحَ الذي تنمو عليه هذه الشخصيات المتباينة، فهو منفصل عنها. وهو يستضيف شخصيتين متباينتين فأكثر، تستحوذان على شخصه بالتناوب.

«ربما لم نُهيأ للأنا نفسه. وليس من حقنا أن نحل فيه. إنه الحكم المسبق للوحدة (...) فهو ليس أنا. وليس كذلك عشرا من الأَنَوَات. وليس يصدر عني. الأنا ليس إلا وضعية توازن» (ميشو، 2000، 63). تكون وحدة الذات عادة جهدا يبذله الفرد، ومقاومة في مواجهة الانفصال الذي يهدّده. في بعض الظروف، وخصوصا

(5) في نهاية القرن الثامن عشر، على نطاق اجتماعي محصور، كان الطب النفسي قد درس سلسلة من الشخصيات المتعددة في ذلك العصر. وقد تم ربطها حينئذ بأشكال من الهروب تزيد مدته أو تقل (الآلية التنقلية) حيث كان الهاربون "ينسون" كليا حالتهم المدنية قبل أن "يستيقظوا" أياما أو أشهرا بعد ذلك (بون ، 1983، هاكينغ، 1998،). في ذلك الوقت (1889) كان بيير جاني قد طرح مفهوم "الآلية النفسية" لوصف هذه الأعراض حيث يذوب الشعور بالذات (إيلينبرغر، 1974، 301 وما يليها، هاكينغ، 1998).

تلك التي تطبعها الصدمات، تتصدع هذه الوحدة في جزء منها، وتتحلل الشخصية، فتتعدد. الانقسام هو أسلوب دفاع. وهو يتعارض مع المفهوم الخاص بالمجتمعات الغربية، والذي بمقتضاه لا يشكل كل فرد إلا شخصا واحدا، يحمل وجها واسما متفردين، وحالة مدنية، وسيرة ذاتية تخصه هو بالذات. وفكرة وحدة الوعي في المجتمعات الغربية تتميز عن تلك التي تعرفها مجتمعات تقليدية عديدة، حيث تكون أنوات عديدة قادرة على أن تنكشف وفق الظروف. لا تفصل كسمولوجية هذه المجتمعات دائرة الآلهة عن دائرة البشر. ففي بعض الأحيان يأتي الأولون لزيارة الأخيرين، أو أنهم يبعثون بمبعوثين خلال أوقات إقامة شعائر التملك أو النشوة. كما كان الأمر عليه أيام الإغريق أو الرومان، حيث لم يكن الآلهة ينفكون عن التدخل للتأثير على مصير البشر في هذا الاتجاه أو في الآخر.

لم يكن لهذا المرض وجود قبل السبعينيات من القرن الماضي حيث انتشرت الأعراض على نطاق واسع في المستوى الاجتماعي. إن هذه التصرفات، التي هي نماذج لسوء السلوك، كما كان يسميها جورج دوفرو، والتي كانت تلاقي من طرف المجتمع، على مضض، إدانة تزداد حدتها أو تقل، إلا أنها كانت تفرض نفسها على عدد دالٍّ من الأفراد تعبيرا عن استيائهم. ركز العديد من الأطباء النفسيين على التعمق في أعراض الشخصية المتعددة، وعلى التكفل، مما ساهم في انتشارها، وربما عن غير قصد من طرفهم. وقد زادت وسائل الاتصال الأمريكي من أمر هذا التهوين، في ارتباط مع السلطات

الطبية، رغم الجدالات التي أثيرت حول معقولية ذلك (هاكينغ، 1998). وقد جعل د. لانش من ذلك ركيزة أفلام مشهورة مثل فيلم طريق سريع مفقود Lost Highway (1997) أو فيلم طريق موهلاند Mulholland Drive (2001). إن اضطراب تفكك الهوية هو شكل من أشكال الاعتراف الاجتماعي الذي يفسح المجال للتعبير عن الصعوبات الشخصية، والبحث عن معنى يزداد أو يقل معقولية. في هذه اللحظة من عمره، يكون على الفرد أن يفهم سبب عيشه الشقي، وعلى رغمه، ينهج منعرجات نادرة المسلك للتخفف من محنته.

يتم تحليل تفكك الشخصية عادة باعتباره رد فعل ضد الصدمات، وأساسا كشكل من أشكال الدفاع في مواجهة الاعتداء الجنسي الذي يتعرض له الطفل، ذلك الاعتداء الذي غالبا ما يتعرض للنسيان. مثل هذا الأصل يتماشى مع الوعي بالعنف الذي كان يمارس إزاء النساء والأطفال خلال السبعينيات (موهيرن Mulhern، 2001). عندما يجزئ الفرد شخصه أجزاء مختلفة، بحيث يكون لكل جزء استقلاله الذاتي ومميزاته، فإنه يسعى من وراء ذلك إلى وقاية نفسه، والتشويش على مسالك الوصول إليه. لا يتعلق الأمر بمرض الفصام، لأن الأفراد يظلون مرتبطين بالحياة الاجتماعية العادية، ولكن مع تغيير الشخصية.

يعتبر بعض الأطباء النفسيين أن هذا الاضطراب ليس له وجود فِعْلي رغم كثرة عدد الشهادات، ورغم التعبئة الاجتماعية القوية

التي تعقد إزاءه. ظهر أول وصف له سنة 1980 : «سمته الأساس هي وجود شخصيتين أو أكثر عند الفرد الواحد، كل واحدة منها تظهر نفسها على أنها الشخصية المهيمنة في لحظة بعينها. كل شخصية تمثل وحدة مركبة متكاملة تمام التكامل، وهي تتميز بأنماط سلوك، وبعلاقات اجتماعية، وبذكريات خاصة بها: هذه المميزات تحدد تصرفات الفرد عندما تهيمن هذه الشخصية بعينها أو تلك (...). الشخصية الأصلية ليست لها عادة معرفة بأي شخصية من الشخصيات الأخرى، ولا أي وعي بها» *(ذكره موهيرن Mulhern 2001،)*.

أثار ظهور هذه الاضطرابات التي تحدد التفكك كثيرا من الصعوبات لدى المحاكم الأمريكية، سواء في إطار الدعاوى القضائية ضد المعتدين المزعومين (غالبا ما يكونون هم الأولياء) أو مرتكبي الاغتصاب أو القتل الذين كانوا يدّعون أنهم كانوا تحت سيطرة إحدى الشخصيات أثناء ارتكاب الجريمة. إلا أن العدالة الأمريكية قد استبعدت هذه الطريقة في الدفاع. والوصفة أو الصعوبة في إثبات الاغتصاب الجنسي بعد مضي مدة زمنية طويلة، لم تمكن من المتابعة.

الانغماس في نشاط من الأنشطة

بعض الأنشطة عالية التركيز، تكون بالنسبة إلى الممارسين لها مصدر تفكك للذات، وانفصاما يسمح لهم بأن يتخلوا عن أي التزام آخر. فالشغف بلعب يكون دوما على شفا حفرة بين الابتهاج

والخسارة والضياع. من حسن حظه، فالفرد ينزلق نحو نشوة خفيفة حيث يشعر أنه مشغوف بالوجود، فينفصل عن هويته العادية، إلا أنه يظل تحت تهديد أن يفقد زمام المراقبة، ويغرق كليا في النشاط الذي يقوم به. في رواية نابوكوف (**الدفاع لوجين**) La Défense Loujine، تكون الشخصية المركزية طفلا في البداية، ثم مراهقا شقيا، غير محبوب، حالما بالهروب، لكنه ضعيف الإرادة. يتعرض للتخويف والسخرية في المدرسة لترهله، وبدانته. لكن اكتشافه للعبة الشطرنج سيغير حياته. «دقت بالنسبة إلى لوجين الساعة الحتمية التي ينطفئ فيها ضوء الكون بغتة، كما لو أن أحدهم شغّل مفتاح الكهرباء، حيث لم يتبقّ، وسطَ الظلمة، من نور وهاج إلا أعجوبة جديدة كل الجدة، جزيرة مضيئة، حولها سيتركز وجوده من الآن فصاعدا» *(نابوكوف Nabokov، 1991، 31)*.

تمنحه اللعبة أجنحة كي يتحرك فيجد مكانه في عالم فوضوي لم يعد يفهم قواعده. هناك، على رقعة الشطرنج، يدرك التركيبات الممكنة لعالم مصغر، فيصبح سيد اللعبة، لعدم تمكنه من أن يجد مكانه في وجوده الخاص. إنه لا يعيش مراهقته، فيظل يتنقل من لعبة إلى لعبة فلا يكف يوسّع من سمعته في إتقان اللعبة أمام خصوم أكثر شهرة، مهمِلا شخصه، وبدانته التي تجعله غير قادر على أن يعيش في اتصال مع الآخرين، اللهم إلا خلال الطقوس شديدة الحذر عند منافسته لخصومه. تمكن من صنع سمعة دولية، واستمر في العيش تحت ظل لا تضيئه إلا رقعة الشطرنج. لعبة الشطرنج هي ملاذه الوحيد. إنه المكان الفريد الذي يوجد فيه بالفعل. بعيدا عنه، فإنه

يشتهر كشخص مشتت الذهن، خجول، كسول، غارق إلى الأبد في البحث عن التوليفات التي لم تتقدم معرفتها، غالبا ما يرتدي ملابس سيئة، لا يكون نظيفا على الدوام، يأكل الأطعمة نفسها، عاجز عن الاعتناء بذاته. «لا يتنبه لوجوده إلا في أوقات نادرة (...) لكن، بكيفية عامة، لم تكن له مع الحياة إلا علاقات غامضة، ولم تكن الحياة تطلب منه إلا القليل من الجهد» (83).

خلال إحدى البطولات، التقى بشابة حنون، فوجد فيها العاطفة والاهتمام اللذين لم يرَهما قط في طفولته. كانت المرأة فياضة العواطف تشفق على هذا الرجل البدين، الصامت، البطيء، العاجز عن أن يرعى نفسه، فوجدت معنى لحياتها بأن تنذر نفسها لحمايته. في بطولة مرموقة، كان يواجه لاعبا إيطاليا، كان خصما متمكّنا، فأخذ اللعب بذهنه كل مأخذ. بعد كل جلسة «كان يصعب عليه أكثر فأكثر أن ينسلخ عن عالم الشطرنج» (111)، كان عالَم التوليفات يبدو، من حين لآخر، أنه يكتسح وجوده. «كان الشطرنج يغطي بالنسبة إليه مجال الواقع الفعلي، وما تبقى فهو مجرد أحلام (...). هذه الحياة الفعلية (...) كان لوجين يفخر بأنه يتقنها من غير أدنى صعوبة، وأن كل شيء فيها يخضع لإرادته، ويتفق مع أفكاره» (119). إلا أن الانخراط الحيوي في الصراع كان يجتاحه، وعندما يشرع خصمه في لعبة حاسمة، على غير عادته، يتملك لوجين حرج شديد. يشتد القتال بين الرجلين، فيفقد لوجين كل قواه. «أي شيء يوجد في العالم خارج لعبة الشطرنج؟ الضباب، المجهول، العدم...» (124). عند التوقف من أجل الاستراحة،

ينهار لوجين، فيلج عالما «تغشوه الظلال والضباب» (125).

بعد فترة طويلة للنقاهة، يعود رافضا عالم الشطرنج بناء على نصيحة طبيبه. لكنه قد فقد الآن السور الذي يفصله عن عداوة العالم. تزوج المرأة التي يعشقها، ويسعى جهده ليلعب الدور الذي يُطلب منه أداؤه، حتى ولو كان ذلك بصفة سطحية. أقام توازنا غير مستقر مع زوجة يقظة وعاشقة ترعاه. خلال حفل رقص، يلتقي بيتريتششيف Pétrichtchev ، وهو زميل سابق في الدراسة، فذكره بالمضايقات التي كان يتعرض لها في طفولته. ورغم مجهوداته المتكررة لتجنبه، فإن هذا الزميل الدخيل واصل مضايقته، وتذكيره بالذكريات المؤلمة، إلى حد أنه لاذ بالفرار. «أقنع نفسه أن التوليف مازال صعبا أكثر مما كان يعتقد في البداية، وأن لقاء بيتريتششيف كان استمرارا لشيء آخر، وأنه يلزم الحفر أكثر، والعودة إلى الوراء، والنظر في كل أحداث حياته، ابتداء من مرضه حتى هذا الحفل» (181). بدا وكأنه يغادر شيئا فشيئا الحياة العادية رغم جهود زوجته، وأنه الآن، صار يواجه العالم في لعبة شطرنج، كما لو أنه كان يحيا على رقعة شطرنج ضخمة غدت فيها زوجته وأقاربه هم الخصم واللعبة والحياة اليومية. «لم يعد بإمكانه أن يفكر إلا بلغة الشطرنج» (218). لا يزال ينخرط في اللعبة الاجتماعية، ولكن بعد أن يهيئ دفاعه، حتى لحظة اقتراب رحلة هيأتها زوجته، لكنه لم يقبل فكرتها، مما دفعه إلى أن يتخذ قراره بـ «أن ينسحب من اللعبة» (228). في اليوم نفسه تسلل، في اختفاء عن زوجته، ليقف على حافة نافذة غرفته. فرمى نفسه في الفراغ معتقدا أنه قد نجا أخيرا (231). لم يعد

محتاجا لدعم نفسه في مجهوده لكي يوجد. قصة نابوكوف قصة نموذجية، وهي تذكرنا بأن بعض الأعمال التي ننخرط فيها كليا، تكون أولا وقبل شيء، دروعا نواجه بها العالم الخارجي، ومساعيَ للهروب من الذات بألاّ نعود نجسد سوى ذلك الجزء المفضل الذي يعفي من الباقي.

يواجه الانخراط المتفاني في نشاط من الأنشطة شكوك العلاقات الاجتماعية، بإقامة علاقة منتظمة توجه سلوك الفرد توجيها كليا، إلا أنه يشعر أنه يتحكم، كيفما شاء، وأبد الآبدين. يمكن للنشاط أن يدور حول موضوع من الموضوعات كالمخدر، وشبكة التواصل، وألعاب الفيديو، الخ... بفضلها يحدد، وفق هواه، درجة انخراطه في العالم ونبرته، حتى ولو اقتضى الأمر تغيير محيطه، وتحويله إلى مجرد منفعة خالصة، من غير ضرورة لانخراط آخر. علاقات التوقف هذه، هي شكل من أشكال المراقبة التي يمارسها الفرد في مواجهة الحياة اليومية، وأمام هزات العالم.

3 . أشكال الاختفاء الذاتي في مرحلة المراهقة

«لكنك لم تعد في حاجة إلى اعتذار، وتأسّف، وحنين. أنت لا ترفض شيئا، ولا تلقي بشيء. توقفت عن التقدم، لكنك لم تكن تمضي قدما، أنت لن تنطلق من جديد، لقد بلغت نقطة الوصول، وأنت لا ترى ماذا ستعمل بعيدا».

جورج بيريك، ***رجل ينام***

محو إكراهات الهوية

إذا كان المراهقون، تحديدا، في أحسن حال، فإن 15 ٪ منهم يحسون بأنهم ليسوا على ما يرام مع العالم، وهم يمرون بفترات صعبة يعرضون فيها أنفسهم للخطر عن عمد مارِّين بما تسميه مصطلحات الصحة العمومية بالسلوكيات المحفوفة بالمخاطر. تتولد المعاناة الخاصة بالمراهقة عن التمايزات والانتباه إلى الذات، وهي قلَّما تُسمَّى باسمها، اللهم إن هي تولدت عن حادث صادم يقسم الوجود إلى ما قبل وما بعد، (زنا المحارم، اغتصاب، حادث، فراق نتيجة صراع بين الوالدين...) أو سياق عاطفي مؤلم (سوء معاملة، غياب المحبة، صراع الوالدين، الخ). في كثير من الأحيان،

يصارع المراهق مغمورا بشيء من عدم الارتياح الكامن، غير القابل للتحديد. فهو لا يعرف ما يبحث عنه، والذي يظهر له قريب المنال، ولا يمكن بلوغه في الوقت ذاته. في حالة حصار، يواجه وضعا يقلص من هامش تأثيره على العالم، ويحول بعمق طعم الحياة. يحس أنه مهدد في سلامته واستمراره الشخصيين. إنه الشخص الوحيد الذي لا يريد أن يكونه. هذا الفترة تكون، أكثر من أي فترة أخرى في الحياة، مليئة بالشكوك، والهزات، والأسئلة حول معنى الحياة. تبلغ فيها المعاناة شدة نادرة، لأن الشاب لا يكون قد امتلك تاريخا من شأنه أن يضفي شيئا من النسبية على الفوضى التي يعيشها. فهو يصطدم بعداوة يلاقيها مع إحساسه أن واقع الأمور لا يمكنه إلا أن يظل على حاله. وخصوصا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن حياتهم تهرب من رقابتهم، وأن الارتماء في المستقبل ينصبّ، دونما انقطاع على حاضر مؤلم.

إذا كانت الطفولة تيسّر من جزء من الصعوبة في أن يكون المرء هو ذاتَه، بفضل رعاية الأسرة، والمدرسة، وأنشطة أوقات الفراغ، فابتداء من فترة البلوغ يبدي الشاب مقاومة أكبر، ويدخل أحيانا في صراع مع والديه، نظرا لغيابهما، أو لسوء المعاملة التي يتلقاها، أو التي يعتقد أنه يعاني منها، إلا أنه يدخل أيضا في مواجهة مع ذاته، وضرورة أن يبتكر شخصية، ويعتمد على نفسه. وسرعان ما يصبح وضوح الطريق غموضا، خصوصا إذا لم يكن الأولياء يحتضنونه بما يكفي، أو لا يكونون متفرغين لذلك. حينئذ يفقد الشاب مركزه، فيلقى به في عالم لا يفهمه، ويفشل في التمييز بين الواقع والخيال.

يظل الشاب ضعيفا إذا لم يواجه حدودا للدلالات قائمة على أساس التفهم من لدن والديه، أو من أشخاص آخرين ذوي أهمية في نظره كي يناقش تلك الحدود أو يصارعها، فينمّي على هذا النحو قيمته الشخصية. الأمر نفسه إذا ما واجه سوء تعامل، أو خشونة أو لامبالاة في استحالة إسماع صوته الخاص. إن بناء شخصيته انطلاقا من مصادر الدلالة هذه، مهمة شديدة الصعوبة، إذا لم يتوفر على مادة أولية لكي يبني ذاته. في مواجهة عديد من الخيارات الممكنة، ولكنها بدون توجيه، فإنه يكون غارقا في بحث طويل عن الاعتراف من طرف الآخرين، وعن معنى لحياته. لكي يتحمل مسؤولية هويته، من المناسب أن يتعرف على نفسه داخل النسيج الاجتماعي، ويشعر أنه موجود في عيون أولئك الذين يهمونه. لكن، بالنسبة للشاب الذي جرفته المعاناة، فإن الشعور بالهوية يكون بالأحرى مجموع إكراهات، وانحباسا في الذات.

معظم السلوكيات الخطيرة، وخاصة تلك التي تعتمد على المحنة، و/ أو التضحية، هي أشكال من المقاومة في مواجهة استحالة أن يكون المرء هو ذاتَه، وذلك من خلال محاولات عنيفة لإعادة تحديد الذات. عندما يمثل المراهقون الموت، أو عندما يقبلون دفع ثمن مشاريعهم، فإنهم يسعون إلى بلوغ صيغة أخرى لأنفسهم (لوبروتون،2007، 2013). آخرون يتولدون عن اللامبالاة بالذات عندما لا يعود طعم الحياة مجديا. إنهم شباب يطمحون مؤقتا أو بشكل دائم، إلى ألا يكونوا أحدا، من غير اسم، ضائعين في **البياض**، «بياض» الحياة، معفين من أي مسؤولية. إنه بحث عن

الغياب، ولعب بالموت، تعباً، وعناءً من أن يكون المرء ذاته. عند المراهقين، يشكل **البياض** نوعا من الاستسلام والتخلي عن الذات، ورغبة في محو طاولة حياة لم تعد هنا إلا بنوع من قوة الجذب. تتسبب اللامبالاة نحو الذات في تعرض النفس لخطر لا يُدرك على أنه كذلك، لأن الشاب لا يعود يطيق نفسه تماما. فليس هدفه هو الموت بقدر ما هو ألا يظل هنا، وأن يتحرر من شخصه، وألا يعود مضطرا إلى إسداء المعونة إليه. يشهد ذلك على استحالة أن يكون فردا، وأن ينخرط كذات فاعلة في حياتها.

في حديث كثير من الشباب، والمراهقين منهم على وجه الخصوص، تكون الموت المستهدفة من خلال محاولات الانتحار، نوعا من النوم الذي نصحو منه ذات يوم، وفترة تعليق، بله من التطهير، تخلص مما يعلق بالحياة من شوائب. بهذا المعنى فهي تقترب من الهروب، والبحث بعيدا عن مكان لاسترجاع الأنفاس. ليست الموت هي الموت، وإنما شكلا آخر من الاختفاء الهادئ لوقف المدّ العنيف للأفكار. «كنت أريد أن أنام»، «كنت أود أن تتوقف الأمور»، «كان يؤرقني كثيرا». صرحت لوسي 16 عاما، بعد إنعاشها عن طريق مجموعة من الأدوية، أنها لم تكن تنوي قتل نفسها، بل إنها تعترف بخوفها من الموت، وإنما أنها انساقت وراء رغبة لا تقاوم في الغيبوبة. كانت تود أن تبقى بين الحياة والموت، في نوم لا ينتهي. بعض الشباب يعبّرون بصريح العبارة عن هذه الرغبة في الغيبوبة. الاختفاء من غير موت نهائي. أن يظل المرء معلقا إلى ما لانهاية له. نوع من الكواليس حيث يجد الشاب السلام قبل إعادة

الاتصال مع ضرورات التمثيل. ليس الموت هنا هي أن يقتل المرء نفسه، بل أن يختفي خلف ستار على خشبة، قبل أن يعود نقيا طاهرا من كل اهتمام. الموت من خلال تحويل الأدوية التي تكمن قوتها في كونها تحث على النوم، ولكن مع الزيادة في الجرعات كي تكون أكثر فعالية.

هذا السعي نحو الموت يكشف عن أمور منها أنه أكثر الوسائل المستعملة عند المراهقين، وخصوصا الإناث، التي تحيل إلى سلوك سحري للقضاء على المعاناة بطريقة مباشرة. الأدوية نفسها التي يصفها الطبيب، هي التي تستعمل في محاولات الانتحار. وبالكيفية نفسها التي ينهجها الوالدان لمواجهة صعوباتهم الشخصية عن طريق الأدوية الكيماوية: المؤثرات العقلية، الخ. بحثا عن الجزيء السحري، وليس بمحاولة تغيير مسار حياتهم، فإن أبناءهم يتبعون استعمالا مراوغا للجزيئات الكيماوية. فهذه الأدوية المستعملة للتخفيف من آلام الحياة، تستخدم هنا لمعالجة الوجود بأكمله في انتظار سحري لحل المشاكل جميعها.

هذه الرغبة في النوم، هي في جزء كبير منها، شكل من أشكال النكوص، ورغبة في العودة إلى الطفولة، والتحرر من شدة التوتر المرتبط بكون الشاب يتقدم في العمر، وسيكون عليه أن يتحمل مسؤوليات جديدة. حينئذ تصبح إكراهات الهوية ثقيلة الحمل، فتتطلب استراحة رمزية. رغبة مؤقتة في المحو المؤقت، خصوصا عندما يلاقي الشاب صعوبة في بناء شخصيته. إلغاء الذات، وبحث

عن غيبوبة من دون إصرار مسبق، لكنها أمر مرغوب فيه باطنيا. موت غير قاس ونهائي، لكنه قابل للتراجع، وهو مكان خفض التوترات، بعبارة موجزة، هو موت من غير جثة نعود منها وقد بعثنا من جديد. لا ينصب القلق على الموت بقدر ما يهم ألا يكون الشاب هنا. إنه لا يتعلق بالقضاء على الذات، بقدر ما يتعلق بالحياة، والتخلص مما هو أدهى. كثير من أولئك الذين يموتون لا يكونون راغبين في ذلك. على خلاف الانتحار الذي يعني كبار السن، حيث يكون الشعور بمأساة الوجود أكثر وضوحا (لوبروتون، 2007).

السرعة على الطرقات، سواء في السيارة أو على عجلتين، سواء بالنسبة إلى المراهقين أو الذين يكبرونهم، هي كذلك طريقة للهروب من الذات. فالشخص الذي يقود بسرعة، سواء في الطريق الريفية، أو داخل المدن، يركز على اللحظة، وعلى العقبات التي يكون عليه التغلب عليها. إنه يغامر بحياته (وحياة الآخرين أساسا) في أدني شرود. هذا التركيز على اللحظة الحاضرة، يعفيه من كل ارتماء في المستقبل. ليس هناك زمان ماض ولا مستقبل. فكما يقول ميلان كونديرا (1995، 10) معلقا على سرعة راكب دراجة نارية «لا يمكنه أن يركز إلا على الثانية الحاضرة لرحلته، يتمسك بجزء ضئيل من الزمن مفصول عن الماضي وعن الحاضر، إنه منتزع من استمرارية الزمن(...) إنه في حالة نشوة» (10)، متحرر من جاذبية تاريخه الشخصي. حتى وإن كان ولا بد أن يعود إلى ذاته، في نهاية رحلته، لكنه في لحظة من اللحظات استطاع أن يهرب عن ذاته، ثم يعود إليها فيما بعد.

إن تقنيات التبييض هي محاولات للتخلص من الذات، هروبا من ضغوط هوية لا تطاق. واللعبة مع الموت هنا ليست محاولة لخلق المعنى بقدر ما هي لامبالاة للشخص بذاته، وهي تسجل لحظة انفصال نرجسية جذرية. يتخذ اختفاء الذات عن نفسها أشكالا متعددة أثناء المراهقة. وفي الوقت ذاته، وبكيفية مفارقة، فإنه يطمئن الشاب، وذلك لأنه سيدُ (أو أنه يظن نفسه كذلك) تجارب الإمّحاء التي يفرضها على نفسه. وهذه قد تكون مؤقتة في بعض الأحيان، وهي ترسم أشكالا من الانطواء لكي لا تكون ظاهرة للعيان. عواقبها المباشرة هي التأخر المدرسي، وما تلاقيه من الصعوبات القانونية والوضعية الهشة، فيما يتعلق بحركة السير على الطرقات، والافتضاح أمام الآخرين في حالة غيبوبة كحولية وسكر، الخ.

تيهان المكان، تيهان عن الذات

خلال الحياة العادية، يتحمل الشاب، مثله مثل أي فرد، سلسلة من المسؤوليات، فيحشر في الحياة الاجتماعية، فهو يحمل اسما، وله وجه، وهو ابن أو بنت، أخ أو أخت، ينخرط في الدراسة أو العمل. تدخل أفعاله وحركاته على الدوام في إطار مشترك، وعليه أن يقدم الحساب للآخرين عند مواجهة أيّ وضع من الأوضاع. يرفض بعض الشباب بذل مجهود لكي يحافظوا على الشخصية التي تتطلبها منهم الروابط الاجتماعية. عندما يرفض هؤلاء إكراهات الهوية، فإنهم يكفون عن الانتماء إلى سلالة وتراث وتاريخ، فينسلُّون، رمزيا أو فعليا، خارج الروابط الاجتماعية حيث تسند إليهم أدوار مع

المسؤوليات المترتبة عنها بفعل كونهم في رباط مع الآخرين. فينصرفون، ويخلفون مسارات غير واضحة المعالم من ورائهم. غالبا ما يكونون قد جربوا الهروب فيما قبل، إلا أن التيه، على العكس من ذلك، هو مغادرة جذرية للبيت العائلي، ورغبة في الانفصال. إنهم يطمحون إلى ألا يعودوا أي شخص، من غير اسم، ضائعين في الطرقات المجهولة أو الشوارع، متحررين من أي مسؤولية، رحالين بين فجوات الروابط الاجتماعية. الهروب نوع من الفقدان المؤقت للأدوار الخاصة بالحياة العائلية والاجتماعية، وطريقة للاختفاء لبضع ساعات أو لبضعة أيام. كثير من الشبان التائهين يكونون قد بدأوا بنوع من الهروب، إلا أنهم ملوا من ضرورة الصراع الدائم، ففقدوا السيطرة ولم يعودوا إلى بيوتهم. يضبط التيه مدة الهروب، وهو يعكس الرغبة في التخلص من حالة مدنية مؤلمة.

فحتى وإن كان محصورا في مجال ضيق من الحياة الاجتماعية، فإن الشاب يستهلك شيئا من **البياض**، صحيح أن هذا ليس هو الفراغ بالضبط، لأن المعنى يظل قائما، فلا يتعلق الأمر بالموت، وإنما بألا يعود هنا، حيث عليه أن يكون هو ذاتَه، وألا يشارك في الروابط الاجتماعية، مثل بارتلبي حديثين من خلال نوع من التحرر من كل مسؤولية. فكما لو أن المعاناة، بالتوقف عن الحركة، ترخي قبضتها، فتلغى الظروف المحيطة بفعل رغبة محو كل أثر لمصادرها. لكي لا يحس الشاب بقساوتها، يبتعد عن محيطه العائلي، ويتخفف من مجهود التمثيل الاجتماعي الذي كان يفرضه عليه. يكف عن المشاركة. فلا يعود له مركز ثقل، أو أنه لم يكن لديه قط. يحاول أن

يذوب في زحمة الشارع، ويتحلل في الفضاء، فيستعين من أجل ذلك بكثير من المؤثرات العقلية، بدءا بالكحول، وهي تشعره بأنه يطفو، ويتحلل من الإحساس بالهوية.

في بداية التيه، هناك في بعض الأحيان رغبة في النجاة من العنف العائلي، ومن أشكال الظلم، والاعتداء الجنسي، والنقص في المحبة، أو النجاة من الضربات. عندما ينظر إلى الشاب كعنصر مزعج ومصدر توتر، غالبا ما يطرد من الوسط العائلي على إثر صراعه مع واحد من والديه، أو زوج أمه، أو زوجة أبيه. فلا يعترف له الآخرون من حوله بشيء اللهم إلا من خلال الرفض. لم يتلق قط أي سند من أمه وأسرته يمكنه أن يعطيه الثقة في نفسه، والإحساس بتماسكه الشخصي، أو إن هذا التماسك يتم هدمه بشدة عن طريق مواقف الأب، أو زوج الأم، إزاءه. آخرون، وهم ذكور في الغالب، يحاولون أن ينأوا بأنفسهم عن شخصية أم قاسية على خلفية غياب رمزي أو فعلي للسلطة الأبوية في فترة من فترات حياتهم، حيث كانوا يحاولون الحصول على هوية خاصة. التيه هو محاولة لإيقاف الزمن، وذلك بضبط المكان. الزمان يتطلب دائما المستقبل، يقتضي مشاريع، إلا أنه لا يعمل من غير إحالة إلى أصل. والأصل أمر لا يحتمل بالنسبة للشاب، الذي هجر أسرته والحي الذي يعيش فيه، وأقرباءه، لكي يستبق اللايقين.

بكيفية أو بأخرى، هو يريد وضع حد لعدم ارتياحه في حياته، وفي بعض الأحيان، على مرأى من العلاج الذي يتلقاه في أسرته،

ذهابه فعل يتوخى الوقاية، إلا أنه قريب من التفاتة معذبة من حيث إنه يسلم نفسه للمجهول. ليس له أي مكان قادر أن يستقبله، أي أن يضمه، ويهدئ من روعه، ويجعله يحس بوجوده. بعيدا عن أسرته وعن المدرسة، وعن الثانوية، والجامعة أو عن العمل، فهو يعطي كل ما لديه للمكان، تدفعه نحوه، أحيانا، علاقة رومانسية مع الطرقات. لا يفتأ يهرب في جميع الاتجاهات، لكونه لم يتلق مساندة واحتواء. الذهاب بعيدا دون انقطاع هو وسيلة للتشبث بالمكان بهدف الاستمرار في الحياة. حينئذ تكون الطريق مكانا أقل ألما، حيث يكون مجهول الاسم، محكوما عليه بالمرور، بدون صفات بعينها. ليس لديه حساب يدفعه لأي كان. ولا يمكن التعرف عليه، اللهم إلا من خلال الأخبار التي يسربها هو.

فأن يسكن المرء الديمومة بكيفية ملائمة، أمر يتطلب منه أن يمتزج بتاريخه، وأن يقبل مواجهة التباس العالم. إن استحالة الإقامة في الزمان، مع تغذيته بالمشاريع، تفرض على الشاب أن يتشبث بالمكان متنقلا من محل إلى آخر. بالنسبة لهؤلاء الشباب، المكان هو وقف للديمومة، ذلك أنه إذا كان الزمان ينفلت من كل محاولة للسيطرة والضبط، ويدفع إلى مواجهة القلق على المستقبل، فإن المكان، الذي هو امتداد خالص، يخضع لسيادة الفرد. نعبره كما نشاء، من غير أن يفرض علينا وجهة لا محيد عنها. على خلاف الزمان. التيه يضفي على الزمان صبغة مكانية، لكي ينزع فتيل عدم تراجعه إلى خلف، ويبقيه تحت المراقبة. يتقدم الشاب كي لا يهوى ساقطا. من ثمة عدم التمكن من توقع تصرفاته، والصعوبة التي

يجدها المهتمون بالأعمال الاجتماعية، في أن يحددوا له موعدا. يقبله في الحين، لأنه يحيا في الزمن المباشر، إلا أن الوضع يتغير ساعات بعد ذلك، لقد حدثوه عن لعبة في مدينة أخرى، فها هو قد رحل، اللهم إلا إذا حال بينه وبين الذهاب أي ارتباك. تسنح الفرصة لرحلة أخرى، كإقامة في شارع آخر، أو انفصال قاس عن الأصدقاء القدامى.

يتحدث كل من ف.غولدبيرغ F. Goldberg وب.غوتون P. Gutton ، فيما يخص هؤلاء الشباب التائهين (الذين يشيخون وهم عاجزون عن الاستقرار في الزمان بأخذهم لمكانهم) عن إدمان المكان (1996، 59). إنهم يستهلكون الطرقات، ويحقنون أنفسهم بالمكان إلى ما لا نهاية له. الهوية المرتبطة بتاريخهم لا يطيقون حملها، ولامبالاة الشارع تؤدي بشكل متناقض إلى الإحساس بأقل ضعف. إنهم يعيشون تحت أنظار الآخرين، وهم يعرضون أنفسهم لنظرة الآخرين لكي لا يبوحوا بشيء. التيه كيفية لاستبعاد حياتهم الباطنية المعذبة. والإفراط في استثمار المكان يجنب الصعوبة التي تطرحها سكنى الأفكار الخاصة. مكانهم النفسي غير قابل للسكن، لذا فهو لا يغذِّي الإحساس بالانتماء إلى محل معين. إنهم ينتقلون من حي إلى حي، ومن محل إلى محل دون توقف، مأخوذين بزمان يتكون من مقاطع متتالية مرتبطة بالصدفة. إنهم يسقطون في المكان. الوجود في الانتقال وحده، يفرض عليك أن تقبع في قاعة انتظار. لم يجدوا مكانهم، فلم يكفوا عن إرجاء ميلادهم. يعيشون بين بين زمانا ومكانا، معلقين بين ذواتهم وبين الآخرين، من غير حياة

حميمية شخصية. هم مثل شخصية ب. أوستر P. Auster في **مدينة الزجاج** Cité de verre التي تكشف دوخة «أن يهجر المرء ذاته، مسلما نفسه لحركة الشوارع، متحولا إلى مجرد عين ترى، كان يمكنه أن يفلت من ضرورة التفكير، وهذا ما كان، أكثر من أي شيء آخر، يجلب له جزءا من السلام، وفراغا باطنيا مخلصا. كان هذا كل ما كان يطلبه من الأشياء: أن يكون في لامكان» (1987، 16). هناك أيضا طرق عامة للاختفاء.

نظرا لعدم ارتباطهم بسلالة، فقد محوا أصولهم، ارتباك مكاني متعمد زاد من حدة ارتباك شعورهم بالهوية. لقب أو اسم مستعار يخلد مجيئهم إلى عالم الشوارع. وهي طريقة لمحو الميلاد، والتوليد الذاتي في رفض أو نسيان لأولئك الذين جاؤوا بهم إلى الدنيا. جسدهم يتسم بوجود فائض لا مبرر له، وهو مضايق ومؤلم بسبب الأحداث السابقة، وبسبب نمط عيشهم، فهو لم يعد أصلا لشعورهم بالهوية. تفرض المنطقة تحمل البرد والجوع والازدحام وقلة النوم، وغياب النظافة، والكحول، والمخدرات، والمواد السامة، والعنف داخل الأحياء أو في الشوارع، والعلاقات الجنسية التي لا تتم دوما عن رضا، وغالبا من غير واقيات. معظم شبان الشارع من أكبر مستهلكي المخدرات (الكحول، الهيروين، الكوكايين، المؤثرات العقلية، الخ). تصرفاتهم الخطيرة تؤدي بهم إلى محاذاة الموت. آخرون، على الحدود، ينجرون شيئا فشيئا نحو إصابات ذهانية وعصبية، بسبب تناولهم المتكرر لتلك المواد من غير أن يعبؤوا بالعواقب.

بما أنهم عاجزون عن إيجاد مكان، فهم يسعون إلى الاختفاء بين ثنايا النسيج الاجتماعي، وألا يوجدوا إلا في الفجوات، وأن يظلوا في الممرات، حتى لا يضطروا إلى الاستقرار. وعندما يذهبون إلى حدود أنفسهم، تجنبا للكدمات، فإنهم يقتصرون على العيش على الحدود الداخلية للمدينة، حيث لا وجود لأي رابط. يملؤون مناطق المدينة العائمة اجتماعيا، حيث تسود المعاني المترددة، في انتظار، كما هو حالهم هم أنفسهم. هذه اللاأماكن المهجورة التي لا يمكث فيها أي كان، تصبح ملاجئ للضياع أو للقاء الذات، حسب الظروف. يقيمون في وسط الممرات، والشوارع والمقاعد... إنها رغبة في الضياع في ارتباك وفقدان للوجهة أو المرجعية الزمنية والمكانية، ولكن أيضا للهوية نفسها. إن هذا السعي الذي يملأ الفراغ باللجوء إلى ما لا يعد من السموم الممتزجة بالكحول، من غير رغبة في سكر أو بحث عن إحساس بعينه، هو أساسا سعي نحو الغياب. ومع ذلك، إذا كان الشعور بالهوية قد انحل في جزء منه، فإنه يخلف جسدا مليئا بالعلامات التي تسمح، بالرغم من ذلك، بتحديد الهوية، وهذه طريقة قصوى لكي يرسم الشاب لنفسه حدودا، وذلك بأن يقوم بتمييز الجلد بعلامات رمزية: تكثر الوشوم، والثقوب، والندوب التي تأتي لتغطي العيوب للأنا- الجلد. إنه تغليف للغياب تجنبا لغياب تام. الذكور هم الذين يجعلون من الشارع نمط عيش، أما الإناث فهن نادرات، ولا تسمحن بالاقتراب من التيه، فهن تكن فيه أكثر عرضة للمحن، وبصفة عامة فهن أكثر ميلا إلى قبول اقتراحات إعادة الإدماج.

هم قلة أولئك المتزوجون أو الأصدقاء الذي يقاومون المحن المتعددة للشارع. «الأصدقاء الشباب» يتجددون كل يوم، من خلال علاقات بلا سمك، لا تتأسس على ديمومة الزمان بقدر ما تتأسس على تواطؤ المكان المحكوم عليه بالزوال. بصرف النظر عن الحيوان الذي يصاحبونه في طريقهم، سند الهوية الذي يسد قليلا هويتهم والذي يجدون فيه أنفسهم. «لذا ينبغي استقبالهم بصحبة حيواناتهم، لأن وراء المطالبة العدوانية لا مكان للكلاب؟» يمكننا أن نرى مقدمات مطالبة أخرى (كيسيماند زوكا Quesemand Zucca، 2007، 43). فبالنسبة إلى البعض المنطقة تعتبر منطقة عدم استقبال، ودوس لا منته على العتبة، وبالنسبة لآخرين، فهي، على العكس من ذلك، مكان لتعديل الضغط قبل الرجوع للرابطة الاجتماعية.

بعضهم، بعيدا عن المراهقة، وقد ألقت بهم هنا تقلبات حكايتهم الشخصية، يعيشون في الشارع ماحين فيه وناسين هويتهم القديمة. إنهم يعيدون بناء ذواتهم في سياق آخر، فيحاولون أن يستمروا في العيش من خلال تدبير متحايل، ومن خلال مهارتهم في التعامل، فيلجؤون إلى بنيات تقديم الدعامة، وغالبا ما يكون ذلك، بعد مرورهم بمحنة يزداد طولها أو يقل، «فيندمجون من جديد» اجتماعيا، وقد يعثرون على عمل، وشقة. فهم لم يتخلوا تخليا مطلقا عن أنفسهم، فحاولوا مقاومة الانهيار، بعد أن كانوا، لفترة ما، قد انساقوا مع العداوة، فتمكنوا، عبر الزمان، من أن يتكيفوا مع الظروف القاسية للشارع، كي لا يتعرضون لها من جديد. إنهم

يستمرون في أن يكونوا هم الفاعلين في حياتهم، حتى إن اختاروا الإقامة في الشارع.

آخرون، بعدد أقل، لكنهم يصدرون عن روح **البياض** هذه، يتجذرون في الشارع، ويشيخون فيه، فيقطعون حبل الأواصر نهائيا مع الكيفية التي كانوا عليها فيما قبل. وغالبا ما يكونون قد فقدوا أوراق تعريفهم. وتناولهم الدائم للخمور يعمل بمثابة مخدر من أجل وضع معالم على مسار الزمن، ونسيان الساعات التي تمرّ. كما أنه يطمس الشعور بالذات، ويعزز لامبالاة متزايدة إزاء شخصهم. كلما مرت السنون، ازداد اختلاطهم بالشارع، وهم يكونون غائبين عن أنفسهم إلى حد أن أمراضهم وتجاويفهم لا تمسهم في شيء. إنهم يرون عن بعد، من غير أن يكونوا معنيين، أطرافهم المكسورة، أو التي أصابها تلف، وأمراضهم الجلدية، كما لو أن الألم قد أصاب جسدا آخر. صحيح أنهم يظلون هم صانعي وجودهم، كما يظلون بارعين في قدرتهم على البقاء إزاء كل شيء وضده، حتى وإن رفضوا في بعض الأحيان الرعاية الطبية التي تقدمها المصالح الاجتماعية. إلا أن جزءً منهم يظل كما لو كان غير معني. يستحضر ج. فورتوس في هذا الصدد «عرَضا من الأعراض المرضية لهؤلاء هو الإقصاء الذاتي من خلال اختفاء للقدرة على الفعل(..) إنه نفي للذات يتجلى بخفوت للأنا: يرفض الأنا معرفة أي شيء عن نفسه، مما يستوجب إنكارا، أي فك الارتباط بين جانب الإحساس وبين الفكر، واستحالة الأخذ النفسي بعين الاعتبار لواقعة أصابت الجسد، والوجود الجسدي» *(2008، 119-120)*. ما من شك في أنه،

بعيدا عن الإنكار، فهل يتعلق الأمر بنمط آخر للعلاقة مع الذات والعالم، ورغبة لكي لا ينغمس الفرد في واقع خارجي لم يعد يتعرف على نفسه فيه. يتحدث فورتوس Furtos أيضا عن «حالة الإضراب عن الذات الناتجة عن فقدان طعم الحياة» (2009، 43).

هذا الإمّحاء، والانسحاب لحياة خاصة، يجعلان الجسد اختياريا كمعطى يكون دوما هنا مادام الوضع البشري وضعا جسديا، إلا أنه جسد عار، غريب عن ذاته. يتخلص الفرد من ذاته، يهملها، لا يعود معنيا بها. فهو غالبا ما لا يطلب أي عناية طبية، وهو يحال على بياض جذري لم يختره، إلا أنه ينغمس فيه على مر الأيام. إنه لا يداوي لا أمراضه الجلدية (الالتهابات الفطرية، الأكزيما، والجرب) ولا الكسور والجروح والسل، ولا أمراض الأسنان، ومغاص المعدة... صحيح أن التناول الكمي للكحول يقوم بدور المسكن، لكنه يفقده شيئا فشيئا، القدرة على الإحساس بالألم، فلا يعود يحس بشيء من جراء نقص العناية وتوجيه الانتباه نحوه. في هذا السياق يترجم الاختفاء الذاتي بإهمال الجسد، وفقد كل نرجسية. لكي يعود إلى الإحساس بالألم، يكون عليه أن يعيد الربط مع وجوده، الأمر الذي يحصل في بعض الأحيان بعد لقاء غير متوقع، أو بعد زيارة لمستشفى، واعتراف بشخصه من طرف واحد أو أكثر من الطاقم الطبي *(لوبروتون، 2010)*. بعدها يعود الشخص ببطء إلى نفسه، ويستعيد ذاته، فيشعر بأن جسده له. ليس الاختفاء الذاتي قدرا، إذا ما ولدته ظروف بعينها، لكن ظروفا أخرى بإمكانها أن تلغيه، فيعود الفرد إلى العالم في شكل أكثر ملاءمة.

في قلب البياض

حتى وإن لم يكن كريس ماككاندليس Chris McCandless من التائهين، وإنما كان مسافرا في توقف، كان رمزا لذلك البحث عن اختفاء اتخذ في النهاية طريق البياض الثلجي، أي طريق عالم أملس، منتظم، طاهر، تلغى فيه المعالم. هذا الأمريكي الشاب المنحدر من أسرة ميسورة من الساحل الشرقي للولايات المتحدة، هاجر والديه خلال صيف 1990، من غير أن يخبرهما، وذلك بعد حصوله على شهادة نهاية دراساته. في هذه الفترة، أهدى ما وفره إلى جمعية خيرية، وترك سيارته، وكل ما يملكه تقريبا، وأحرق الأوراق النقدية الموجودة في محفظة جيبه. غيّر اسمه فأصبح يحمل اسم ألكسندر سوبيرترامب. ظل والداه يعتقدان أنه لا زال يتابع دروسه الجامعية في جامعة إيمري التي كان مسجلا فيها، إلا أنه كان بالفعل يعيش حياة متشرد، فيعمل على إخفاء مساره من خلفه. ارتبط بالتقليد العتيق للهوبو hobo والتشرد، للعامل المتجول، المتنقل من مدينة لأخرى، بوسائله الخاصة. كانت تحركه رغبة في العودة إلى فلسفة الحياة البسيطة للإصغاء إلى الطبيعة، وكان يريد أن يكون تلميذا لتورو الذي كان غالبا ما يعمل على ترديد أقواله أمام محدثيه. كان يكاتب أحيانا أخته، كما كان يكتب مذكراته. ربط علاقات صداقة قوية مع بعض الأشخاص الذين يلاقيهم. في بعض الأحيان كان يعمل بعض الأسابيع قبل أن يحمل من جديد حقيبة ظهره. بعد عامين من التجوال، انتقل إلى شمال جبل ماككينلي، في بياض الثلج. بعد مضي أربعة أشهر، وجد صيادو الأيائل جثته في بقايا سيارة

منزل متنقل كانت تستخدم أحيانا ملجأ لبعض الأشخاص الذين يغامرون بالتنقل في تلك الأماكن.

كتب الكاتب كراكاور J. Krakauer مقالا يخصه بعد أن اكتشفت جثته، إلا أن هذه الشخصية أخذت تطارده، لأنه عاش هو نفسه تجربة انفصال بالنهج نفسه، خرج منها سليما. كان كريس نده وصورة عنه، فلكي يفهم ذاته غامر ببحث طويل كي يعثر على الأشخاص الذين لاقاهم الشاب المتوفى عندما كان تائها. لم يعد كريس يتسامح إزاء الالتزامات الاجتماعية، والنفاق الذي كان يطبع، في نظره، كل العلاقات، بدءا بتلك التي كانت تربطه بوالديه. كتب إلى أخته كارين: «عندما يحين الوقت، وبعمل مفاجئ وسريع، سأطردهما نهائيا من حياتي. سأنفصل عنهما، من حيث هما والدي، إلى الأبد، ولن أوجه أي كلام إلى هذين الأبلهين ما دمت على قيد الحياة. سأنهي كل شيء معهما دفعة واحدة» (كراكاور Krakauer، 2008، 98). في الطريق، وبعيدا عن أن يرفض كل اتصال، تبين أنه منفتح، وحيوي، ومتطلع، إلا أنه يرفض التخلي عن المطلب الداخلي الذي يوجهه. ليس أليكس صارمًا رغم إصرار رغبته في التحلل من إكراهات الحضارة، والأحكام المسبقة، وأشكال الظلم، وعدم شفافية العلاقات الاجتماعية. التقى، على وجه الخصوص، برجل مسن، فرانز، وهو جندي سابق فقد زوجته وابنه الوحيد في حادثة سير سبّبه سائق شاحنة، معه تعلم صناعة الجلد، فصنع حزاما ووضع عليه علامة ترمز إلى المحن التي كابدها في رحلته. بعض أسابيع قبل تنقله إلى ألاسكا، كتب إلى فرانز: «جوهر الذهن

الحي لإنسان، هو شغفه بالمغامرة (...) لا تستقر في المكان نفسه. تنقل، وكن رحالة، وليمنحك كل يوم أفقا جديدا» (89).

يكتب داخل الحافلة التي لقي فيها حتفه، على قطعة خشب: «منذ عامين، كان يمشي على الأرض. لا هاتف، ولا مسبح، ولا حيوانات، ولا رفيق، ولا سجائر. إنها أقصى درجات الحرية. متطرف. مسافر بيته الطريق(...). الآن، بعد مرور عامين من التجوال، إنها المغامرة الأخيرة، أعظم المغامرات. المعركة الحاسمة للقضاء على الكائن الزائف الذي يسكن بداخلي، والخروج منتصرا من الحج الروحي(...) لن يجرع بعد سم الحضارة التي يهرب منها، وهو يمشي وحيدا كي يذهب نحو الطبيعة» (230). يمحو أليكس ذاتيته لصالح محايد، ضمير للمجهول: «هو». إنها رغبة في التقليب، والانغماس في البرية wilderness ، في رفض المصالح والإكراهات التي تفرضها الحضارة.

لكي يبقى حيا في ألسكا يقرأ كتبا حول النباتات الصالحة للأكل، يسأل الصيادين عن طرق مطاردة الحيوانات وتجفيف اللحم للحفاظ عليه. بعد أن بلغ مكان أحلامه، عثر على هيكل حافلة قديمة، فجعل منها محل إقامته. إلا أن مواجهته للبرية ستخيب آماله، اتضح أنه غير كفء لمطاردة الوحيش والحفاظ عليه. لا يمكن ارتجال البقاء في هذه الظروف القاسية. كان أليكس يرغب قطع مساحات طاهرة خالية من البشر لكي يختبر ذاته ويستعيد ما يدعوه طهارة الطبيعة ونقاوتها. كتب كراكاورJ. Krakauer: سنة

1992، لم تتبق أي نقطة بيضاء على الخريطة، لا في ألسكا ولا خارجا عنها. حينئذ عثر كريس، وفق منطقه الخاص، على حل أنيق: ألغى الخريطة ذاتها، بكل بساطة. وهكذا، ففي ذهنه إذن ستبقى الأرض مجهولة، وليس في أي شيء آخر» (2008، 243). بعد أن أصيب بمرض خطير، على إثر تناول عشب ضار اعتقد أنه عشب آخر، أصبح شديد الضعف، فنال منه السم شيئا فشيئا، ولم يعد قادرا على التغذية، عاجزا عن مغادرة حافلته حيث كان يشعر بقرب أجله الوشيك، في صورة رسالة ملصقة على نافذة الحافلة، يناشد من قد يكون مارا من الصيادين أن يوقعها باسم كريس كاندليس. أخذ آخر صورة له، وإحدى يديه مرفوعة علامة على وداعه، وهو يبتسم. في الأيام الأخيرة لرحلته، ودع كريس ألكس وتاق إلى العودة إلى العالم المتحضر، إلا أن عدم معرفته بالبرية قد انتصر عليه. اختفى في **البياض** من غير رجعة.

الانزلاق في لانهائية الافتراضي

صحيح أن الإمّحاء إن ظل تحت الرقابة، فهو يكون أيضا شكلا من أشكال اللذة، من حيث إنه يخفف من ثقل الأنا. طريقة بسيطة للتحلل من إكراهات الهوية تتمثل في المحادثات أو المنصات، وألعاب الفيديو عبر الأنترنيت، والعوالم الموازية للشبكة العنكبوتية وذلك بمضاعفة

الألقاب أو الصور الرمزية. تعمل الشبكة على تحريف أوجه الفرد، فهي تنفع في ألعاب الهوية من حيث إنه لا يكون من اللازم

أن نقدم الأدلة على صدق الشخص الذي صرحنا أننا إياه. إن اختفاء الوجه، بله الصوت هو شرط مثالي لاختفاء الذات في ظل الصورة الرمزية، أو المشابهة، مادام التعرف على الذات مستحيلا. لذا فإن تبادل الأسرار والتنكرات تطلق لنفسها العنان من غير تخوّف من أي صدمة ترتد على الحياة الواقعية (على الأقل بالنسبة إلى الذين يقيسون الحذر في هذا الصدد). على الشبكة «أنا ما أقوله إنني أنا» ما لم تكن هناك كاميرا تمنع أي تفويض للمظاهر. ينحل الفرد إلى عديد من الوصلات والهويات المحتملة. خشبة المسرح الشاسعة هذه، حيث لا أحد يتحكم في الكواليس، وحيث يكون الكلام غير قابل للتمحيص، تسمح بكل أشكال الخيالات والأوهام. بما أنها تقدم نفسها في شكل لامكان، فإنها تضمها جميعا. فيها تلتئم الأوهام عن الذات التي ينطوي عليها الفرد جميعها. بعيدا عن إكراهات التواصل العادي حيث نخضع لأدوار اجتماعية راسخة ومستقرة، ومؤسسة على الثقة بالمعلومات المعطاة، وحيث نكون وجها لوجه مع الآخر، ونعرض عليه وجهنا للتعرف عليه، فإن هذه الأشكال اللامادية التي لا وجه لها، هي فضاءات تتيح الفرصة للفكر بكل قوته (لوبروتون، 2006). على الشبكة، يمكن للمرء أن يكون أي شخص يريد، بل يمكنه أن يضاعف من أشكال الشخصيات التي يمكنه أن يكونها. عليه فقط عدم الكشف عن هويته، ويحتفظ على اسم المجهول. وإذا لم يعط مستخدم الشبكة أمارات من شأنها أن تورطه، فإنه لا يقدم نفسه في شكل صيغته الاجتماعية في سياق بعينه، فيتحرر من كل الحدود. تؤدي الشبكة إلى «اتصال طيفي»

(غيوم، 1989، 18 وما يليها)، خصوصا وأنه حتى إذا كان الشاب يبدو حاضرا في تفاعل افتراضي، فلا أحد يعلم إذا ما كان حاضرا في جهات أخرى في الوقت ذاته. ليس الافتراضي عدما، وإنما هو بالأولى، غياب عن عالم العلاقات الاجتماعية المجاورة لصالح العلاقات الرقمية، وبالتالي فهو من غير صوت ولا وجه. في حياة ثانية على سبيل المثال، الفرد المعزول في غرفته، يمكنه أن يدخل في نقاش ساخن مع مجموعة مكونة من مهندس من طوكيو، وعاطل من برلين، ومراهقة من أوسلو ومن تقني من فانكوفر، حتى وإن كان يجهل ما إذا كانوا ذكورا أم إناثا، وما سنهم وحرفتهم، وهو مجبر على الاكتفاء بما يقوله كل واحد منهم عن نفسه. من ناحية أخرى، فهو يهمل علاقات العالم المحيط به، فيعيش هاربا مما تعينه هويته الاجتماعية كابن أو كبنت، كتلميذ أو طالب، كرفيق أو كأب أو أم، فهو يوجد خارجا بصفة مؤقتة، غارقا في عالم ليس عليه أن يقدم فيه أي حساب، بل فقط أن يتحمل الهوية التي اختارها بمصداقية تزداد أو تقل.

يعج العالم الخيالي للمراهقين بالصور الرمزية الباطنية: فالشخوص المتعددة والمؤقتة التي يبنونها أو يتخيلونها حول شخصهم، والتي تلتقي بالصور الرمزية للعالم الافتراضي الذي تحدده أو تعطيه مظهرا شبه واقعي لأنها تعاش كندّ للذات في بعض الأحيان. إن الشاب، عندما يتقمص شخصية خيالية يصنعها صنعا، فإنه يهجر ذاته ويتحرر من هويته وجسده لكي يعيش نوعا من النشوة. وهو يكون بكليته، من الناحية العاطفية، في مغامرات هذه

الحياة الثانية للعبته في الفيديو، جميع أشكال انخراطه في محيطه تكون منفصلة، وهو لا يعود يقدم لمن يحيطون به إلا مظهرا من مظاهره، و«حياته الحقيقية توجد خارجا»، إنها مؤقتا على الخشبة الافتراضية التي تعطي لأفكاره نوعا من القدرة المطلقة. الصورة الرمزية نشوة خارج تفاهة الأيام، إنها هروب من الذات. في الحياة الثانية، يتحكم مستخدم الشبكة أخيرا في ما ينزلق بين أصابعه، في الحياة الواقعية، يكون حرا في حركاته، ولا يعود الجسد حدا، ولا المكان، ولا حتى الزمان، يمكنه أن يعيش مواقف لا حصر لها من غير كمين، ولا صدام مع واقعه اليومي. يمكنه تكوين صداقات، ومقابلة عديد من المحاورين، والقيام بالمشتريات التي يشاء، وبناء بيته، وتشكيل غرفه، واتخاذ قرار في شأن المفروشات، وقضاء حياة جنسية بلا حدود، ومن غير نظرات الآخرين، ودون مغادرة الغرفة. يحرر تعدد الصور الرمزية حدود الهوية الاجتماعية، وهو يسمح بالهروب من الذاتية في سلسلة من الشخوص، مع البقاء سيد العملية. مع هذه السهولة التي يتمتع بها مستخدم الشبكة في أن يتخلص في أي لحظة ما إن يمل أو يريد العودة إلى شيء آخر. الصورة الرمزية لا التزام لها، أو مسؤولية، إنها من خلق الحياة الحميمية. تسمح العوالم الافتراضية لمستخدميها أن يعبروا كما يشاؤون مساحات شاسعة، من غير أن يكون عليهم دفع الحساب.

إن الشبكات الاجتماعية أو العوالم الافتراضية وألعاب الفيديو، كلها تسمح بتوليد صور مضاعفة للذات من خلال محو جسد محدَّد الجنس، لا يمكن التعرف عليه، جسد غريب عن ذاته ومحفوف

بالتهديدات بالنسبة لعديد من المراهقين، ولكن أيضا بالنسبة للرجال والنساء الذين لا يتلاءمون مع محيطهم. إلا أن صورهم الرمزية تعيش مواقف لا تحصى قد لا تسمح بها الحياة الواقعية بأن ترغمها على نزع القناع وتبني هويتها. بما أنهم منفصلون، لكنهم يعيشون انفعالات التبادلات، فإنهم ينسحبون من حياتهم الشخصية، التي لا تكون مرموقة بالدرجة نفسها، من غير أن يهابوا ردود الفعل الممكنة[6]، مادام مخاطبوهم يجهلون هويتهم الحقيقية، فيعيشون نوعا من تفويض صورهم الرمزية. إن العلاقة التي تقام مع عالم ألعاب الفيديو، أو مع الافتراضي، تحت رعاية الغمر (كولومب، 2010، 38 وما بعدها)، أي تحت رعاية اختفاء الذاتية من الحياة العادية لصالح عالم آخر يتحكم المستخدم في معطياته مع هامش من اللايقين الذي لا يفتأ يثير مسرة انخراطه. يمارس الافتراضي تأثيرا مخدرا فيما يتعلق بالرابط الاجتماعي القائم على جهات الاتصال، فهو يحرر من الجسد، ويخلص من كل المسؤوليات المرتبطة بوضعه المتفرد كشخص، وهو يقيم عالما لوحده خاصا به، خاضعا للقواعد الخاصة به. من هنا تلك النشوة، وذلك الانحلال للذات في عالم مفرط في الاستثمارات يمحو مؤقتا المحيط الاجتماعي. يصيب المشاركَ ذهول، خصوصا وأنه ينسى أثناء اللعبة

---

(6) من ناحية أخرى، لا يقيس بعض المراهقين المخاطر التي قد يتعرضون إليها على الشبكة، عندما يكشفون عن أنفسهم، أو يعطون رقم هاتفهم أو عنوانهم الإلكتروني لأشخاص مجهولين، فهم يتعرضون إلى المعاناة في الشبكة لكونهم بالغوا في الثقة في الآخرين (كوسلان، 2012، 89 وما يليها). حينئذ، يصبح الاختفاء السعيد في عالم المعلوميات مهددا بصحوة قاسية.

شخصَه الاجتماعي، فيبتعد عن كل انتباه، وكل ارتباط نحوه. إنه ينساق كليا في أعماله، وإذا كان المرء سيد عالم اختزل إلى امتداد للذات صِيغ من طرف حامل تقني، فإن العودة إلى حالة التبعية التي يفرضها الرابط الاجتماعي ليس أمرا مرضيا على الدوام. من هنا صعوبة الخروج من نشوة اللعب والاندفاع للعودة إليه. في الفضاء السيبراني، كون المرء عديم الوجه والصوت (اللهم إلا في حالة استعمال كاميرا الويب) أمر يسمح بكل شيء، فالفرد يصبح ما يشاء، في الوقت الذي يريد. تلك حال ذلك الشاب الذي يملك حوالي عشر هويات افتراضية من أجل أن يفلت من وجوده الفعلي، والذي يقول بكل هدوء إنه يرفض أن يفضل هويته «مع جسد» لا يطيقه. بهذا المعنى، فإن الفضاء السيبراني يعزز **البياض**، لكن، وعند مستخدم الشبكة، مع العودة إلى الحياة الواقعية من غير خسارة، اللهم إلا في أشكال الإدمان السيبراني. يمكن لارتياد الشبكة أن يصبح نشوة طويلة الأمد حيث يتجرد المراهق من العالم الخارجي، وينزلق في نوع من حياة أخرى تذيب كل اهتمامه بالآخرين من حوله أو كل نشاط آخر. بما أن المراهق متحرر من جسده، فهو يكون لامباليا بما يدور حوله، متمنّعا على محيطه. فيما وراء الشاشة والتحكم الذي يمارسه عليها، يبدو له باقي العالم فارغا عديم المعنى. تمتصه الحياة الثانية second life من خلال السيناريوهات التي له، والقناع الذي يقترضه بشكل مؤقت من غرفة ملابسه الخاصة. هذه الصيغ المتعددة لذاته تلقى المصادقة عليها عند الآخرين الذين لا يلتقون به أبدا، لكنهم يصادقون على إخراجه،

لأنهم كلهم، ينتمون إلى المنطق نفسه، وينتظرون الموقف المتلقي ذاته. هذه الصور الذهنية، وهذا المسرح الباطني، أداة من أجل بناء الذات، واتخاذ القرار بالنسبة للشخص الذي يكونه من خلال تجريب مختلف الإمكانيات إلى أن يبلغ تلك التي يتحقق تفتحه فيها أكثر من غيرها. إلا أن الشاب يمكنه أن يرفض العودة إلى واقعية العلاقات الاجتماعية، فيغلق على نفسه داخل عالم افتراضي يقيه محنة الروابط الاجتماعية.

كثير من مستخدمي الشبكة، والمراهقين منهم على وجه الخصوص، يرتبطون بصورهم الرمزية كما لو كانت أناهم الأخرى أكثر حيوية منهم، فيجربون من خلالها، أشكالا من الحياة الاجتماعية، والجنسية ما تزال ترعبهم في حياتهم الواقعية. لدى الشاب بوجه خاص، شعور بأنه يتحكم في تمثل شخصه أكثر من ذلك الذي يقدمه جسديا إلى الآخرين من حوله والذي لا يجد نفسه فيه. بهذا المعنى، فإن الصور الرمزية سيف ذو حدين، فبالنسبة للبعض هي مكان للتجريب، والاكتشاف، ومجرد أداة ترفيهية، أما عند الآخرين، فهي حمى وملجأ وانغلاق في الذات خوفا من محنة العالم المحيط. استثمار الصورة الرمزية يؤدي إلى إخفاء حياة شخصية غير مُرضية. وإسقاط الأنا على الصورة الرمزية يطبع جزءًا من الأنا المتجسد. إلا أن هذا الوضع المريح يدفع البعض إلى أن يجدوا أخيرا معنى لوجودهم، وإلى ألا يهجروا العالم الافتراضي بعد الآن، لأنه حررهم من نظرة الآخرين، ومن نواقصهم. «على الشبكة، أكون ما أنا عليه، لا تكون لجسدي أهمية. أصير أخيرا أنا،

فلا أحد يحكم عليك. يمكنني تقريبا أن أفعل أي شيء» (جيروم، 15 سنة).

وهكذا يدرك البعض ذواتهم على هذا النحو في لعبة الخيال، وفي انفصالهم عن الحياة الشخصية والعائلية والمدرسية، يغلقون على أنفسهم غرفهم، أو لا يغادرونها إلا نادرا، لا تعود لهم روابط اجتماعية إلا افتراضا. يسقطون في الغياب، لكن الغياب يكون بالنسبة إليهم منعشا ومثيرا. يعجزون عن التخلي عن المرآة التي لا ينفكون ينقبون فيها عن اختفائهم.

بالنسبة إلى غالبية مستخدمي الشبكة يكون التفكك معطى يوميا عاديا، وخاصة بالنسبة للمراهقين، ما دام يعطي نفسه تقنيا بكل سهولة. فالسماعات على الأذنين تفصل عن المحيط الخارجي، وترمي بالمراهق في عالمه الباطني. وبالمثل، فإن الهاتف المحمول الذي لا ينفك يُسأل طيلة اليوم، والذي يسمح للمراهق بأن يكون، في الوقت ذاته، هنا وفي مكان آخر، ويمكنه من استغلال ظروف الحياة العائلية من غير أن يخضع لها، أو من شاشات ألعاب الفيديو أو الحواسيب التي تمكنه من وسائل اقتحام مرآة الروابط الاجتماعية لكي يجد نفسه في مكان آخر محررا من جميع الإكراهات التي تلزمه بالتواجد أمام الآخرين. إلا أن هذه الوسائل تحقق، بالرغم من كل شيء، حدا اجتماعيا أدنى من الانخراط يطمئِن الوالدين أو أقرباءهم.

هيكيكوموري

خلافا للأجيال التي عاشت قبل سنوات السبعينيات، فإن الشباب الياباني يحيون اليوم في ظروف اجتماعية مواتية، إذ لم تعد التضحية أمرا ضروريا. ولم يعد عليهم أن يصارعوا من أجل أن يبقوا ويعيدوا بناء البلاد بعد كارثة الحرب العالمية الثانية، فهم يستفيدون من ظروف عيش مريحة. ومن ناحية أخرى، فهم شباب يخضعون لمنافسة شديدة، يجدون، في بعض الأحيان، صعوبة في ملاحقة هذا السباق اللانهائي من أجل النجاح. المدرسة الإعدادية أو الثانوية اليوم هي أماكن يجرب فيها الشاب كونه فردا. يتم تشجيع التلاميذ على «القتال من أجل مستقبلهم لكي يكونوا هم الأفضل». وعليهم أن ينجحوا في المدرسة «من أجل أن ينجحوا في الحياة». وهكذا يكون كل تلميذ معبأ بكيفية دائمة لكي يكون في المستوى. تبدأ هذه المسؤولية في وقت مبكر، وهي تمتد بلا نهاية، إلا أن سنوات الانتقال من الطفولة إلى سن الرجولة أو سن السيدات، هي سنوات يُحث فيها بصفة خاصة على البقاء في المنافسة لكي لا يسبقهم الآخرون. لم تعد المدرسة ملجأ محميا من قيم المجتمع الليبرالي. في اليابان خاصة، ومنذ سنوات السبعينيات واقتحام مجتمع رخاء نسبي، أصبحت المدرسة موضع استثمار قوي بالنسبة للتلاميذ ة وأولياء أمورهم. بالإضافة إلى الدروس، يتابع عديد من التلاميذ تعليما خاصا لكي يكونوا في أعلى مستوى. النجاح المدرسي ضروري للحصول على مرتبة اجتماعية جيدة. تُرتّب الإعدادیات والثانويات اليابانية في التسلسل الهرمي للتميّز بناء على نتائجها. يتم

التقييم على مستوى وطني، لذا فإن التلاميذ لا يمكنهم التقدم للدخول إلى مؤسسة جيدة إلا إذا سمح لهم مستواهم بذلك.

اقترح طبيب نفساني ياباني لفظ كاروجي karÔji قياسا على لفظ كاروشي karÔshi (الذي يعني الموت المفاجئ نتيجة إرهاق) وجيji تعني الطفل: «يتعلق الأمر بتدريب الطفل على فن قتل النفس أثناء الدراسة، كي يظل يقتل نفسه عند العمل حينما يحين وقت ذلك» *(جوليفي Jolivet، 2002، 43)*. وبالفعل، عند نهاية السبعينيات، كانت عبارة «الشبيبة المؤجّلة» (moratorium ningen) تطلق على الشباب الذين كانوا يبقون في حضن الأسرة غارقين في دراساتهم لكي يؤجلوا ولوجهم لعالم الشغل (برال Barral، 1999، 36). وقد اعترف شاب كان غارقا في هذا التوتر اللامتناهي، بأنه انهار كما لو أنه أصبح «عديم الإحساس مثل دمية شمع» ثم تابع: «كان الأمر كأنني قد قضي عليّ فجأة. كان يراودني الانطباع بأن شيئا في داخلي قد أهلك بالكامل. لم أتمكن من الخروج من تلك الحال. فكما لو أنني أفرغت من جوهري» (ذكره جوليفي، 2002، 49). إن كثافة الدروس، والتمارين الرياضية، وقلة النوم أو الراحة، وأحيانا العنف الذي يمارسه بعض التلاميذ ضد آخرين، كل ذلك يؤدي بعديد من التلاميذ إلى فقدان الرغبة، إلى طوكو كيوهي tÔkÔ kyohi (أعراض رفض المدرسة). الإحالة إلى المجموعة ضرورة بالنسبة إلى الياباني الذي لا يوجد أساسا إلا من خلال سلسلة من العلائق خاصة بوسطه العائلي أو المهني. واللغة اليابانية نفسها تكيف صياغة «الأنا» وفقا لنوعية المحاور.

ينغمس الفرد في المجموعة، ويمتزج معها بسلاسة. يفسر محلل نفسي ياباني هذا بقوله إن أكثر الاضطرابات التي يعاني منها مرضاه ترجع إلى ميلهم إلى إخفاء تفردهم عن الآخرين، أو على العكس، إلى سعيهم إلى التخلص منهم جذريا (برال Barral، 1999، 181).

عند ولوج الجامعة، وبعد منافسة شرسة، وبعد أن يضمنوا شغلا، يسمح بعض الطلبة لأنفسهم أن ينساقوا وراء الأحداث. لم يعودوا في وضعية مدينين، وإنما هم منغمسون في تلك العاطفة التي يدعوها اليابانيون أماي amae (دوا Doi، 1999 ، 181) حيث يستسلم المرء إلى التوقف على الغير، في هدوء واطمئنان، ويسلم نفسه للآخرين دون منح أي شيء في المقابل. وإذا كانت الأغلبية تواصل بذل المجهود المطلوب لمتابعة الدراسة، أو الانخراط في مهنة، فإن آخرين يستسلمون إلى لامبالاة تؤدي بهم إلى مقاطعة الدراسة، أو إلى مقاطعة جزئية. وهو اضطراب يدعى باليابانية «مرض شهر مايو» (جوليفي، 2010، 23)، لأنه يبدأ في الأسابيع الأولى للدراسة بعد الدخول في منتصف شهر أبريل. يشير جوليفي C. Jolivet (2010، 100) إلى الأهمية العددية لهؤلاء المراهقين أو الشباب الذين يراوح عددهم اليوم نحو 500000 ، وهم يسمون في الولايات المتحدة :

NEET (non currently) engaged in employment, educationor training.

وفي اليابان يدعون nîto وهم يقاطعون المدرسة، لا عمل لهم ولا

آفاق.

حتى بعد دراستهم، وبعد أن يكونوا قد بذلوا كل هذه المجهودات حتى ينجحوا، يلج البعض منهم عالم الشغل، إلا أنهم سرعان ما يتخلون عن التزامهم، كي يعيشوا نوعا من التعليق الاجتماعي، ويكتفون أحيانا بأعمال بسيطة الأهمية راضين بالقليل، مثل عديد من شخوص روايات هاروكي موراكامي (Haruki Murakami) أو قصصه، التي تبدو هويتهم في بعض الأحيان لا قيمة لها وضعيفة ومفككة، مع إرادة لا تتعدى اللحظة، وغير مكترثة بالارتماء في المستقبل رغم طلبات محيطهم الذي ينتهي بأن يمل.

في اليابان على وجه الخصوص، هناك مراهقون وشباب ناضجون يقررون الانقطاع عن العالم. وهم يرفضون كل اتصال مع الخارج، فيضعون أنفسهم خارج الدائرة بأن ينغلقوا في إحدى غرف منزل الوالدين، أو بألا يغادروا قط شقتهم. يبتعدون عن هزات العالم، ويتخلون عن هموم الإنجازات المدرسية، والانخراط في الشغل، بل وحتى الضروريات الأساسية للحياة الاجتماعية. يختارون نوعا من التوحد بأن ينغلقوا في عالم باطني لا تربطه بالعلاقات الاجتماعية أي صلة، اللهم إلا عبر الشاشة. إنهم يشعرون بأنهم أعطوا كل شيء، وأنهم صرفوا كل طاقتهم، وأنهم أفرغوا من جوهرهم. فأن يظلوا رهن إشارة الآخرين، وأن يخرجوا من بيوتهم، لقضاء المهمات الضرورية للوجود في أحضان الروابط

الاجتماعية، كل ذلك يتطلب توترا يشعرون أنهم لم يعودوا قادرين عليه. الأحداث من حولهم لم يعد لها من تأثير عليهم، وأسرهم لا تعنيهم، حتى وإن لاحظوا معاناة أقربائهم. إنهم خارج تدفق المعلومات التي تهز العالم بعيدا عن عالمهم الصغير. أحيانا، لا يتمكن والداهم من اقتحام غرفهم، فيدَعون صحن الغذاء عند الباب. هي فترة انسحاب قد تطول وقد تقصر. يبلغ عدد هؤلاء نحو 250000، أغلبهم ذكور. إلا أن هذا الانسحاب خارج الروابط الاجتماعية، وهذا الانطواء على الذات، يمتد خارج اليابان، وهو يمس بلدانا أخرى عديدة.

يقضي هؤلاء المراهقون أو الشباب الناضج يومهم أمام التلفزيون، أو وحدة التحكم في الألعاب مهملين ما تبقى. وهم يكثرون من النوم، ويقضون حياة بعيدة عن التنقل، متمركزة حول شخصهم من خلال حاسوبهم. لا ينفكون يحاورون آخرين لا يعرفون وجوههم، لأنهم يرفضون كل مواجهة، تجنبا للقاء. أجسادهم لا توجد إلا بشكل افتراضي. وهم يعيشون مثل الرهبان محاطين بأقوى الآلات التكنولوجية التي يجري العمل بها اليوم. أحيانا، وبعد سنوات من النسك الباطني، يعودون إلى الروابط الاجتماعية، ويبذلون جهدهم لتدارك تأخرهم المدرسي أو للبحث عن عمل. في هذه الحالة لا يكون **البياض** إلا مجرد وقفة لإعادة بناء الذات.

في نمط آخر، الأوتاكو (otaku) هم أيضا شباب منسحبون عن

العالم، ومنغلقون في فقاعاتهم. وهم يبذلون جهدهم للتواصل مع محيطهم، وهم لا يعترف بهم داخل مجتمعهم، وينغلقون في غرفهم لكي يصبوا اهتمامهم على شغفهم بالتماثيل، ولعب الأطفال، والحواسيب، وألعاب الفيديو، والرسوم المتحركة، والمانجا، أو موضوعات أخرى تحشد جزءا أساسيا من علاقتهم بالعالم، اعتبارا بأن الباقي أمر تافه. وهم يعلمون أنها انشغالات يراها الآخرون تافهة صبيانية، لكنها وحدها هي التي تعطي وجودهم كثافة وشدة. لفظ أوتاكو في اللغة اليابانية له معنيان مختلطان: فكرة البيت والإشارة إلى مخاطبة بصيغة الجمع دلالة على رغبة في استبعاد الآخرين *(بارال، 1999، 26)*. الأوتاكو يظهرون اختفاء مراقبا للذات، فهم لا يرفضون العالم رفضا تاما، وإنما يكتفون بأن يرسموا عليه طريقا شخصيا، بعيدا عن القيم المشتركة. لكنهم، يُبقون مع ذلك على اعتراف المجموعات الصغيرة الموالية لأهوائهم، حتى ولو أنهم مرفوضون من طرف محيطهم المباشر، أو أنهم ينظر إليهم كمتخلفين عن الركب، وتافهين. ينصب استثمارهم على موضوعات تعتبر اجتماعيا موضوعات تافهة، لا تستحق اهتماما حصريا. وبما هم نساك المناطق الحضرية، فإنهم يجسدون أعراض جمود منظومة التعليم في المجتمع الياباني التي صُممت من أجل الشباب كافة من غير انتباه للخصائص الفردية. يحكي و. بارال على وجه الخصوص قصة هيروكي الذي يبلغ خمسة وثلاثين عاما، وهو خريج كلية الطب في طوكيو. ومع ذلك، فهذا الرجل الوحيد، يقضي أيامه في بناء نماذج طائرات وغواصات. وهو يعترف، بكل

هدوء، أنه ليس ذا قيمة بالنسبة إلى المجتمع الياباني، باعتبار أنه لا يتوفر لا على بطاقة عمل، ولا على بطاقة ائتمان. عندما كان طفلا دفعته أمه نحو النجاح، وهي التي كانت تود أن تراه طبيبا. قضى حياته المدرسية في الحفظ، ومتابعة الدروس الإضافية، وتهيئ الامتحانات والمباريات من غير أن يتبقى لديه وقت لنفسه. اجتاز امتحانات نهاية الدراسات، فأصبح طبيبا، لكن، بدل أن يمارس الطب مثل زملائه، ويكسب عيشه بشكل مريح، قطع مع ماضيه نهائيا. لم يعش طفولته ولا مراهقته، لقد قضى كل وقته من أجل تحقيق النجاح المدرسي. الآن وقد صار رجلا ناضجا، اكتشف بغتة ألعاب الماضي التي لم يعمل إلا على لمح شيء منها، فشعر بنوع من الإشراق أمام النماذج المصغرة التي فطم منها عندما كان طفلا. لذا، ومنذ وقتها، أخذ ينغمس فيها بابتهاج *(بارال، 1999، 41 وما يليها)*.

الاختفاء في الآخر

وجه آخر للاختفاء يتم في الانخراط ضمن طائفة ما، أو في تطرف ديني ما. ففي مجتمعاتنا الغربية، يجد الاعتقاد تحققه على مستوى الفرد، وينتشر البريكولاج داخل مساحات التسوّق الشاسعة للعروض الروحية، وغالبا ما يكون على غرار نغمة العصر الجديد (new age). ففيها يجد الشباب الباحث عن معنى أجوبة لوجوده في لحظة معينة، أو بشكل دائم أحيانا. ويشكل الانخراط تخلصا من ضغوط الهوية، وانسحابا داخل الآخر. وتنقطع الطائفة

(أو الجماعة المتطرفة على مستوى آخر) عن العالم، فتفسح مجالا خاصا للتعالي المعلن ذاتيا بهدف النأي جغرافيا أو رمزيا عن إنسانية مدنسة، بعيدا عن الورع وعن التقوى، أو أنها لا تعي ذاتها بذاتها. بيقينياتها المطمئنة المطروحة كحقائق غير ملموسة، وترابيتها الجامدة، تستبعد التعقيد اللانهائي للعالم. إنها تريد أن تكون شاملة إن لم تكن ديكتاتورية في الواقع. وهي تختزل العالم اختزالا شديدا حول بعض الحقائق الأولية والطرق الخاصة في العمل. إنها تعطي في النهاية توجيها معينا.

يحدث انخراط الشاب في الغالب إثر أزمة مع الأسرة، وبهدف النأي لإيجاد مكان آخر بعيدا عنها للاطمئنان. خلال أوقات الأزمة والفشل المدرسي أو الجامعي، وخلال فترة البطالة والانفصال، أو تفاديا لتعذر إضفاء الشاب قيمة على وجوده، هي كلها أسباب تنذر بالانسحاب مؤقتا. لكن الشاب لا يقرر إلا بالنسبة إلى الخطوات الأولى فحسب، لأن الوضع غالبا ما ينفلت منه بعد ذلك. يتراوح عمر مريدي الطائفات، أو الجماعات المتطرفة في الغالب ما بين ثماني عشر وخمس وعشرين سنة، فهم لا يحققون ذواتهم في المجتمع، ويحاولون إلقاء المسؤولية عليه في صعوباتهم الذاتية (ابجرال1996 Abgral، 118) وتستفيد هذه المجموعات المنغلقة على ذاتها من هفوات الشاب وجروحه المعنوية، إذ تراهن تقنيات الانضمام في الحقيقة على الإحباط والشعور باللامعنى، واللااندماج في المجتمع، وبالنسبة للجماعات التي تصب في الإرهاب، تراهن على الاستياء، وكراهية الآخر من حيث هو المسؤول عن جميع

الشرور. إنها تعرف كيف تذكي الألم من أجل أن تعرض البلسم بعد ذلك، فتجعل المريد يحس أنه قد تم فهمه أخيرا، وتم استقباله بترحيب.

يعتمد الانخراط المبدئي على القرار الخاص للشاب، رغم أن هذا القرار يصدر عن اختيار العبودية بإرادة حرة، ومنه يستمد المنضم شعورا حميميا بالقوة، ويرتقي بهشاشته إلى قوة (حقيقية أكانت أم متوهمة)، للجماعة التي اختارها أو إلى الاعتقاد أن الله قد ألهمه وهداه إلى سلوكه. فهو لم يكن شيئا ذا قيمة، وها هو الآن صار حلقة ضمن السلسلة الهائلة للمختارين. دوامة من عدد الالتزامات تحول دونه وأيّ تراجع الى الوراء: تحويلات مالية، وهبات للمنافع، والتماس لهبات من أشخاص خاصين بشكل حثيث، ومراقبة الآخرين والدعاية للجماعة، والعمل على توفير الخدمات الجنسية للجلاد وحاشيته، فيصبح المنخرط رهن إشارة الإنجاز اللانهائي للأعباء، أو وكيلا لانتقاء المنضمين للمجموعة قصد الرفع من الموارد الاقتصادية. فبفضل مثابرته يأمل في التقرب شيئا فشيئا من الحقيقة، أو من أولئك الذين يجسدونها. وبالتخلي عن هويته يساهم في مغامرة عظمى ترقى بشخصه. إنه يسبح في عالم من البداهة اللامعة البراقة مع الاعتقاد بأن الآخرين خارج الطائفة، أو «كفار»، ليسوا مؤهلين لفهم كل ذلك. فكل مجاله الذهني موجه لراهن تمثلات الجماعة وقيمها.

من الصعب أن يتراجع المريد عن التزاماته، سواء لأنه فقَد سيادته

الشخصية أو جزءا من قدرته على الحكم على ما يقوم به، أو لأنه اكتشف ذاته رمزيا أو حقيقة. وقد تمت محاصرته بدون أيّ إمكانية للتراجع. تصبح أطرافه والفضاء الذي يشغله بمثابة رحم يغذي ويحمي أطفاله من عنت العالم الخارجي. إناء مغلق، هي الطائفة، تقصي كل شكل آخر للوجود. ينظم روادها حراسة مشددة بدقة، إذ يقيمون الحماس ودرجة الانخراط لدى الملتحقين بها من خلال أنشطة مختلفة. وهي تمارس ضغوطا على الذين يتهاونون منهم أو يريدون استرجاع حريتهم. الطائفة في اللغة الفرنسية (SECTE) مشتقة من اللاتينية (secta) وتعني في الأصل «تعليمة من التعليمات» (DIRECTIVE). تقدم الطائفة عبر تطرفها، الذي يغلف علاقتها بالعالم، نهجا للتعظيم بالانسحاب مما هو اجتماعي، وولاءً روحيا منظما حول الكلام الخاص بالمعلم الذي يعطيه باستمرار إطارا رمزيا. وهناك سلسلة من التقنيات معتمدة تساهم في استبعاد كل مقاومة، وفي ترويض الشخصية. ويفرض جدول الزمن عند بعض الطوائف على المريدين شروط وجود ساحقة، وذلك بحرمانهم من النوم أو من الطعام، وبإرغامهم على القيام بأعباء ثقيلة ومرهقة، وبوضعهم في حجر صحي، وبالمراقبة الشاملة لجدولهم الزمني لكي تتسنى وسائل إخضاعهم دون أي رد فعل من طرفهم.

الانخراط في طائفة ما، أو في تطرف ديني معين، هو نوع من الدوخة التي يتخلى من خلالها المعنيّ بالأمر عن كل تحكم في ذاته، ويستسلم للآخرين الكبار. فهو لا يتحكم إلا في الخطوات الأولى

لانخراطه، وبعد ذلك يتخلى عن ذاته، ويسلم نفسه كلية للمعلمين الروحيين، وهكذا يتحلل من التفكير، ويندمج في الموجة، يطيع الأوامر، وتصبح تصرفاته مطابقة لتلك التي للآخرين من حوله، فتمحي كل فرديته. ويعتبر رفض هويته القديمة بمثابة الفدية التي تحقق له الأمن الداخلي، وتغذي تعالي المعلم أو الناطقين الرسميين باسم الله، أو تغذي تعالي الانتقام الإلهي المعلن ذاتيا، فيتخلى الشاب المنخرط عن الهمّ بأن يكون هو هو، لأجل اتباع كيفية استعمال حددت له سلفا. ويستجيب لتوجيهات لا جدال فيها، ولقيم جذرية وبسيطة وصلبة، حتى لا يكون في حاجة الى أن يواجه التباس العالم. فيتلقى منذ ذلك الحين وباستمرار، الأجوبة المطلوبة. ويجسد المعلم في نظره حقيقة غير ملموسة. كما ينشد تمثلا شاملا للعالم يغذي لديه نسخة من هوية مصطنعة وسهلة التحمل تريحه من تعب الوجود ومن التفكير في موقعه داخل العالم (لوبروتون le Breton2007) إنه يفرض قطيعة جذرية مع بيئة خارجية يدركها باعتبارها مكانا للشر وللضياع والكفر .

يتخلى المريد عن مسؤولياته المرتبطة ضرورة بهويته عن طريق الذوبان في المجموعة. فالطائفة هي المكان الذي يتحقق فيه الاختفاء داخل التشابه الذي يطبع أعضاءها. إنها تمارس سلطة مطلقة على أعماله وتحركاته فيما يتعلق بالحياة الجنسية وبالعمل، والخرجات والترفيه والحياة أو الموت في حالة التطرّف الديني. إذ لا شيء ينفلت من قبضتها. فهي تحرر المريد من عبء الأنا وتعفيه من همّ ممارسته لحياته بفرض جدول زمن لا مرونة فيه. وفضلا عن ذلك فغالبا ما

يتمّ الاعتراف بانتماء المريد للطائفة موازاة مع إطلاق اسم جديد عليه، وهكذا يعاد تحديد هويته تحديدا جذريا. وفي نهاية سلسلة من الاختبارات أو المراحل المحاكية لمسار ولادة جديدة، يرتدي المريد ملابس أو رموزا جسدية خاصة بالمجموعة، فتنزع عنه شخصيته السابقة وتفصله عن تاريخه. ويخلع هويته عند عتبة الفضاء الذي تدبره المجموعة. وهكذا يصبح الانتماء للطائفة بمثابة ولادة جديدة وبداية صفحة بيضاء. فالانخراط في التطرف الديني يكون أحيانا مرادفا للتضحية الذاتية في عملية انتحارية. وهذا التحوّل الجذري في الشخصية يتخذ في كلام أقارب الشاب المنخرط، إذا ما بقي لهم اتصال به، صيغة العبارة المألوفة «غسل الدماغ».

نشوة الامتناع عن الطعام (الأنوريكسيا- l'anorexie)

تحمل الأنوريكسيا أو داء الامتناع عن التغذية، من بين دلالاتها المتعددة، دلالة الاختفاء، اختفاء الذات في لا شيء، أثناء البحث عن نحافة لا متناهية مصحوبة بالطهارة، وإرادة الهروب من الجسد عن طريق جعله ذابلا، وكذا من الروابط الاجتماعية بأن يصير الأنوريكسي لا مرئيا. تقول مارزانو: «اقتنعت أن كل شيء سيكون على ما يرام إذا صرت خفيفة الوزن كالفراشة» (م. مارزانو M. Marzano 2012، 89) إن الأنوريكسيا مقاومة شرسة ضد الجنسانية (la sexuation) التي تمنعك من الحياد الجنسي، وتضطرك لأن تكون إما ذكرا أو أنثى (امرأة أو رجلا). إنها محاولة لإيقاف الزمن، زمن الجسد، ورغبة في أن تكون كأنها لم تولد. تقاوم

الفتاة المرأة التي تنمو وتكبر فيها وتختزلها في جسدها. والولد يتشنج ضد ظهور جسد الرجولة الذي لا يرغب فيه. كل منهما يرى جسده كما لو أنه مغاير، كما لو أنه سجن يسعيان للهروب منه. تؤدي هذه الحرمانات عند الفتاة في النهاية إلى التوقف الرمزي للطمث، وغالبا ما تكتمل معركتها خصوصا ضد الجسد عن طريق تقليمه (لوبروتون، 2007). إنها تتقوى داخليا بالسيطرة على شهيتها (بكل ما تحمله الكلمة الفرنسية appétit من معنى)، على خلاف الآخرين الذين يخضعون لها ضعفا في نظرها[7]. إنها تركّز انتباهها رمزيا على الجوع الذي ترفض أن يملي عليها تصرفاتها، كما ترمي إلى أن تتحكم فيه، وتجعل منه شبكة دائمة من الأحاسيس التي لا تتخذ إلا الذات مركزا لها فقط. والحل الوحيد بالنسبة لها، في هذه المرحلة من تاريخ حياتها، هو وضع نظام داخل وجود ينفلت منها. يقول س. ماكلود (S. MacLeod): «كلما قل أكلي ازداد هروبي» (1982، 87) تتحول العلاقة بالطعام إلى رهان فتصبح مؤشرا على الوجود، وطريقة للدفع بقوة نحو الحدود القصوى من أجل معرفة من نحن، وتجريب طرق أخرى للوجود، بل أكثر من ذلك أيضا، كتصفية الحساب مع الأم المغذية، وهكذا تبني المصابة بالأنوريكسيا ذاتها من خلال نسيج من العواطف والحنان أو بغيابه. وتندمج الشهية ضمن كيفية الرغبة في العيش التي تحدد نكهة الطعام (*لوبروتون*،

---

(7) بالنظر إلى العدد القليل من الذكور المصابين بهذا الاضطراب في التغذية سأستعمل هنا صيغة المؤنث، ولكن التحليلات تأخذ الذكور بالاعتبار، مع شيء من المبالغة*cum grano salis*

.(2007

يصف المحيط العائلي المصابة بالأنوريكسيا باعتبارها كانت طفلة نموذجا، مطيعة وسابقة في ذكائها على سنها، وموهوبة في ميادين متعددة، لكن في الواقع كانت لها حياة عادية، ملائمة لما ينتظره منها محيطها العائلي. بالرغم من مواهبها وإنجازاتها الدراسية أو الرياضية، فقد كانت تشعر دوما بعدم الرّضا، وبأنها غائبة، وغير جديرة بالثناء، ودائمة القلق مما يعتقده الآخرون عنها. وإذا كانت لا تجد ذاتها في صورة طفلة غير ملفتة للنظر، فإنها لطالما اختبأت تحت قناع هذه الملاءمة المطمئنة. لكن البلوغ، وما يقتضيه من عملية إثبات للذات، واقتحام للآخر فيها، يكسّر الأشكال القديمة للتكيّف، ويرغمها على أن توضع موضع سؤال بشكل جذري. وفي الوقت ذاته، فإنّها لا تدرك من هي، بعد أن اختبأت لمدة طويلة تحت غطاء ما يشبه النسخة دون شعور بأنها معنية بالأحداث. لم تسنح الفرصة أبدا لتعرف من هي خارج هذا المؤثر. بما أنها لا توجد بالنسبة لذاتها، فقد ظلت رغبتها دون إشباع.

إنها محاولة للقطع مع علاقة التبعية، والربط مع الرغبة بأكل «لا شيء» (رامبو والياشيف،47-1989 Raimbault et Eliacheff'.). تقول إحداهن: «لا أملك أي شيء آخر، إنه ملك لي، ولا أحد يستطيع أخذه مني». في الباب الضيقة للرغبة المنتزعة من الحاجة تكمن إمكانية الولوج لشيء يخص الذات. كما تصف: لم يكن لديّ شيء ولم أكن شيئا. وبواقعية أكثر فقد كان يعطاني ما لم

أكن أرغب فيه (مما يعني عدم إعطائي شيئا) وتتم معاملتي بما لست إياه (الشيء الذي يعني أنه يتم الغائي نهائيا). كان سلاحي الوحيد في هذا السعي نحو استقلال الذات هو الإضراب. كان من الممكن ألا يكون هذا التوقف عن العمل، بالمعنى الحرفي للكلمة، قابلا للتحقق، كما كان من الممكن أن يخفف من كبريائي، إذ لولا العمل (الدراسي) لكنت أقل شأنا مما كنت أعتقد أنني أمتلكه وأكونه (ماكلود MacLeod' 1989،80). لا تشعر المصابة باضطراب التغذية بأنها منتمية لهذا العالم. وهي لا تتعرف على نفسها خارجا عن ذاتها. وإذا كانت تُدين عالم «الواجبات» الذي نمت وترعرعت داخله، فإن علاقتها بالعالم تظل علاقة طهرانية، خالية من أيّ شحنة عاطفية. فلا تبدي أية رغبة تكون في صالح محيطها. إذ تغرق في عالم لا يدين بشيء للآخرين وهي تظل في حمى تمدها به منبهات الجوع والإحساس به، فتصنع عالما لها وحدها، وتضع تجربتها الجسدية في مواجهة الصعوبات المتعلقة بهويتها.

تؤكد المصابة بأنها بخير عبر نكرانها لحالتها. ويأخذها والداها الى الطبيب ضدا على إرادتها، وقد ذهلا من أنهما لم يعد باستطاعتهما التعرف على ابنتهما، كما قد ذهلا من مواجهة التوترات اللامتناهية بينهم إذ لا يستتب طعم الحياة أبدا بين أفراد الأسرة، وتستنتج هي من ذلك أنّ العالم خواء مسكون بأشباح محافظة وبلا معنى. فتتخذ موقف المعارضة الجذرية تجاه الفراغ الذي يحيط بها، وتشبه الطاقم الطبي بحراس لوضع محددٍ سلفا، لا يسمح بأيّ اختلاف مهما كان بسيطا. وتشعر خارجه بأنها صافية الذهن مأخوذة بمغامرة

شخصية للتحرر والتطهّر تجاه جهل الآخرين. «لا لن يتمكنوا مني! أريدهم أن ينسوني، وأن يتركوني أموت داخل هذا القيد، وليتجاهلوني إذن، ويكفّوا عن تعذيبي بهذه الأطباق، وهذه التهديدات، فأنا لا أطلب شيئا [...] لكن أيّ جرم اقترفت؟ هل قتلت، أو سرقت؟ كلا، لقد قمت باختيار. وهذا لا يعنيهم». *(فالير، Valère 1978، 8-9).*

تجعل المصابة بالأنوريكسيا نفسها تعيش داخل التحكم. وتبذل جهدا لكي تحقق سيادتها الشخصية على الحاجات البيولوجية التي تفرض نفسها على الآخرين. فمن خلال حمية لا متناهية التقتير، قد تؤدي بها الى الموت، تحافظ على بقائها جائعة مثلما تحافظ على حياتها. إنّها تعيش تناقضا عميقا فهي تعيش دوخة افتقارها أن توجد وكذا دوخة جوعها، وفي نفس الآن تعيش الإحساس بأنها أخيرا تأخذ مصيرها بيدها. إنها ممزقة بفعل الفارق بين هشاشتها، وعجزها على تغيير أي شيء في وجودها، وبين نشوة السيطرة على جوعها وإملاء تصرفها على جسدها. لكن يمكن فهم تناقضها أيضا على أنه متعة تتأتى من الشعور بالعوز الذي تفرضه على نفسها. يتحدث بعض الأطباء عن «نشوة جنسية للجوع» orgasme de la faim (كيستيمبورغ وأليس Kestemberg et Ales). هذا ما تؤكده الطبيبة ه. بروش H. Bruch قائلة: «للجوع تأثير شبيه بذاك الذي للمخدر، إذ تشعر أنك خارج جسدك وأنك بالفعل خارج ذاتك، فتجد نفسك في حالة شعورية مختلفة، بإمكانك أن تتألم بدون أيّ رد فعل [...] وحين يصبح الاستمرار في هذا متعة، عندها يحدث شيء

آخر. نشعر أننا في حالة سكر تماما أعتقد، بنفس الكيفية مع الكحول».(بروش ، 1979 ' 3 ' 95 Bruch) وكونها غالبا ما تزيد هذا الأمر حدة عن طريق التمارين الرياضية المكثفة، فتدخل المصابة في حالة وجد ممتدة على مر اليوم. إنه الوجد الذي يسببه الجوع. ورفض إشباعه يجعل التوتر يستمر، ويعطي الإحساس بالوجود. وتحت هذا العوز القاطع فإنها تبلغ أخيرا حدودا ملموسة من وجودها. فبالتحكم في جسدها، تتحكم في الوجود الذي ينفلت منها. ويتحول الطعام الى موضوع انتقالي ملتبس *(لوبروتون ،2003، 2007)*. في كل مرة تبعد فيها الجوع، وتدين فيها الأكل تسجل انتصارا على نفسها وتتقوى في صراعها. وهي تزيد ذلك قيمة كلما تمادت في الحبس الشديد لإرادتها في عدم إسداء يد المعونة، فتجعل كل مجهودات أقاربها أو أطبائها من أجل إطعامها تبوء بالفشل. لا ينتج عن هذا التحكم توتر رفض مواجهة الجوع فحسب، وإنما فعل التقيؤ المتعمّد، واستعمال المرطبات أو للزيادة من حدة الشدة.

تشعر المصابة بالأنوريكسيا بالفراغ، وبأن العالم لا معنى له، وتدرأ الرعب بسلسلة من الممارسات الجسدية والمعنوية، وما إفراطها في الحركة إلا محاولة لإضفاء رونق وجاذبية على وجودها، ومحاولة لكي تعيش لحظات قوية، وحميمية، بإنجازها جيدا للتحديات التي تسك بها أيامها، فالإكثار من التمارين الرياضية كـ: الجري، والسباحة، والمشي، واستنزاف الطاقة الجسدية، الخ. من شأنها أن تشدد الخناق وأن تضيّق أكثر على هذه الإرادة في عدم ترك أي شيء تحت رحمة ما هو بيولوجي. ويرفع البحث عن الحدود

القصوى إلى قمته. فتصبح المصابة مسكونة بهاجس الاكتمال الجسدي والذهني الذي تجد فيه مصدرا للذة، ويصبح لجسدها حدود مغلقة في مواجهة لا يقين العالم. فالإحساس بالجوع والعياء، وبذل الجهد، الخ. هي دعامات جسدية لكي تشعر بأنها محصورة داخل إرادتها الخاصة عوض أن تكون كذلك بالفعل. فمن خلال مضاعفة المجهودات الفسيولوجية التي تفرضها على نفسها، والمقاومة الدائمة للشعور بالجوع، والانتباه الذي ينصب على الأحاسيس وعلى وزنها وعلى حميتها ومجهوداتها لتتعمد التقيؤ، تبدي حرصا على الشعور الدائم بأن لها وجودا فعليا معتمدة على إحساساتها. إنها حقا، كائن حي، لكنه في منأى عن الآخرين سعيا للاختفاء عنهم.

الأنوريكسيا تربية ومران على الوجود، وحياة زاهدة تمارس في كل لحظة وحين، إنها مقاومة بلا هوادة ضد الذات وضد الآخرين حتى تتسنى تقوية القلعة الداخلية. إذ تبذل المصابة قصارى جهدها كي يبلغ جسدها حدوده القصوى. إنها إرادة لتحقق جسد من دون جسد، لكنها رغبة في التحرر أخيرا من كل ولاء لجسد الأمومة وللروابط الاجتماعية. فلا تبلغ قط درجة النحافة الكافية التي تخول لها التوقف عن مطاردة أي أثر للأمومة فيها مهما كان بسيطا. فتتَّبع نظاما جذريا للحصول على جسد يخصها هي بالتحديد، ويكون من أجلها هي، لا يدين إلا لها من خلال منطق الولادة الذاتية. إنها ترمي إلى أن تأتي إلى العالم من تلقاء ذاتها، إلا أن جسدها يشكل عائقا تسعى إلى الاحتيال عليه. والطعام هو حصان طروادة لجسد

الأمومة. لذلك يصعب ابتلاعه كثيرا.

الأنوركسيا هي نوع من الحكم الإلهي المسجل في الديمومة. فالمراهقة تجعل الموت معلقا، وتراقبه بوضع وجودها في الميزان، وتذهب أحيانا إلى أقصى حد بقبول قاعدة للعب وهي أن تؤدي، دون تردد، ثمن سعيها نحو مشروعية وجودها من حياتها. إن الأنوريكسيا ليست تعبيرا عن نية الموت، ولكنها نوع من اللعب بالموت الذي يذوب في الزمان عبر الامتناع، والغياب، و**البياض**. وهذه الطريقة في مواجهة الموت بوقاحة لا تتنافى مع الإحساس بالخلود لدى المصابة، والقدرة على البقاء دائما على شفا حفرة دون سقوط في الضياع. فإذا كان الموت أحيانا هو نهاية الطريق (تقدر نسبة الوفاة بحوالي 10٪ من بين المصابات) فإن الأمر لا يتعلق نهائيا بالرغبة في الموت، إذ تتنكر المصابة لخطورة حالتها فترفض العلاج وتثور في وجه الأطباء أو المعالجين الذين يرغبون في جعلها تغيّر موقفها تجاه العالم. إنها تتساءل عن الجدوى من وجودها. وتطرح السؤال حول هويتها الاجتماعية كامرأة بحدة قد تؤدي بها الى الموت.

إذا كانت الأنوريكسيا دليلا على معاناة الألم، فإنها تفصح أيضا عن شكل من المقاومة غير المدركة ناتجة (كخدش الجلد أو وصمه أو السمنة) عن مواجهة نموذج مختزل عن الأنوثة. وقد كان س. ماكلود (S. Macleod) في عهده يتحدث عن إضراب موجه ضد موقف والديْ المصابة. واليوم تشير الأنوريكسيا أكثر فأكثر الى

انتقاد بواسطة الجسد لنموذج اجتماعي ضاغط للأنوثة، ولو أنها تتحدد أيضا بالصعوبات المتعلقة بالروابط الأسرية. إن الأنوريكسيا تفعيل لسخرية حادة إزاء الخطابات حول النحافة، وهي تدفع بمنطقها إلى أبعد حدّ إذ تتحدث المصابة بواسطة جسدها عن ألم التمثلات التي تُفرض عليها. ليس لأن هذه المقاومة بالفعل واضحة بيّنة، بل إن هناك عوامل أخرى تفعل فعلها. (بروش Bruch 1979) إنها مثلها مثل فنانة البودي آرت، فن الجسد. تسائل التمثلات الاجتماعية مصدر الألم بالنسبة إلى المراهقات اللواتي لا يجدن أنفسهن في هذا النموذج من الإغراء، أو أنهن يخضعن له عبر الكثير من الحرمانات . وهكذا تريد المصابة أن تتحد بجنس ثالث، أو بالأحرى بجنس يكون خاصا بها، يبقيها خارج كل تحديد جنسي في بحث شغوف عن الاستقلالية وعن التخلي، والانفصال عن الروابط الاجتماعية. يضيف س. ماكلود: «لا أريد أن أكون امرأة لأنني أريد أن أكون أنا بالذات، وهذا تأكيد لا منطقي، لكنني أدحض المنطق بأن أصير مصابة بالأنوريكسيا [...] بقدر ما تصبح حدود جسدي دقيقة بقدر ما أشعر بانبثاق الأنا الحقيقي لذاتي. مثلما يجعل النحات تمثال الرجل العاري، ينبجس شيئا فشيئا محفورا على كتلة الحجر الخام» (1982، 97). يدخل الانتشار الواسع للأنوريكسيا اليوم في المنظور المابعد حداثي عن طريق الرغبة في أن يشكل المرء بنفسه جسده الفريد من نوعه، بعيدا عن كل مواضعة اجتماعية لكن دون أن يدين بأي شيء للتقنية. إنه جسد من شأنه أن يقتصر على الإرادة الذاتية المستميتة، وهي

روحانية حميمة مستغنية عن كل عون خارجي *(لوبروتون، 2012)*.

الأنوريكسيا، مثلها مثل السلوكيات الأخرى المحفوفة بالمخاطر هي استراتيجية لا شعورية للوجود على الرغم من الظروف والحيثيات (لوبروتون، 2007). وهي تتوقف عندما يتم العثور أخيرا على لذة الحياة. لكن المصابة ترفض مؤقتا مد يد المساعدة لمن حولها، وتسعى للاختفاء حتى وإن بذل الآخرون من حولها مجهوداتهم لأجل إثارة انتباهها لمتطلبات هويتها وروابطها الاجتماعية.

التخدير سعيا وراء الغيبوبة

كان تعاطي الكحول في مجتمعاتنا الغربية أقرب ما يكون الى البحث عن السكر، والخفة، والهيجان، وكان يشكل جزءا من طقوس الفحولة عند الجماعات الذكورية حيث يعد أخذ الكحول بمثابة شهادة تميز *(لو بروتون،2007)*. وكان الإناث مقصيات منه، فالتعاطي النسوي للكحول لم يكن قد انتشر بعد، أو كان يتم بكيفية متسترة، مقرونا بصورة سلبية. صحيح أن هذا النوع من التعاطي، بالتأكيد لا زال قائما الى اليوم، بل إنه يتخذ شكلا أكثر حدة. إنه يدل على البحث عن غياب خفيف، ومؤقت، يكاد يكون هذيانًا، حيث يظل هناك وعي نسبي، ولكن خارج متطلبات الحياة العادية، يبقى العقل فيه طافيا على السطح، وقد تخفف، كما أن الهموم يتم نسيانها. يدخل الكحول متعاطيَه في جو احتفالي،

ويذهب بعيدا في سلوكياته، دون كثير اعتبار لنظر الآخرين. فيصبح متحللا من الضغوط الأخلاقية الذاتية، ولو أن الثمن الذي سيؤديه في الغد هو الوجه المكفهر من جراء الثمالة. ويعتبر السكر شكلا هادئا لاختفاء الذات عن نفسها، واستعارة لقناع لبضع ساعات من أجل تلطيف الضغوط الداخلية وتخفيفها، ونسيان ثقل الهموم. إن تعاطي الكحول بمثابة مضاد للانهيار العصبي الذي لا يكون مصحوبا بدلالة طبية، بل يحيط به بالأحرى جوّ ودلالة رمزية، بقايا زمن كان لا يزال فيه لطقوس تناول الكحول فضائل. وغالبا ما كان تعاطي الكحول أداة للحد من الانهيار العصبي *(مارتي Marty 2007، 59 وما يليها)* وقد كان يهدئ من روع القلق بالتشويش على الوعي، وجعل الاستمرار في التفكير أمرا أكثر صعوبة. وكان سنداً غير موفق لهوية هشة. فكان استهلاك الكحول يتخذ موقعه بين الخفة والتخدير. وفي السنوات الأخيرة تغيّرت طرق تناول الكحول عند أصغر الشّباب سنا. فهؤلاء لا يتناولون الكحول إلا في بعض الأحيان دون شك إلا أنهم يتناولونه بشدة أكثر.

كثيرة هي السهرات الاحتفالية بهذه المناسبة، أو أثناء اللقاءات الحميمة المساعدة على تفاقم تعاطي الكحول، بحيث يتم السكر داخل مجموعات، ويدفع ببعد تجاوز الكحول للموانع إلى حده الأقصى، إلى درجة التحلل من عبء تحمل الذات. فالتفكك المرتبط بالثمالة يقود إلى «الهذيان»، وإلى حالات لا منتهية من القهقهات غير المتحكَّم فيها، فينتج عنها نوع من الوجد أو النشوة المبتهجة المحاذية للغيبوبة التي يبحث عنها الآخرون بالمقابل وبإصرار. هو سلوك

نكوصي، غير حريص على القواعد المتعارف عليها بين شخصين أو أكثر، والتي قد تؤدي إلى تنافس في السكر *(ديليغ، Delaigue، 2007)*.

بعض المدن الكبرى أخذت تعرف تجمعات للشباب حيث يتعلق الأمر باحتساء الكحول دون نهاية، في الأزقة التي أعيدت لذلك تسميتها نحو «شارع العطش»، في مدينة رين (Rennes) وفي مدينة بريست Brest ومدينة موهاوس (Mulhouse) وفي عدد من المدن الأخرى سواء في فرنسا أو خارجها. كما أن نغمة الاحتفالات الشبابية قد تغيّرت كذلك منذ حوالي عشرين سنة. ويوجز م. دانيو (M.Dagnaud) سماتها لدى غالبية الشباب، ولو أن نماذج أخرى تتعايش معها، كالتالي: «لم تعد الخرجات الليلية للشباب ترتكز على معاكسة الفتيات، أو البحث عن شريك في الحب: بل صارت ترتكز على البهجة المتقاسمة بين الأصدقاء، وعلى الإحساسات اللامحدودة (السكر، الهذيان، السياقة الجنونية). علاوة على ذلك، فالموسيقى بعيدا عن كونها تنساب كألحان نتعرف عليها ونردّدها، صارت تضجّ باسترسال يصم الآذان، ويتمّ الرقص عليها بشكل انفرادي، والجسم مرفوع بحماس وبشغف لا يرتوي بجانب الآخرين. فانفعالات التحرر في الحب أو في الجنس تم تعويضها بمضاعفة الإحساسات عن طريق ترسانة من المواد المساعدة» *(دانيو، 2008، 49)*. يُستهلك الكحول بلا حساب كمكون أساسي للاحتفال. وعندما يحكي هؤلاء الشباب عن آخر سهراتهم فإن 2.٪ منهم يقولون إنهم قد احتسوا ما يقرب من ثمانية كؤوس من الكحول على

الأقل. والبعض منهم يقولون إنهم احتسوا لترات من الكحول القوية خلال نهاية الأسبوع الأخيرة (57). إن «السهرات الجيدة، كما يقول أحدهم، هي تلك التي لا تتذكر فيها أيّ شيء، لا كيف دخلنا، ولا كيف تصرفنا». (في دانيو 2008، 101). يطرح الاختفاء الجذري عن الذات كنموذج للتميز والانفصال عن الشخصية وعدم الاحتفاظ بأي ذكرى عما تم القيام به خلال هذه الفترة.

لا ترتبط سلوكيات التخدير هذه فقط بالشباب الذين تدخل معاناتهم ضمن علاقات أسرية واجتماعية مضطربة، بل نلفيها أيضا لدى تلاميذ الإعدادي والثانوي، ولدى الطلبة وشباب المدارس العليا الذين ما يفتؤون يتباهون بمعارفهم وبوضعيتهم المتميزة، على حساب عواطفهم وحاجتهم الدائمة لأن يكونوا في المستوى اللائق *(دوليغ Delaigue 2007*) يتعلق الأمر إذن بأن يمتلئ المرء خواءً لكي يغدو خارج اللعبة؛ والتحرر لمدة زمنية من حدود الجسد، إذ لا يكون بعد الآن في حاجة لأن يضمن نجاحه المقبل في المباريات والامتحانات وألا يفكر في أيّ شيء، ولا «يشغل باله» بشيء بعد اليوم. إذ إن استحضار الذكاء بكثرة يستدعي وقتا «للراحة». وما السهرات التي تقام في المدارس العليا إلا مناسبة «للتحرر» من أعباء الدراسة، والانصهار لفترة معينة مع الآخرين (يحيى المرء بها للاستيهام بالأحرى) قبل أن يتحلل. فتصبح الطريقة الوحيدة لإيقاف التفكير المسترسل هي الغيبوبة. وبكيفية عامة، فهي تتم من خلال تعاطي الكحول، والتخلي عن أيّ التزام قصد الإفلات من

قبضة التوترات الداخلية.

تعمق تجربة التخدير جذريا استعمال المخدرات أو الكحول. إنها لم تعد سعيا وراء الإحساسات، وإنما بالأحرى بحثا عن الاختفاء، وولعا بالغياب عن الوعي. إنه وجود يتناوب مع مراحل غياب أو انسحاب وليس وجودا ذاتيا مسترسلا. وهو نكران كيميائي للواقع، واستهداف رمزي للغيبوبة، **وللبياض** لكي لا تمسه خشونة العالم المحيط بعد الآن. وهو حصر للزمان في التأثيرات المطلوبة للجزيئة، ولو تطلب الأمر لأجل ذلك الاستقالة عن الذات لصالح انتظام كيميائي. سواء أتعلق الأمر بإدمان المخدرات، أو الكحول أو باستعمال مواد التحليل المخبري، فإن السعي هو دوما سعي وراء الغياب. منذ سنوات الألفين خصوصا، بدأت تظهر أشكال لتعاطي الكحول لم تكن معروفة من قبل، موجهة للبحث الحثيث عن الغياب أو الغيبوبة، فاحتساء الكحول بلا حدود، لا يكون من أجل بلوغ الثمالة، بل من أجل بلوغ النسيان بأسرع ما يمكن، والتخلص من عبء الذات. يتمّ ارتشاف الكؤوس في لامبالاة كاملة بمدى مذاق الكحول، وذلك بإرادة الغياب عن الوعي الذي يستدعي مرجعية أن تكون قد «احترقتَ» و«مُزِّقتَ» و«مُتَّ»، أو بإرادة أن «تفرغ رأسك». فالفودكا (Vodka) خصوصا، والروم (rhum) ، والويسكي (whisky) ، والتيكيلا (tequila)، كلها تُشرب بالتناوب، مع خلطات مشروبات أخرى (الكحول بإضافات السكر مثلا). تهم هذه الممارسة المراهقين الأكثر فأكثر صغرا في السن. كما تخصّ أيضا الفتيات، ولو أن عددهن قليل. فهم

يحتسون الكحول لكي يصلوا مباشرة إلى **بياض** قد يكون متحكما فيه نسبيا، إنهم يأملون الاختفاء لفترة بأسرع ما يمكن. فلم يعد الأمر يتعلّق بإحساسات يمكن عيشها من أجل الشعور بالوجود، وإنما بمحاولة الهروب خارج الذات. إذ تخفف الغيبوبة من وطأة التوترات، إنها استكانة بركان، وإذا أردنا الأخذ بعبارة ريسبروك (Ruysbroeck binge drinking) أي أن احتساء كمية كبيرة من الكحول في وقت وجيز يسمح بالتخفيف من حدة أوامر الإكراهات الأخلاقية الضرورية للعلاقة مع الآخرين ومع الذات. فبعض الشباب يحتسون الكحول من أجل التخلي عن مراقبة الذات وعن امحاء الوعي. يستهلكون دون حدود أيّ شيء بهدف وحيد هو الاختفاء عن أنفسهم. وفي اليوم الموالي، لا يتذكرون أي شيء. **البياض** يعترض ذاكرتهم عن تذكر الساعات الماقبل، ولكن أثناء الوقت الذي يكونون فيه لا أحد يستسلمون للآخرين وأحيانا لأجل الأسوأ في حالة الاغتصاب مثلا حيث يستغل الأولاد الوضع مع الفتيات اللواتي دفعوا بهن لاحتساء الكحول ولم يعدن في حالة وعي باللحظة التي توجدن فيها.

يكون البحث عن السكر أو التخدير أحيانا بشكل انفرادي أكثر. إنه إذن درع ضد الألم، وتقنية للبقاء على قيد الحياة. تقول ماريون وقد فقدت أحد أصدقائها في حادثة دراجة نارية، «كان إحباطا قويا، وبدأت استهلك الكحول بتواتر، لا بمفردي، ولكن كنت إذّاك قد بدأت استهلاك الكثير من الكحول ثم دفعت بنفسي لاستهلاك المزيد أكثر ولهذا السبب أيضا ابتعدت عن والديّ. وقد

أحدث لهما ذلك ألما عميقا، وشعورا قويا بالذنب، وكانا يعتقدان أنهما مسؤولان عن مشكل الوجود المؤلم الذي أعيشه، وعن إخفاقي. وأنا كنت أحس أنني في الحضيض، وهذا إذن حلقة مفرغة. وقلت في نفسي من الأفضل أن أبتعد عنهما. كان أول سكر لي، ستة أشهر بعد وفاة صديقي، والطبخة العظمى كانت كل نهاية أسبوع، وبعد ذلك مرتين في الأسبوع، ثم ثلاث مرات لألجأ إلى القضاء على ألمي». فاستعمال الكحول للتخدير والتطبيب الذاتي لكي لا يتم اجترار ذكرى الحادثة دون توقف. لكن ماريون قلبت شيئا فشيئا الوضعية عن طريق الوعي بانغمارها في الحالات التي تحطم كامل حياتها ووجودها.

يصوغ سيدريك Cédric 17سنة بكيفية عنيفة ونموذجية جنوحه لأن يختفي قائلا: «أتناول الكحول لأنني لست بخير ولأنه الشيء الوحيد الذي يجعلني بخير. لا أصلح لشيء. أنا بلا قيمة، أسوأ السيئين. لا أحد يوليني اهتماما بي. على كل حال، هذا أمر طبيعي. على الأقل حينما أتناول الكحول أتوقف عن إدراك ما يحيط بي، لا أعلم بعد أين أنا وماذا يحل بي، فأستريح، وأكف عن التحكم في الأشياء. أنا في الحضيض، ولكن حينما أتناول الكحول، أتوقف عن التفكير في ذلك. لا أفكر بعد في أي شيء». ويعبر فتى التقاه س.لوغاريك (S. le Garrec 2002،126) عن الإرادة نفسها، إرادة الإمحاء قائلا: «عندما أشرب التيكيلا بالمتر، نعم، بالمتر، هذا أمر جدي لأنه هنا يكون المرء محطما، محطما، محطما، هذا هو الهدف. ولكن هناك شيء آخر، وهو، سأثير استغرابك _سأفاجئك_ ربما أو

سأصدمك، فالحياة لا تهمني أنا. إنها ليست المرة الأولى التي أحاول فيها تدمير حياتي، وأعرف أنه ستكون هناك محاولات أخرى، لكن الحياة لا تساوي شيئا، إنها لا شيء[...]فأنا منحط من بين المنحطين. أعرف ذلك. لا أمثل أيّ شيء لا بالنسبة لي، ولا بالنسبة لأي أحد[...]أقول في نفسي وأنا أفرط في تناول الكحول، لم أعد أحس بأي شيء، وهذا بالتأكيد أمر جيد، بمعنى أنك لم تعد تشعر أنك على أهبة الحرب على بعد ساعة، كما لو أن كل شيء توقف، وأنا أيضا على أهبة التوقف، نعم، إن الأمر كالغيبوبة المعروفة عالميا والناتجة جراء الإدمان على الكحول، فهي تظل هكذا دون الخروج من الغيبوبة أبدا. يواجه الشاب استحالة أن يكون هو هو، فينفصل عن الرّوابط الاجتماعية على شكل مقاومة سلبية (passive). في الوقت الذي يختار فيه الآخرون، دون وعي منهم، الانهيار العصبي، يستسلم هو للحدود القصوى للكحول، وللمخدرات، وللشارع، أو للجلاد لكي يكف عن بذل الجهد ليكون هو ذاته.

لم يعد موضوع الوعي في مبدأ الوجود. إذ يصبح الجسد ملجأ، ومكانا لامكانيا لأجل الاضمحلال، أو الذوبان والتوقف عن العطاء الذاتي، والانغلاق في أعماق البدن وذلك بغلق الوعي بإحكام. إنه موْرد للمرء ليجعل نفسه غير متاح، ولا مرئيا سيكولوجيا، ولو أن الجسد يظل أحيانا قائم الذات في أعين الآخرين. بل يظل جامدا كما لو أنه مفرغ من كل حضور. دوام هذا السلوك باستمرار مع مرور الشهور أو الأعوام، يشهد أن هناك إرادة للغياب لدى الشباب الذي يفضل التبدد في الغيبوبة بدل

الحفاظ على العلاقات الاجتماعية. بعضهم يقاوم بهذه الطريقة دون شك، الخوف من الانهيار من جرائها، يتحكمون في نوع من العلاج بما كان هو الداء، للتخلص مما هو أسوأ بالتحكم في الظروف مع إبقاء إمكانية العودة، ولو أن شكلا ما من التعذيب يظل حاضرا أيضا في سلوكيات الغياب عن الوعي هذه، والتي تحاكي الموت حتى لا يحدث (لوبروتون، 2007). إن التعاطي الشديد للكحول هو تجريب للموت والولادة من جديد، ليس فقط عن طريق لعبة التعذيب الإلهي المتجدد باستمرار، بل أيضا من خلال المرور المقصود إلى عالم الإحساسات الذي لم يعد عالم الوعي العادي، ولكن دون أن يكون هو عالم الموت تماما.

يتعدى البحث عن غياب الوعي بالتأكيد سن المراهقة لوحده، بل يخص أيضا رجالا ونساءً انغمسوا في حياة مبعثرة تم تحمّلها عن طريق تناول الكحول بانتظام أو تناول مواد أخرى. تشخص المخرجة السينمائية مارينة دو فان (Marina De Van وجها نموذجيا عنه. فتصف، دون تحفظ، هذا الانفلات من الذات بفعل مواد تبرمج نوعا ما إيقاع علاقتها بالعالم قائلة: «أضع شاشة سميكة من الإدمان على الكحول والمواد الطبية بيني وبين عالم لا أريد أن أدرك منه أيّ شيء» (10،2013). وعلى مدى الكثير من الأحداث المتكررة التي تمزج بين الجنس والكحول والمخدرات، تقول إنها غالبا ما لا تتذكر أي شيء مما كانت قد عاشته ليلة الأمس (20) وهكذا يعرف الوجود اختفاءات منتظمة، إنه سعي حثيث نحو زوال يتم كيميائيا تفاديا للموت والاحتفاظ بحد أدنى من

المهام التي تحتاجها حياتها الاجتماعية ومواصلة نشاطها الفني. تقول: «اختفائي ليس لا إيجابيا ولا سلبيا. فجسدي يعمل، وشيء ما آخر ليس أنا يعيش بداخلي. لا أستطيع أن أكون سعيدة ولا حزينة لأنني لم يعد لي وجود هنا» (88).

العالم -المضاد للمؤثرات النفسانية

يعبّر الالتجاء إلى المؤثرات النفسية عن إرادة التشويش، وذلك من خلال البحث عن نوع معين من الإحساسات التي تتجدد باستمرار فتفتح في السريان الباهت والمؤلم للحياة اليومية، تفتح بابا سريا بشق طريق من أجل تجاوز حدود الشدة المتولدة عن تناول هذه المادة المؤثرة. إن العلاقة بالعالم، بما يترتب عنها من غموض، وهشاشة، ومفاجآت، تبقى محصورة مؤقتا لكن بقناعة من الفرد أن عالم الخلود أمامه، وأن الفعل يمكن أن يتجدد في كل مرة يحتاج فيها للحصول على الحالة المأمولة. في مقابل عدم يقين العلاقات، يضع المدمن العلاقة المنتظمة بالمادة المؤثرة التي تتحكم في وجوده بإشراط حالات جسده. إنه يخضع لهذه التجربة أكثر ما يخضع للمادة الكيميائية. فالذات هي التي تصنع مخدرها وليس العكس. والنتائج الشخصية للجزيئات ليست دائما هي نفسها بحسب انتظارات المدمن، واحتياجاته لتحقيق وجوده. ليست التبعية أو الإدمان بالضرورة هو الحل، بل يمكن أن يظل الاستهلاك تجربة دون عودة، أو بشكل متقطع لا يشعر المرء تجاهها بأي شكل من

الإعجاب أو الانبهار.

إن المادة المؤثرة هي نوع من التطبيب الذاتي الذي يسد احتياجا ما لتحقيق الوجود أو يمسح ألما ما، ولو أن كلمة الفارماكون (pharmakon) تعني في الوقت نفسه السمّ والترياق كما يذكرنا الاشتقاق اللغوي للكلمة. فيتكون لدى المتعاطي الإحساس بأنه أخيرا أصبح هو ذاتَه، إذ إنه لم يجد حلولا أخرى لكي يستمر في الحياة. وغالبا ما تكون التجربة الأولى حاسمة في تحقيق متعة ما، وتهدئة ما، واكتمال لم يعرف له مثيلا من قبل. أصبح وجوده منذ الآن كما لو أنه منقسم إلى ما قبل وما بعد. لكن مع مرور الوقت صارت المتعة ثانوية بالنظر الى ضرورة تخفيف أوجاع الفقد، وما يفتأ المدمن يجري وراء تجربة الأول مرة ولو أنه لن يجد سوى شبح إحساسات.

يحدث أن يقطع المدمن بيوكيميائيا الطريق داخل ذاته، بدل أن يواجه امتحان الواقع دون مقاومة. فالخلاص رهين بصيغة كيميائية. لم يعد الأمر يتعلق بنوع من العلاج من الألم الوجودي فحسب، بل أيضا بنوع من النمذجة الكيميائية للسلوكيات وللعاطفة. يعيش المدمن حالة جسدية متصدعة متشظية، وتعرف شظاياه العضوية شدة قوية، وترسم نوعا من المادة الجسدية الهاربة أو المتخفية التي توفّر عليه عناء اختبار الواقع. لم يعد عليه أن يتحمل عبء وجوده وعبء حالته المدنية، لأنه لم يعد يوجد إلا داخل خطوط شدة المؤثر، وداخل ألم فقدانه، وذلك في ذهاب وإياب هو

وحده الذي يسمح له بالوجود. يقيم المدمن لنفسه عالما خاصا به وحده، حيث لا يعود محتاجا لأن يكون شخصا محددا، يوجه طاقته الجنسية إليه هو ذاته فحسب.

يعتبر الدخول في حلقة الإدمان تخطيها للزمان والمكان، أو بالأحرى الدخول في زمان دائري ومكان متجانس، كل منهما مطلوب من لدن المراحل المؤدية لتناول المخدر فقط. ويتم محو غوامض العالم من خلال كيفية معينة في أن تكون هنا دون أن توجد فعلا، وفي منأى عن إكراهات الهوية. فالكل في تغير متبادل، الأشخاص، والأماكن، وحده واقع استهلاك المخدر يظل ملحا. فيمسح المخدرُ بجرة قلم قابليةَ الانهيار المزمن، والشعورَ بالخواء، بواسطة الانغماس المقصود في عالم من الإحساسات الخالصة حيث لم تعد الهوية فيه سارية المفعول مع إعطاء الشعور ببلوغ الحد رغم كل شيء، من خلال آلام الافتقاد بالتحديد.

وضعية الافتقاد هي الهاوية، هي ذوبان الذات، ونزيف من الخواء الذي يجب رأبه سريعا جدا حتى لا يتم إحساس بآلامه بعد ذلك. علاوة على ذلك، يعود الفرد بعنف وبكيفية مؤلمة للإحساس بذاته من خلال الألم الذي أحسه، ويرتبط من جديد بمقتضيات الحياة الاجتماعية لان عليه أن يجد الوسيط ووسيلة للأداء له. إن المخدر هو المؤشر الذي يسمح بالاستمرار في الحياة، وبالمقدار الضئيل من الموت الذي ينتصر على الموت الفعلي داخل لعبة الاستماتة حيث يتعلق الأمر بانتزاع يومي لقناعة الوجود المشروع

داخل العالم. وهو أيضا مقدار الغياب الذي يتجاوز لحظة الغياب عن الذات في الحياة الواقعية. هذه العلاقة الملتبسة بالمخدر الذي يعطي الحياة والموت في تواقت، تعزز نوعا من الوجود على شفا حفرة. إذ يتعلق الأمر بالعيش عن طريق التلاعب بالموت، مع القبول بالتأكيد بأداء الثمن في اليوم المعهود *(لوبروتون 2007)*.

حين تصاحب المخدر التبعية أو الإدمان، يصبح شكلا من ازدواجية الذات في عالم مضاد عليه يمارس المتعاطي رقابة جزئية، فالجسد في نظره ليس إلا جثة يجرها مكرها. وهو يحس أنه غير معني لا بهموم صحته، ولا بتغذيته، ولا بنظافته، ولا حتى بكرامته. هو جسد رث لا يصلح إلا لحقن المواد، وأحيانا أيّ مواد كيفما اتفق. يأتي الجسد هنا ليعوض المعنى، وتحل الحاجة (القابلة للرقابة) محل الرغبة (المنفلتة من الرقابة) والإحساس المتذبذب بالذات محل إكراهات الهوية. وبدل إيجاد علاقة دلالة ملائمة بالعالم تفرض الإحساسات نفسها لتوفر الوعاء الملائم. فالإحساس بالذات يرتبط إذن بتكرار هذه الإحساسات بهدف أن يشعر المرء أن له حياة، وأن له وجودا لم يعد يدين بأي شيء للروابط الاجتماعية المعتادة. فيأخذ بزمام أمر الخواء، لكن على حساب عالم واقعي غير مُجد. لم يعد جلد جسده يشكل حدودا كافية لضمان العلاقة باطني/ خارجي وداخل/ خارج دون أن تظل على الدوام متأثرة بالمواجهة. الأنا-الجلد المخروم بنزيف، وبغزو العالم للذات دون إمكانية وضع حدود بها يحمي نفسه.

يخلق جسد الإحساسات أخيرا على حساب الهوية الحميمية والاجتماعية قاعدة، ولو أنها ترتسم في اللاملموس لما هو حسي، وتؤدي الى آلام الشعور بالحاجة والافتقاد. إنها تعطي حدودا رمزية كافية لكي يأمل المستهلك إيجادها سريعا بمجرد أن تبتعد عنه. فالشعور بالحاجة، أو بالانفصام، ينتج عنه ألم يبتعد قليلا عن ذاك الناتج عن «العضو الوهمي». فإذا كانت هناك «حياة حقيقية» في مكان آخر، فإنّ «الجسد الحقيقي» بالنسبة إلى المدمن يوجد في الإحساسات التي توقظها المادة التي يتناولها والشعور الذي يخلّفه افتقادها. يقود المدمن وجوده بالفعل كشبح للشخص الذي كانَه. فالإدمان حين يشتد يصبح نوعا من محو الذات، أو الاختفاء المرتب، والانغمار في زمن لا محدود، والجمود في نوع من الأبدية، والتكرار اللانهائي. يكون الإدمان أحيانا مطلبا كهوية وحيدة لدى المستهلك الذي لم يعد يعترف بذاته إلا من خلال هذا المنظور («أنا مدمن»)، إنها هوية كقطعة غيار تمحي، هوية مدنية منحطة ومؤلمة.

سعي وراء حالة الإغماء

الإغماء المقصود هو طريقة للإمّحاء تتطور لدى الشباب المعاصر. هذا التعطش إلى حالة الإغماء ليس أمرا جديدا كل الجدة. إنه معطى أنثروبولوجي لكنه يتجدد حسب الأدوات المتاحة، وهو يعرف اليوم انتشارا مهما. يحكي ر.دومال (R.Daumal) تجربة كانت قد سكنته حينما كان في سن الخامسة عشر أو السادسة عشر، كان يريد في هذه الفترة أن يقوم بـ «تجربة الموت، مباشرة موته هو»، كما

يكتب. حاول بهذا القصد القيام بتجارب متعددة، يقول: «كنت أضع جسدي في حالة أقرب ما يمكن الى الموت فسيولوجيا، ولكن بحصر كل انتباهي لأبقى يقظا وأسجل كل ما يطرأ عليّ». إنه يغرق في حالة من اللاوعي باستعمال مادة قريبة في تركيبها الكيميائي من مادة الكلوروفورم (chloroforme) ، ولكنها أكثر تسميما. فكان يتحايل لأخذ ما يكفي دون أن يضيع تماما. يقول: «في اللحظة التي ألامس فيها درجة الغيبوبة تتساقط يدي مع المنديل الذي كنت قد احتفظت به تحت مناخيري والمبتل بالسائل المتبخّر». وهكذا عاش بكيفية متكررة «تجربة عالم آخر». فوصف نتائجها بتعيينها من حيث هي قريبة من الاختناق. «شرايين تنبض، وطنين في الأذنين، وضجيج في الصدغين، والوقع المؤلم لأيّ صوت خارجي مهما خفت، وارتعاشة في النور؛ وسرعان ما أشعر بأن الأمر قد اتخذ طابعا جديا، وأن اللعبة قد انتهت، وباسترجاع سريع لمجرى حياتي الى اليوم». الفوسفينات المتراقصة أمام عينيه تملأ الفضاء ككل. يقول: «في هذا الوقت بالذات، أكون قد فقدت القدرة على الكلام، وكذا الكلام الداخلي حتى؛ وقد كان الفكر أكثر سرعة مما يلزم لكي يجر الكلمات معه». إنه يجرب «عالما آخر»، «واقعيا بحدة أقوى، عالما فوريا، وأبديا، جمرا مشتعلا بالواقعية». لكن، بالموازاة مع ذلك، ينساق المتعاطي لضرورة تنفلت منه: «عليّ، تفاديا للأسوأ، أن أجاري الأمور؛ كان مجهودا جبارا وصعوبة متنامية باستمرار، لكنني أكون مرغما على القيام بهذا المجهود؛ إلى حين أن أسقط، دون شك، وقد فقدت التحكم في ذاتي، في حالة غيبوبة وجيزة جدا؛

فتترك يدي المنديل الذي كانت تمسكه، وأستنشق الهواء، وأظل لبقية اليوم مشدوها، مسطولا، مع صداع شديد في الرأس» *(دومال، 1953، 265 sq.)*. التوعّكات، المعاناة بعد ذلك، هي الثمن المقابل لما يطبع هذه التجربة من شدة. بل إنه يقول إن هذه التجربة كادت تودي بحياته، وإنه خرج منها بأعجوبة، ولكنه يأبى لنفسه أن يكون شاهدا عليها. يقول: «ولكنني لما تبينت مدى خطورة الأمر، توقفت عن خوض التجربة من جديد» (272). وفي حديثه عن الرؤى المنتزعة من الغيبوبة، يسجل إلى أيّ حد تعكس انتظارات الذين يعيشونها. إنها انعكاس ذهني حقيقي يعكس الجهاز النفسي للأفراد. اثنان من أصدقائه خرجا من هذه التجربة بانطباعات تافهة، لكن ثالثهم روجي جيلبير_لوكونت (Roger Gilbert Lecomte) ، عاش تجربة داخلية قريبة من تجربته. إن العمل الذي يقوم به روني دومال (René Daumal) ليس مطابقا تماما لألعاب الاختناق، ولكنه شبيه بها في بعض ملامحه: بالسعي للدوخة، والاقتراب من الموت جراءها، والعدة المستعملة (المراهنة على انهيار الذراع وعدم قدرته على إبعاد المنديل عن المخدر)، البحث عن الغيبوبة وما تحدثه في الذات. إنه عمل يهدف أيضا إلى الاختفاء عن الذات.

من بين الممارسات القائمة على السقوط الداخلي المبرمج، نجد «ألعاب» الاختناق التي تعمل عن طريق الخنق أو الضغط... ويتم العمل بهذه الممارسات من لدن الأطفال أو المراهقين الذين يجهلون في معظمهم درجة المغامرة التي تهددهم. فهم يستسلمون لها من

أجل بلوغ نوع من الإحساسات بشكل سريع، والاهتمام بتقاسم لحظة غياب مع الآخرين، بعيدا عن أعين الراشدين. بعضهم غير متصالح مع ذاته ويرتبط بالاختفاء المنتظم إراديا، وذلك بتكرار التجربة نفسها. وعلى العكس من ذلك يحرك الآخرين الفضولُ والرغبةُ في فهم واستكشاف قدراتهم الذاتية، وهم ينخرطون في منطق المراهنة لاكتشاف أجسادهم وتحقيق السيادة بأن تكون أنت ذاتَك.

تحيل «ألعاب» الاختناق على بحث حثيث عن الغيبوبة من خلال الضغط على الشرايين السباتية، أو الضغط على القفص الصدري ذاتيا، أو بواسطة شخص آخر، وذلك بعد التنفس بإيقاع سريع قصد إحداث فرط تهوية. فالخفض العنيف والمباغت في الأكسيجين وتقييد الدورة الدموية، كل ذلك يؤدي إلى فقدان للوعي؛ وارتخاء الضغط يؤدي الى تدفق الدم في الدماغ. فإيقاف، أو تباطؤ عملية التنفس، أو هما معا، يدمّران خلايا الدماغ بشكل لا رجعة فيه، محدثين أحيانا أزمة صرع. وهكذا تستهدف هذه الألعاب توفير لحظة زلزال إحساساتي يُدرَك باعتباره مستعذبا، قبل استعادة الوعي، أو قبل إسعافات الأصدقاء لاسترجاع الحيوية من جديد. فقدان الوعي هو لحظة بين بين، والاختناق الذي تخترقه إحساسات قوية، وهو الشعور بأنك في مستوى القيام بسلوك غير معتاد، لا يقوم به إلا القليلون. مبدئيا يمّحي فقدان الوعي بمجرد التخلي عن الضغط، لكن نقص الأكسيجين في الدماغ l'hypoxie cérébrale ينتج عنه إتلاف لا رجعة فيه بعد ثلاث دقائق، والموت بعد أربع أو

خمس دقائق. يجري هذا اللعب في الغالب بشكل جماعي، إلا أن البعض يستمرّ فيه بشكل فردي مضاعِفا الخطر دون علم بذلك. يلجأ هؤلاء لإحداث الخنق، إلى رباطات، وحبال، وخيوط أو أحزمة. لكنهم يفقدون التحكم كليا في العمليات التي يقومون بها. إذ يوقف الرباط حركة تنفسهم، فيفقد الهواء الذي انحبس داخل رئتهم شيئا فشيئا نسبة الأكسيجين فيه (الاختناق-anoxie) . وإذا لم يفكوا الرباط بسرعة قبل الحرمان التام من الأكسيجين، فإنهم يسقطون في غيبوبة (coma) في بضع ثوان، ويتعرضون لإتلافات دماغية لا رجعة فيها، في بضع دقائق، أو للموت. وإذا كان الشاب بمفرده فلا أحد سيعلم به لدق ناقوس الخطر، وهو فاقد الوعي وسيموت مختنقا. وفوق مخاطر الإتلافات الدماغية أو الموت، هناك أيضا مخاطر الجروح المترتبة عن السقوط أرضا جراء فقدان الوعي.

تتجه ممارسات الاختناق هذه، التي عرفت منذ تاريخ بعيد بأنواع متعددة، تتجه لأن تتضاعف لدى الأجيال الشابّة منذ بضع سنين وبشكل ملحوظ بفعل المدونات (les blogs) وشبكات التبادل والتواصل كاليوتيوب (You Tube) التي تعمل على توسيع الاهتمام بها والانجذاب نحوها الى ما لا نهاية عن طريق التعريف بها. وتمس هذه الممارسات المراهقين، وأحيانا الأطفال، أو الشباب من الراشدين، المنحدرين من جميع الأوساط الاجتماعية، الذكور منهم خاصة، ولو أن هنالك أقلية من الفتيات اللواتي تنخرطن فيه. ولم يتم إحصاء أيّ وفاة بشكل رسمي قبل سنة 1995، وأولى الكتابات الطبية لم تظهر قبل سنة 2000 *(راسل 1420 2008 Russell)*

فالعديد من الوفيات، التي اعتبرت منذ بضع سنين على أنها انتحارات، كانت حوادث ناتجة عن ممارسة فردية لألعاب الاختناق (jeux d'étranglement). وإن نقطة سوداء، أو عماء ما، يحولان دون إجراء تحقيق دقيق حول معدل الوفيات السابقة لهذه الألعاب قبل السنوات الأخيرة. وإلى اليوم، لا يزال الغموض والخلط قائمين في الغالب بين الانتحار والموت الناتج عن حادثة.

تتخذ ألعاب الاختناق هذه العديد من التسميات: الحلم الهندي (rêve indien)، غيبوبة هندية (coma indien)، الحلم الأزرق (rêve bleu) ، لعبة الضفدع (jeu de la grenouille) ، لعبة الرئتين (jeu des poumons)، لعبة الكون (jeu du cosmos لعبة البناضورة (jeu de la tomate). وفي أمريكا الشمالية أو في المملكة المتحدة، تتعدد التسميات أيضا، وهي بلغتها الأصلية:

Choking game Blackout Suffocation roulette
Space monkey Flatliner Breath play Space cow boy Funky
chicken Suffocation roulette Passout Mess trick California
high Rising sun Sleeper hold American dream Air planing
Scarf game Cosmos Black Hole Purple dragon Purple hazing Tingling game High riser Fainting lark Speed dreaming Intento desmayo...

يشهد الإسراف في الألفاظ الدالة على هذه الممارسات، ولكل لغة خصوصياتها في التسمية، يشهد على انتشارها بين الأجيال الشابة عبر العالم.

تصدر هذه الممارسات عن انفصال جذري عن المحيط العائلي

الذي يظل على غير علم بها. ليس بسبب الوعي بالخطر أو مخافة الاستنكار والمنع، ولكن بسبب الحدس بأهمية الاستسلام لممارسة غامضة من المحتمل أن يرفضها الراشدون. إنها ممارسات تتم بين المقرّبين، وهي غارقة في سر ألعاب الطفولة أو المراهقة شيئا ما، على طريقة الألعاب التي تدور حول الجنس والتي لا أحد من الأطفال يعلنها لأبويه. ممارسات تُحدث البهجة المتولدة عن انتهاك الممنوع الخفيّ أو الضمني، كما تساهم أيضا في اختبار الذات أو إخضاعها للتجريب. وبغض النظر عن الإحساسات التي تحدثها هذه الممارسات، فهي تغذي الشعور بالقوة الشخصية على أنك قد تجرأت على فعلها، وتشكل لحظة تقاسم مع شهود التجربة. فالمجموعة حاضرة دائما تقريبا لتأطير اللعبة مع الحفاظ على الاحتماء بعناية بعيدا عن مراقبة الآباء أو المدرّسين. وتتخذ هذه الممارسات معنى اللعب في نظر الشباب. فألعاب الاختناق هي نوع سهل من الدخول في حالة أخرى من الشعور، ويتم إعطاؤها قيمة، والرفع من تميّزها نظرا لبعدها المتخفي والطفولي. إنها تحوّل الإنجاز المتفوّق داخل المجموعة لأولئك الذين يغامرون فيها.

لا أحد من الشباب يبتكر من تلقاء نفسه الأفعال التي يتطلّبها البحث عن الغيبوبة. فالآخرون هم الذين يعلّمونه ويوحون إليه بالانطباعات التي من شأنها أن تتولّد عنها، فهم يساعدونه دون تردد على بلوغها، كما يجعلونه يسترجع وعيه. هذا، فإذا لم يعمل أنظاره على التواصل معه مباشرة، فإن مواقع الأنترنيت، والتدوينات، ويوتيوب أو وسائل أخرى للثقافة الرقمية، تضمن

تناقلها على نطاق واسع. وداخل مجموعة الأقران تتعذّر مقاومة الرغبة في الاندماج داخل القوالب نفسها، خصوصا بالنسبة للأولاد الذكور. فعدم تقديم البرهان على القيام بتلك الممارسات يؤدي إلى التهديد بالنبذ، أو بالاحتقار، أو إلى الشعور بالإقصاء من تجربة الآخرين. فيضطر الشاب إلى القيام بخطوة لا تعنيه دائما. ورفض تقاسم ما يعيشه المقربون يعرّضه لفقد ماء وجهه. لكن وحدهم أولئك الذين تحقق لهم لحظة الامّحاء من الذات إلهاما عميقا سيستمرون في التجربة.

بالنسبة للشاب الذي تمّ استجوابه بهذا الصدد، يعجز الكلام عن ترجمة شدة الفوضى التي تعرفها الإحساسات المعاناة بدلالة الشفرات التي يقترحها عليه الآخرون، والتي بها يدبّر أمره. فوصف التمثلات، أو المدركات المرتبطة بالغيبوبة وتحليلها، يعكسان جدلا دقيقا بين الفرد والجماعة المحيطة به. إذ يحدّد الشاب الوضع بتعديله حسب حيثيات تجربته من جهة، ومقترحات الآخرين من حوله من جهة أخرى، إنه رهين بشكل كبير برأي أولئك الذين يرافقونه، خصوصا إذا كان مبتدئا يهمه الالتحاق بأسرع ما يمكن بتجربتهم قصد الشعور بأنه في المستوى. وتقوم مهمة المطلعين الذين يتتبعون محاولاته غير المضبوطة، في طمأنته على انطباعاته، وكذا في تلقينه كيف يتعرف على بعض الإحساسات باعتبارها ملائمة لفعل تحقيق الانتشاء بتأثيرات الغيبوبة وذلك في تلاؤم تام مع تجربتهم. إنه يتعلم في لقاءه بهم، كيف يميز هذه الإحساسات الهاربة، التي كانت بالأحرى مستهجنة في البداية،

وكيف يربطها بالمتعة. إنّه نوع من الترميق أو البريكولاج يتم بين ما يقوله الآخرون له وبين ما يتخيله هو .[8]«بفعل التدريب كنا نتحسن وكنا جيّدين، وبعد ذلك كنا نستطيع أن ننجح في ذلك كل مرة. وكنا نستطيع أن ننجح في جعل الآخرين يقومون بذلك أيضا» (جيريمي 12_13 سنة في ذلك الوقت). إذا كانت التأثيرات الفسيولوجية التي تحدثها الغيبوبة تبدو غير سارة أثناء المحاولات الأولى، فإنها تتحول عند البعض مع مرور الوقت إلى إحساسات مرغوب فيها، ومطلوبة لأجل أن يحققوا متعتهم وخروجهم عن المألوف. وعملية إعادة تشكيل حالة ما تم الإحساس بها من قبل تجرى على مستوى الدلالة التي تحملها الحالة ذاتها. فبإعادة تعريف هذه الحالة على أنها سارة، وذلك بأن يجعل الأقران المتعاطي يغيّر من طبيعتها، سواء كتجريب، أو كلعب بالموت بفعل الضجر والإنهاك جراء أن تكون أنت ذاتك، فإن محاولة سريعة للهروب إلى عالم آخر على شكل طفولي، وهذا الذوبان أو التحلل من الذات هو أساس الانجذاب نحو ألعاب الخنق هاته.

---

(8) لنتذكر بهذا الصدد تحليلات هاوارد بيكر Howard Becker فيما يتعلق بالمدخنين الشباب للمارخوانا الذين يكون عليهم هم ايضا أن يقنعوا أنفسهم بالاستمرار رغم التجربة المبدئية غير السارة في الغالب "لا تكون الاحساسات المتولد عن استهلاك المارخوانا آلية، ولا حتى مستحبة بالضرورة. كما يلاحظ هـ. بيكر .H.becker مثلما هو الامر بالنسبة للمحار les huitres أو المارتني دراي Martini Dry ، فالذوق بالنسبة لهذه الاحساسات يكتسب من المجتمع. فيشعر المدخن بدوار وبحكة في فروة رأسه: كما يشعر بالعطش: ويفقد الإحساس بالزمن وبالمسافات. فهل كل هذا يبعث على السرور؟ هو غير متأكد من ذلك. ومن أجل الاستمرار في تعاطي المارخوانا، يكون عليه ان يوثر الجواب بالإيجاب"(1985، 75). من أجل التوسع أكثر حول انتروبولوجيا الإحساس Cf.le Breton 2006

إن تأويل الممارس لما يحس به ينبني في الأساس على المفاتيح التي تمّ اقتراحها عليه، أو تلك التي سمع الحديث عنها. إنها تتلخص في الغالب من خلال الكليشيهات أو العبارات مثل: «ارتفاع الأدرينالين montée d'adrinaline»، والانطباع بأنك تطير والرؤى المهلوسة للنجوم، وللأضواء، والألوان، وللكون، ورؤية كائنات عجيبة غير مألوفة.... «حينما كنا نعام، كنا كمن تغمره سعادة ما، وتحيط به، فلم نكن نحس بعد بالألم، بل لم نكن نحس بأيّ شيء، وكنت أبحث عن هذه السعادة. كنت في البداية أقوم بذلك مع المجموعة، وبعد ذلك بمفردي. أعتقد أن الأمر نفسه كان يحصل كذلك مع رفاقي. ولم أكن واعية بمدى الخطورة» *(لودفيكا،17 Ludwikas سنة، أنظر كوشي Cochet، 2001، 125)*

«كان يحدث لك انطباعٌ بأنك قد نمت لعدة أيام، بينما كان الأمر لا يتعدى حتى الدقيقة الواحدة من الزمن. بل هي كانت عشرون أو ثلاثون ثانية فحسب. وعندما تستيقظ تكون بالتأكيد قد فقدت الوصلة. كنتَ تعرف في بعض الأحيان أن الأمر سيحدث لأن النجوم قد تراءت لك بمجرد أن تتنفس بعمق[...]. يذكّر هذا ببلوغ التخدير مداه، أو بلفافة حشيش تم تدخينها بعنف. ويكون لديك بعد هذا وقع أزمة قلبية. فتشعر أن رأسك يلف بقوة» (جيريمي12_13سنة في ذلك الوقت، واليوم 30 سنة). «فجأة أشعر شعورا قويا بأنني بخير، وبأن السماء ذات زرقة صافية، وأن طائرة عملاقة تمرّ من فوقي بالضبط، في صمت مطبق. فأشعر أنني بخير. ثم أستيقظ، فأجدني ممدّدا على الأرض. ويحدث الاستيقاظُ

اضطرابا بشكل سيء. حدثني[أصحابي] بأنني أصبت بتشنجات خلال بضع الثواني هذه(*سيريل 15 سنة وقتها، أورده كوشي Cochet، 2001، 155*). إنها كانت الأدرينالين والخوف. شيء ما مثير، ونوع من التحكم، وذلك في سن لا نكون فيها متأكدين من التحكم في كل شيء، لكنه كان شيئا ما من هذا القبيل» (ناتالي،12 13سنة ذاك الوقت). «كانت المرة الأولى أشبه ما تكون بغيبوبة بيضاء غير حقيقية. استيقظت: كان الأمر رائعا، وكان لدي انطباع بأنني كنت أحلم، كان الأمر جيدا، ولا زلت أتذكر هذا. أحسست وكأنني فوق سحاب»، تتذكر كلوتيلد التي كان عمرها أثناءها 14 عاما، ولكنها ستتوقف بعد تعرضها لاضطرابات هلوسية.

يقدم وينيكوت في نص له حول «القدرة على الوحدانية» مقولة «الانتشاء الجنسي بالأنا» لتوصيف نوع من الإثارة يكتسح الفرد في كليته. إنها لحظات من غيبوبات قصيرة أو سريعة جدا، تخلّص الفرد المعني من عبء أن يكون هو هو، وتمنحه الشعور بأنه قد تمدّد خارج حواف جلده(*وينيكوت Winnicott،1969، 212*). ولكن البعض لا يفهم أن يكون هناك من يبحث بكل شغف عن تجربة تتركهم باردين جامدين، على غرار نيكولا الذي يقول واصفا تجربته: «يشبه الأمر نوعا ما الإغماء الكلاسيكي، والشعور أنك تطفو، وتنتابك هلوسات خفيفة. نعم، هذا وصف لما أشعر به» (نيكولا،25 سنة). لقد مارس التجربة مرة واحدة في الثانية عشر من عمره بإيحاء من صديق له. «وقد أعدت حرفيا ما كان قد أوضحه لي رفيقي وأنا مغمض العينين. قمت بخنق نفسي، وفي هذه اللحظة لم أعد أتذكر

شيئا. ووجدتني عندما استيقظت ممددا، وهنا سألني أصدقائي: «كيف كان الأمر إذن؟» وما دمت متعودا أن يغمى عليّ في غالب الأحيان دون أسباب حقيقية لمّا كنت أصغر سنا، فإنني لم أجد بصفة خاصة اختلافات تذكر عن الإغماء الكلاسيكي». لم يُعد الكرّة بعد ذلك أبداً.

تساهم ممارسات الاختناق هاته في البحث عن الذات الذي يعني بصفة مميزة المراهق الباحث عن الشخوص التي يحتويها بداخله. وإذا ما استحضرنا ر. دومال (R. Daumal)، لا بد من التأكيد على البعد الروحي لهذه الممارسات. إنها تعترض على الأوامر التي تعلي من شأن المظهر الخارجي أو اللّوك، والصورة، والعلامات التجارية أو الجسدية. وذلك في عالم يشهد على النفور من كل أشكال الحياة الباطنية *(لوبروتون، 2015، لوبروتون2009)*، لصالح المظاهر الخارجية وحدها: أعني وضع المراهق كل عمقه على واجهة السطح الخارجي لذاته. فممارسات الاختناق هاته هي بالتحديد إرادة للبحث أخيرا عن حقيقة تتبدى خارجا. يمتلك هذا الإغراق في عالم داخلي كمغارة تحتاج لمن يزيل عنها وحشتها، جاذبية قوية بالنسبة لعديد من شبابنا الذين تعتبر ثقافة الفورماتاج التي يفرضها الماركيتينغ وقانون السوق، هي ما يميز ثقافتهم. إنه بعد آخر للواقع، وهو بُعد لم يعد يدبره الوالدان، ولكنه يدبر من خلال علائق الرفقة الحميمية التي تعيد إحياء نموذج عدد من الحكايات التلقينية الموجهة للمراهقين: فتح الباب الضيقة المؤدية لعالم مجهول، وسري، مليء بالقوى التي بالإمكان اغتنامها. إنه

انبلاج لروحانية متوحشة في مجتمع تختفي فيه الأديان أو تفقد فيه أهميتها، وهو انتشار لاستكشافات حميمية متعلقة بالمقدس، وبما هو روحي. يتحلل الشاب للَحظة من الإكراهات التي تطلب منه أن يكون هو هو، والتي «تشغل باله». إنه اختفى ولم يعد هنا.

حتى المراهق المتصالح مع نفسه يعيش لحظات يشعر فيها بالانهزام، وبالملل، وبعدم الاطمئنان على ما سيصير عليه في المستقبل، وعلى الاختيارات الصعبة التي عليه القيام بها. فمحو الذات، ولو لبضع لحظات، هو إغراء يصعب استبعاده. وهو تجربة بياض حيث يتطلب الأمر بالضبط التحلّل من عبء الذات. يرفض بعض الشباب بذل المجهود للحفاظ على الشخص الذي تطلبه الروابط الاجتماعية منهم. ويرمي آخرون، بكيفية متكررة، إلى القيام بالتجربة نفسها، تجربة الاختفاء التي لا تقل خطورة، وذلك من خلال السعي الحثيث نحو الغيبوبة، أو عن طريق تناول مواد حرفت عن استعمالها المعتاد: خلطات من الأدوية، مواد تطهير، أو مواد لصاق، واستنشاق غاز بوتان، أو أنواع أخرى من الغازات الخاملة كغاز البروبان على سبيل المثال، وذلك قصد عيش لحظة عدم ضبط النفس هذه. تسبّب بعض هذه المواد، كالقنابل المزيلة للغبار عن الحواسيب، وقنينات البنزين الخاص بالولاعات، أو علب الهواء الجوي على سبيل المثال، تسبّب، من بين ما تسبّب، تغييرا في الصوت، وانفجارات من الضحك المنفلت التي تستأثر برغبة بعض من الشباب لتجديد التجربة. كما أن هذه المواد تؤدي أيضا إلى إحداث لحظة تشويش الذهن، ودوار، وانتشاء... وتمنع

هذه الغازات، التي تصنف باعتبارها خانقة، تمنع السريان الألفيوليري للأوكسيجين، فتحدث تشويشا مؤقتا للحواس أو تسبّب الإغماء، وأحيانا الموت. لا تكلف ممارسات الدّوخة أو الدوار المكتسحة بقوة، نظرا لتأثيراتها السريعة، لا تكلّف إلا القليل، أو إنها لا تكلف شيئا تقريبا، وتأثيراتها تتلاشى بأسرع ما يكفي، ولو أنها تخلف آثارا وخيمة على عضوية الشاب دون علمه بذلك.

ليس الاستيقاظ الشاق، والتّشويش الذهني الخفيف، والشعور بالغثيان، والتقيؤ، وصداع الرأس، كل هذه الحالات ليست في نظر الشاب إلا الثمن المقابل لتجربة تَظهر له على أنّها تجربة خلابة. إنّ الغيبوبة هي رفع مؤقت لإكراهات الهوية. وحركة اهتزاز تنتزع من كل وعي. نوعٌ من مغادرة العالم للَحظة والعودة إليه ثانية. إنّها مواجهة رمزية للموت بأخذ المبادرة منها. الغيبوبة هي المقابل الفزيائي للّعب بفكرة الموت التي تصيب المراهقة على وجه الخصوص. هي نوع من الألفة أو إزالة الوحشة، إنها موت صغير لدرء ذاك الذي لا رجوع بعده أبدا. يبدو هذا الانغماس في عالم مضاد في نظر البعض أنه لا يقاوَم لدرجة الانزلاق في التبعية والوقوع تحت رحمته، وتكرار الحركات نفسها لعدة مرات في اليوم.

اختفاء وعودة

يدخل الشاب بممارسات الاختناق هاته، وبالإدمان الأقصى للكحول، أو اللجوء للمخدر، يدخل في عالم من الإحساسات الصافية التي يعود منها بلا ذاكرة في أغلب الأحيان. يمّحي ويتيه

كشبح في فضاء داخلي يستحيل الإمساك به أو تسميته، ويطفو في نوع من الغياب. لقد تخلص من ثقل ضغوط المعنى ومن الروابط الاجتماعية، ولم يعد عليه أن يتحمل ثقل هويته. ولكن الهدف ليس هو تخزين ذكريات ستتم غربلتها فيما بعد، وإنما الهدف هو، في غالب الأحيان، الاختفاء من هنا. فيكون الفرد في هذه الحالة، قد تحرّر من مركزه ومن وحدته، ومن كل هويته إذن، ويطفو في فضاء له بالكاد وعي به. لقد كان همه هو أن يتخلص من ثقل وجوده السابق، من هوية ثقيلة جدا على حمله. لم يترك بعد أيّ أثر، وقد تخلص من الإكراهات ومن نداءات الذاكرة. ولم يعد يعرف من أين يبدأ ولا أين ينتهي، لكنه غير مكترث لذلك. لقد سقط في الفراغ لينفلت من الخوف من الفراغ. وهو تحت تأثير هذا التحرر. إنه، على غرار شخوص بيكيت، محروم من مركز الثقل، ومتحرر من كل حالة وعي، إنه اندثار حقيقي خالص: «أين الآن؟ ومتى الآن؟ ومَن الآن؟ من دون أن يُطلَب مني ذلك. أقول أنا. دون أن أفكر في ذلك. سمّوا هذا أسئلة، افتراضات» (بيكيت، 1972، 5). لا يحتفظ الوقت الذي يمرّ بأيّ شيء، غياب خالص، وخلاص من مجهود الفرد كي يكون هو هو. يلغي الفرد الديمومة، بكيفية مؤقتة بالتأكيد، لكن هو خارج تاريخه الشخصي، لقد كفّ العالم من حوله عن أن يحاسبه، لقد أوقف الزمان بإدارة ظهره له، وهكذا جمّد الأحداث، ولم يعد متأثرا بها بعد. ولم يعد في وضعية المتفرج، إنه يتجاهلها.

إن تجربة **البياض** هي تجربة الموت والولادة من جديد، ليس فقط

عن طريق اللعب بقدر متجدد باستمرار(لوبروتون،2007)، ولكن أيضا من خلال المرور المقصود الى فضاء المعنى الذي لم يعد ذاك المعنى الذي للوعي العادي أو المألوف، دون أن يكون هو وعي الموت كلية. ففي الوقت الذي يكون فيه الفرد تحت رحمة المخدّر، ينزلق نحو عالم مضاد. يصبح لا أحدا، لا شخصا معينا، بل حقلا من الإحساسات. يتحول تعديل الوعي إلى موضوع انتقالي للمضيّ قدما، وفي لعبة إعادات متتالية للولادة. يكون **البياض** في هذه السلوكيات اختراقا للموت لا ينفك يتم. إن سلوكيات التحكم هذه، هي محاولات للهروب من الذات بواسطة مادة ما، أو بفعل حركة ما من شأنها أن تحقق تهدئة مؤقتة. لقد تم تحييد الزمان، وأصبح بيد الفاعل الذي يلعب بالموت في تعاون معه. إنها رغبة في الضياع مقصودة لتفادي الضياع بعد ذلك، عودة للأخذ بزمام الأمور، بصيغة ما كان هو الدواء، ولو اعتبر هذا مفارقة إلا أن البعض لا يعودون أبدا بعد استكشافهم للأغوار.



4. الزهايمر، داء تلف الذاكرة: الاختفاء من الوجود الذاتي

«سألته في المصعد، سؤالا لم يفهمه. قطب حاجبيه، وبحث عن جواب، لم يجده، ووجد: (هناك قبر بداخلي) ثم صمت بعد ذلك. لقد نسي ما تلفظ به للتوّ. وأخذ ينظر إلى باب المصعد وإلى الأرقام التي تضيء من فوق الأزرار».

كريستيان بوبان، **الحضور الخالص**

الشيخوخة

تشهد العبارة «شخص مسنّ» على التباس من حيث إنها تقلل من خصوصية كل فرد حسب تاريخه الشخصي وحسب إمكاناته الجسدية والمعنوية. إذ لا بد دائما من مراعاة الفروقات البسيطة الفاصلة عند إضفاء وجه ما أو صفة ما على الشخص، وذلك لتفادي التعميمات المفرطة. يعتبر التقاعد عن عالم الشغل في مجتمعاتنا الغربية كأكثر العلامات إثارة، إذ يتم عنده انتزاع الأدوار القديمة بشكل بطيء من الأشخاص المسنين. ومع ذلك فإذا امّحت بعض الامتيازات النرجسية من وجودهم، فإن أخرى تظهر.

ينتج عن الشيخوخة تعديل للذات وللعلاقة بالعالم قصد

التكيف مع القدرات الفسيولوجية التي ما فتئت تتغير، ومع روابط اجتماعية تتغير هي بدورها، ومع جدول زمني لم يعد كما كان من قبل. إنها بيئة تقنية من الصعب ضبط عملها، وهي ما تفتأ تتغير، يرافقها في الغالب الشعور بانفصال زمني عن عالم محيّر. فلا أحد يدرك الى أين تقوده شيخوخته. كثير من المسنين يكتفون بالعيش في النهاية حسب إيقاعهم بتكريس أنفسهم لهواياتهم المفضلة، أو الانكفاء على أسرهم، وأحفادهم ... بينما ينخرط آخرون في الأسفار، أو في أعمال جمعوية للتطوع، ولنوادي رياضة المشي البري، أو أنشطة الحي الخ. وذلك من خلال إبداع اليومي، ينظمون تنقلاتهم، ومهامهم المنزلية، وهواياتهم الترفيهية، فيقللون من ممارساتهم، أو يكثرون منها، بحسب أوقات معينة، يرفضون بعضها أو ينفتحون على أخرى. إنها حركة تنفس للالتزام والانسحاب تصاحب التقدم في السن وفقا لتعديل مستمر. يظل الشخص المسن بكامله في وجوده، أو بحسب إيقاع الرغبة في الحياة، ولو أنه يتخلى عن بعض الممارسات التي يحبها من خلال استبعاد تدريجي *(كاراديكCaradec، 2008، 87 وما يليها)*. فمركز ثقل سريان الشيخوخة بالنسبة إلى الشخص المسن، يتعلق بدرجة ارتباطه بحياته اليومية أو بأحلامه. هو وحده يجب أخذه بالحسبان في هذه الدلالات التي تؤثر فيه بعمق، إنها ليست مسألة عمر، وإنما قضية علاقة بالعالم.

إذا كانت الشيخوخة تعاش في الغالب بكيفية سعيدة من حيث هي تجديد للمتع وللمهام، فهي أيضا امتحان لما يجعل استمرارية

الشعور بالذات وبقيمة الانخراط في العالم أمرا صعبا في بعض الأحيان. إنها تتحول إلى اختفاء بطيء عندما يلاحظ الشخص المسن أن قواه تتقلص، ومقومات صحته تدمّر. يفقد الجسد أهميته ويصبح أكثر غموضا، يعمل على إسماع صوته بكيفية أكثر إيلاما، وإلحاحا. ويتغير شيئا فشيئا، ويتعذر عليه أحيانا التعرّف على نفسه، ويصبح وجهه غريبا عنه، ويساهم تقلص إنجازاته في نوع من التخلي عن الذات. تتم سلسلة من الحدادات الصغيرة جدّا داخل العلاقة بالعالم، لأن القدرات تتضاءل ببطء على مستوى الحركات، والمقاومة، والرغبة، والذاكرة، والرؤية، والسمع. فيظهر للعيان تردّد منضبط على الطبيب. وتصبح الأمراض والآلام مزمنة. وفضلا عن ذلك، يصبح من الضروري التلاؤم مع الظروف التي تَحدّ من الحرية والحركة وتُنغّص طعم الحياة. فيحل العياء الذي لم تعد الراحة تهدئه وتخفف منه، ويجبر على تقليص الأنشطة. حينها تنساب الشيخوخة بهدوء من النبع دون أن تعكّر طعم الحياة، تقود إلى تحولات جسدية لا مرئية. فلا يشعر المرء بأنه يشيخ إلا عندما يتعرض لوعكة صحية ما، أو بعد السقوط أرضا، أو بعد حدث مؤلم ينتج «مسحة شيخوخة» مفاجئة. ويعتبر موت شريك الحياة بهذا الصدد لحظة حاسمة من شأنها أن تغذي لدى بعض الأشخاص الاقتناع بأن وجودهم انطلاقا من الآن قد انتهى، ولو أن آخرين على العكس من ذلك، يعيدون بناء حياتهم اليومية من جديد، وجدول زمنهم، وحياتهم الاجتماعية بسرعة. هي كبوة مؤلمة بالنسبة للّذي بقي على قيد الحياة منهما يكون عليه أن يُواجِهَها، لكنه

أحيانا يموت في الأيام أو الأسابيع الموالية جراء استنزاف طعم الحياة. لقد «استسلم أو استسلمت للموت» كما يقال عادة. فالأغيار الدالين الذين كانوا يرافقونه، وكانوا يثبتون الواقع الاجتماعي لعالمه، يمحون ببطء أو بعنف في حالة أخفى الموت الشخص الوحيد الذي كان يحقق له هذا التوازن. إذا كان التحول أكثر بطءً، فإنّ كل وفاة تجرّ معها جزءا من التاريخ الشخصي، بتقلص نسيج العلاقات، وبما أن الشخص يفقد دائما الرغبة في تأسيس علاقات أخرى، أو النضال من أجل المحافظة على شخصه، فإنّه يحاول أن يحافظ على معنى وقيمة لوجوده.

في الحال التي يكون فيها الشاب في بناء مستمر بفعل الرغبة في أن يوسّع مجال علاقته بالعالم مع التوفّر دائما على الوقت أمامه، يكون الشخص المسن في سيرورة معاكسة تحقيقا لرمزية الخسارات مع الشعور بحتميتها في نفس الوقت. وما يفتأ الشعور بالهوية يتعدل في اتجاه إعادة إصلاح كان ذا أهمية بالنسبة إليه، لكنه قد اختفى. يعيش ليريس هذه الحال بكيفية مؤلمة يقول: «عندما لا تعود تنظر للإمّحاء بسبب الموت، أو بسبب التقدم في السن، كقدر ولكن على أنه شر يتربص ليضربك، فإنه يحدث _وهذه حالتي_ أن نفقد حتى الرغبة في الاستمرار: نثمن الوقت الذي لا زلنا نتوفر عليه، الوقت المشنوق، لا علاقة له بتلك الفترات التي كان فيها من المستبعد التفكير أن مقاولة ما كان بإمكانها أن تخطيء موعدها المراد بأن تتطور بحرية وهذا يمنع كل وثبة» (1976). بمجرد ما يكون لدى الفرد، كيفما كان عمره، الشعورُ بأنه يعيش في زمن يتم احتسابه،

يكون من الصعب عليه أن يعطي انطلاقة مشروع ما أو رغبة ما. وتأتي الخسارات التدريجية المرتبطة بالعمر في كل مرة بخطر الضياع. وتعتبر الشيخوخة بهذا المعنى فقدانا تدريجيا يعتري الشخص المسن، وانسحابا بطيئا، يترجم أيضا باختفاء أصدقائه القدامى، وأفراد عائلته أو بعض جيرانه، والانسحاب من المسؤوليات المهنية السابقة، وانبعاث العيوب المحتملة. ثم تردد موت الأقارب أكثر فأكثر، وكذا موت الأصدقاء من نفس الجيل، فيتوجس المسنّ من أن يجد نفسه وحيدا أكثر فأكثر. وتتلاشى شيئا فشيئا التحديدات العائلية المترسخة بشدة، فتجب إعادة إرساء أخرى، لكن الحداد على الذات يكون أكثر سهولة حين مرحلة الشباب أو مع الشعور بأن لازال هناك وقت طويل للعيش.

تكون الشيخوخة أحيانا عمل حداد بطيء وخسارات تؤدي الى تدمير علاقات وممارسات كانت من قبل محط تقدير. يقبل الشخص الذي يشيخ شيئا فشيئا ألا يُبقى بحوزته إلا جزءا محدودا من تحكمه في وجوده. هو بالتأكيد يعيد بناء علاقات أخرى، لكن عددا من تلك التي كانت غالية محبوبة لديه قد أخذت تختفي. يتحدث ف جانكيليفتش (V. Jankélévitch) بهذا المعنى عن «العمر الذي يكون فيه الأسف على كل شيء ولا يكون فيه شيء مأمولا» *(جانكيليفيتش، 1977)*. بعض الأشخاص يعيشون بكيفية مؤلمة أكثر، مقارنة بآخرين، واقعَ أن يشعروا أنهم ابتعدوا عما كانوا عليه من قبل، وأن يشهدوا اختفاء واحد تلو الآخر من آثار الماضي الذي عاشوه. تنحل أحيانا الشخصية القديمة حين يتلاشى درع النجاح

الاجتماعي أو المهني. ينبغي، والحالة هذه، أن يقبل الشخص المسن أنه لم يعد ذاك الرجل ولا تلك المرأة اللذين كاناهما لمدة طويلة جدا من قبل.

ينتهي الوجود من إصابة نرجسية إلى أخرى بأن يصبح عبئا ضاغطا. يجعل تعدد الوعكات الصحية العلاج صعبا بسبب الانتزاع من محل العيش، المكان الوحيد الذي يشعر فيه المرء أنه محمي. منذ الحين الذي يبدأ فيه الانطلاق في الزمان يبدأ في مواجهة تعثرات جسدية، وفقدان المعنى، والملل، والشعور بأن لم يعد هناك شيء لتقديمه، وغياب أوجه الارتباط، حينئذ يصبح من المؤلم أن تشيخ.

يرتبط مدار القول في هذا الفصل بالتأكيد، لا بالشيخوخة السعيدة للذين أو اللواتي يظلون إلى النهاية في المستوى مع ما يخصهم ومع أقاربهم أو أولئك الذين يشيخون بمفردهم ولكن بكيفية هادئة، وإنما يرتبط بالشيخوخة التي تصبح عبئا، والتي تؤدي الى نوع من الاختفاء التدريجي للذات.

بالنسبة لعدد من المعاصرين اليوم، السنوات الأخيرة من الحياة تمرّ في دور المتقاعدين، أو في أماكن خدمات الإقامات طويلة الأمد. وارتفاع معدل العمر وإضفاء الطابع الفرداني على الرابط الاجتماعي، يساهمان في عزل الأشخاص الذين فقدوا جزءا من استقلالهم الذاتي أو علاقاتهم الاجتماعية، عزلهم داخل مؤسسات خاصة نوعية بعيدا عن حركات الحياة العادية، ولو أن الأكثر اعتمادا

على أنفسهم، أولئك الذين قرروا منهم، لمعرفتهم بحقيقة الأمر، قرروا أن يعيشوا في هذه الأماكن بفعل الملاءمة، يستمرون في تغذية العلاقات الاجتماعية في قريتهم أو حيّهم أو مع محيطهم. فإذا كانت المؤسسة من اختيار الشخص وقبوله بها، وإذا اندمج في أنشطتها أو جعلته يكتشف أخرى، وإذا كان باستطاعته أخذ الأشياء التي يرتبط بها، وإذا لقي في هذه المؤسسة حياة اجتماعية سعيدة، فإنها تكون إذن مكانا لتفتحه، وبمثابة عائلة ثانية. غير أن الانكسار يكون أكثر إيلاما بالفعل حينما يتعلق الأمر، على العكس من ذلك، بفقدان الاعتماد على الذات أو بحياة اجتماعية غير كافية من حول الشخص المسن، بحيث تجعل من المستحيل أن يبقى في مكان عيشه. يودع بعض الأشخاص دون إرادتهم ولأجل الملاءمة من طرف العائلة التي تعتقد أنهم سيكونون في حماية أكثر داخل هذه المؤسسات، ولو أنهم يفقدون فيها طعم الحياة. ويأتي آخرون إلى مؤسسة مختصة في أمراض الشيخوخة بعد حادثة سكتة دماغية خلفت لديهم إعاقات، أو يأتون عقب السقوط أرضا، أو بعد حادثة، أو بسبب مشكل صحي نتج عنه سلس البول، أو فقدان القدرة على النطق، أو فقدان القدرة على الاعتماد على الذات مما تطرح معه ضرورة المراقبة المنتظمة طوال اليوم، إلخ. *(فرانكور Francœur، 2010)*.

ينتج عن ولوج الشخص المسنّ هذه المؤسسات مع ذلك التخلي عن الأمل في عودته لبيته أو لشقته رغم تجمد الذاكرة بين الجدران، والحياة الاجتماعية للحي أو للقرية، ورغم الطقوس الخاصة داخل أماكن كان قد قضَّى فيها وقتا طويلا كاطمئنان بديهي. علاوة على

ذلك، يحدث أن يتمّ انتقاء من بين الأثاث والأشياء التي رافقت حياة الشخص المسن، لكي لا يتم الاحتفاظ إلا بحجم ضئيل قابل أن يجد مكانا في غرفة ممتلئة منذ الآن، والتخلي عن جزء من الذاكرة.

يعني دخول مؤسسة متخصصة في استقبال الأشخاص المسنين لدى الكثيرين إمّحاء الهوية السابقة، ونسيان التاريخ الشخصي، والغربة، وأحيانا انتهاء الروابط العائلية. إنه انفصال في تاريخ الحياة حيث يجب في الوضع الراهن أن يراه الفرد تغيّرا فحسب أو يعتبره كارثة، حتى ولو أن أنواعا من المنطق اللاواعي تلعب أيضا دور الحدّ من النهاية أو تسريعها. يدخل عالما غريبا تصعب ألفته وفهمه وقد انتزعت منه دعامات وجوده القديمة، وهكذا فالمجهود مبالغ فيه للغاية، والمهمة مستحيلة، والقدرات الحسّية منهكة. يتمّ انفصال عن الذات وعن الأنشطة المرتبطة بالحياة اليومية المنظور إليها الآن باعتبارها من دون أفق. كثير من الأشخاص يموتون في الأسابيع الأولى من دخولهم المؤسسة.

يدفع هذا السلب والتجريد بعض الأشخاص المسنين داخل المؤسسة إلى هواية جمع الأحجار أو قطَع الثوب الصغيرة، وإلى الاحتفاظ بساعة منبه، أو بصورة، أو حفنة من مخلّفات الماضي تم الحفاظ عليها بأعجوبة. إنّه فقدان للهمّة والمبادرة وقد بلغ حدّ تقليص المجال إلى ألا يبقى سوى جسد ساكن، بلا فائدة بتاتا، ولا لزوم، يتطلب مساعدة الممرّض لكي يحقّق الاحتياجات الأوّلية الأكثر إلحاحا. إنّه تخلٍّ تدريجي عن حضوره في العالم، وانطواء على

نوع من المكان الحيواني حيث يصبح فيه ما هو رمزي مجرد بقايا. إن الانتظار في المؤسسة بالنسبة إلى الكثيرين هو انتظار للاشيء، وهو يتولد عن السكون والاعتماد على الآخرين، والحرمان من جدول زمني مستثمر في ما له قيمة، كما أنه يتولد عن استحالة القيام بمبادرة مستقبلية تتم بالاعتماد على الذات *(دروي Dreuil، 2010، 63 وما يليها)*، على خلاف الانتظار الذي يستهل الفعل في الحياة العادية. ضريبة لم تعد لها نهاية بعد، هي الفدية لتدهور الجسد، وفقدان الاعتماد على الذات، مما يجعلها تنتهي إلى تساوي الأوقات. «جالسين لساعات في ممر دار الإقامة طويلة الأمد، ينتظرون الموت ووقت الوجبة الغذائية» *(بوبان Bobin، 2002، 131)*. الزمن ساكن، وأبدي، تتخلله، بالنسبة للذين هم أكثر حركة، بضع خطوات في الحديقة أو القرية، وبجوار صالة التلفزيون. الانتظار غير فاعل، إنه ذهول يعترض أيّ نشاط يتجه نحو العالم الآتي.

الاختفاء التدريجي للشعور باستمرارية الذات، وتلاشي الهوية في نتف غير متلائمة، يفرضان الاتكال على المحيط أو على الطاقم الطبي. وتصبح حياة الاعتماد على الذات حياة مستحيلة من غير مساعدة الآخرين. يموت الفرد بسرعة كبيرة، أو يضمر نوعا من الموت الرمزي من خلال استسلام يجرّ معه توقفا على الآخرين ما يفتأ يتزايد، وانطواء على ذات ما فتئت تدمر وتفقد قيمتها ذهابا إلى حد البقاء طريح الفراش حين توكل جميع أنشطة الجسد للطاقم المعالج. يجمد المسن أحيانا وينكفئ على نفسه، جاعلا من جسده أهم ملجأ. لا يغادر سريره أو كرسيه، يحدّ من حركته، أو يرفض

المثي معرضا نفسه لقرح الضغط أو لتصلبات عضلية. يغيب عن نفسه، ويبقى بعيدا عن وجوده كمتفرج لا يبالي بالجسد الذي لازال متبقيا له لبعض الوقت. حين نفقد كل شيء يبقى الجسد كسند، أو حتى الخرف: وهو كيفية أخرى للاختفاء (*ميزانديو Maisondieu*، *1989*).

غالبا ما يكون عدم التحكم في الفضلات مقاومة قصوى، أو رفضا للمعاملة كشيء من الأشياء، أو صدمة مضادة بها يوجه المريض بدوره احتقاره بالضبط لأولئك الذين لم يشعروا به بسبب حالته. وهو أيضا رغبة في الإمّحاء. والكف عن أن يتحمل مسؤولية أي شيء، ولو كان من الأشياء الأكثر أولية. لم يعد الوجود يتحدد بعد إلا بما هو جسدي، وليس بما هو نفسي أو اجتماعي. فالفرد منطو على ذاته بعيدا عن صخب العالم. يتاخم حدود المعنى المتقاسم الذي يسمح بالتواصل، وبالاعتراف المتبادل إلى حدّ التخلي حتى عن أي تحكم في جسده، وبالتحديد مخارج الفضلات على وجه الخصوص.

وفي ما فوق المهانة التي وصفها ف. كاراديك F. Caradec (2008)، هناك خصوصا الاستسلام، أو التخلي عن المعنى لدى الفرد الذي لم يعد يتمنى التشبث بالحياة دون أن تكون له بالضرورة الرغبة في الموت ولا القلق من الموت، إنه التنازل، وإرادة عدم الاستمرار في بذل المجهود من أجل العيش. لا يريد أن يموت، ببساطة لم يعد يريد أبدا إطالة بقائه حيا، فيأخذ عطلة من خلال

التقليص المعنوي لانخراطه داخل العالم.

يبين مشكل «أعراض الانزلاق» المشهور للأشخاص المسنين في المؤسسة هذه اللامبالاة المتطورة حينما لا يعود هناك أيّ شيء لحماية المسن من الضياع: رفض التغذية، وعدم السماح بالاقتراب، الاعتراض على العلاج، بالنسبة لما تبقى، اضمحلال وتدهور جسدي سريع كما لو كان كلُّ مجهود للحفاظ على لياقة الجسد أمرا مبالغا فيه. لم يعد نقص المعنى يسمح بالعيش، والتجربة عامة. «رأيتهم يشيخون فجأة: جئت يوما لأهنئهم بمظهرهم الشبابي جدا، وطراوتهم البينة، أو أنهم يبدون ماكرين جدا، ولكن كان ذاك اليوم يومهم الأول وكان أمرا عاديا. وبعد شهر من ذلك اليوم كانوا يتقلبون في فراشهم، ويتلوون مغصا على أسرتهم، تحيط بهم ملاءات السرير مبللة وملتوية، محبوسين داخل أقفاص معدنية، جسدهم في محاولة هروب بضربات قوية بواسطة الحوض أو أسفل الظهر، رغوة تفيض من شفاههم، وشكوى مخبرة آتية من أسفل أكثر عمقا»، كما يلاحظ ك. فيلو C. Fellous وهو ذاهب لزيارة والدته (1989، 83). تعرف مؤسسات الأمراض العقلية أيضا هؤلاء الرجال وأولئك النساء الجالسين إلى الأبد وأعينهم فارغة أمام التلفزيون في صالة مشتركة حيث يتحركون كالأشباح قياسا على ما كانوا عليه من قبل، قبل تناول العقاقير النفسية. فالغياب تمهيد للموت.

الزهايمر: داء شيخوخة الدماغ

تنتزع الفرد أحداث ذات مغزى تتداخل مع مصفوفة هويته أحيانا، وتنتزعه من مساره السابق، وتجعله غير معروف من طرفه هو ذاته ومن طرف الآخرين. غالبا ما تكون لتجربة الألم هذه العاقبة حينما تطول جراء عجز الطب عن إنهائها (لوبروتون، 2010). الشيء نفسه بالنسبة إلى المرض، وللحادثة، وللانفصال، وللحداد. فأحيانا يختفي المعني بالأمر ذاته، كما هو الحال في مختلف أشكال الجنون المرتبط بالشيخوخة، على صورة مرض شيخوخة الدماغ. عدم أهمية العالم الخارجي، وإرادة الإمحاء تأخذ هنا شكلا جذريا. نلاقي هنا في الغالب كمنطلق أو منبع لحكايتهم انكسارا ما في علاقتهم بالعالم، حدثا خلف شرخا في أسس هويتهم بإعطائهم الرغبة في الاختفاء. بالنسبة للشخص، كان الأمر يتعلق بانفصال أو انقطاع جذري لمعنى الحياة: بطالة، تقاعد، وفاة قريب، أو يتعلق بكيفية رمزية، كمغادرة الأبناء، وترك الشقة للذهاب إلى دار المسنين، والرحيل أو الانتقال من منزل إلى آخر، الدخول للمستشفى، موت حيوان مألوف، شيء ما كسر أو عكر صفاء انسياب الأيام (ميسي Messy 2002، 177). الانزلاق أحيانا أيضا يتم ببطء. حدث تافه يكون ببساطة النقطة التي أفاضت الكأس. لا يمكن أحيانا ملاحظة أيّ شيء، ويكون الإمحاء بالكاد مشعورا به، لكنه ما يفتأ يتطور. والمرآة التي كان الشخص يبني فيها وحدته يوما بيوم قد تشققت من الآن فصاعدا، وأخذت تتلاشى شيئا فشيئا إلى حد يتوقف الشخص عن التعرف فيها على ذاته، أو هو لم يعد يرغب

في ذلك لكثرة ما يدرك الفرق المؤلم بين ما أصبح عليه، وما كان يعتقد أن بإمكانه دوما أن يكون عليه (لوبروتون، 2012)

لا يكون الإقلاع فوريا، ينتشر في الزمان ذاهبا من خسارة إلى أخرى، ويتم التعبير عنه بواسطة كثير من الأعراض الموزعة عبر مسار الحياة اليومية: ضياع المفاتيح، شراء مواد غير ضرورية، نسيان المواعيد، المرور عبر مراحل طويلة من الحزن، الشعور بالوهن... هناك لحظات مغفرة، ولحظات استقرار، وخسائر من جديد... يصعب التعرف على الشخص بعض الأوقات، وهو يكون لامباليا، ولكنه يسترجع وعيه بانتظام. ويمرّ بفترات بياض دون أن يغرق فيها بعد. وشيئا فشيئا يمحي المعنى بكيفية أكثر جذرية، ويصبح الشعور بالذات أكثر هشاشة قبل أن يختفي، أو ينحصر في شيء ضئيل. تتدهور الذاكرة المرحلية، تلك المتعلقة بعناصر الحياة اليومية: نسيان القيام بالتبضع، عدم التعرف على شخص تم لقاؤه بضعة أيام من قبل، ترك زر الغاز مفتوحا أو الصحون داخل الفرن... تقل الكلمات شيئا فشيئا، وتتفكك اللغة، وتضعف القدرة على التركيز والانتباه، وتبدأ الذاكرة الطويلة المدى في التدهور. ويظهر الارتباك، ويتوقف التعرف على الأشياء المألوفة والأشخاص المألوفين، حتى الأكثر حميمية. وما يفتأ الغياب يكتسح مجالات جديدة: نسيان وفاة الأقارب، خمسين أو ستين سنة من قبل أحيانا، العودة إلى الإيماءات بتعابير الوجه أو العبارات الطفولية، وإعادة إحياء قصص الحب القديمة، إلخ. حينما يتوقف الشخص عن نسج الحكي الذي يحقق الانسجام في حياته، تنهار حكايته

كتلك التي يسردها حكواتي لم يعد يتذكر النص الذي نسجه. فقد تم تدمير عملية استذكار الماضي واستباق المستقبل، في حين أن الوجود كلية يستدعي مبدئيا القدرة على إرساء أي تاريخ شخصي، أو ارتماء في المقبل من الزمان، في ارتباط مع الشعور بالذات الذي تنتج عنه معرفة بالماضي الخاص بالشخص لكي يظل هو هو ذاته، ويتعرف على محاوريه ويتحكم في جدول زمنه وفي مشاريعه.

الذاكرة المستبطنة، تلك التي للجسد أو لأفعال الحياة العادية، تلك التي للتجارب المتراكمة، تغذي الشعور بالهوية، إنها ترتكز على نسيج العادات وتستمر على مرور الوقت مع تغير دلالتها أحيانا. وإذا تفككت، لا يفضل للفرد إلا بقايا وعي، ومدركات حسية وعبارات تتعلق بوضعية لم تعد ترتبط بالزمان، فتات ذاكرة طافية على حساب التماسك الداخلي للتاريخ الشخصي. يعرف الشخص المصاب بالزهايمر تدهورا عميقا لذاكرته، ولقدرته على التفكير في إطار العلاقات الاجتماعية، يصبح متوقفا على الآخرين في الحركات الأولية للحياة اليومية كالأكل أو الاغتسال، وهو يتحرك في بعد آخر للحياة المشتركة. لا يعود يحيا في تاريخية الأحداث، وإنما في لحظات متتالية ومفككة دون تتابع منطقي. ذاكرته ممزقة شظايا لا رابط لها بعد. ما لا يراه بعد لا يوجد. لم تعد هناك لا بداية ولا نهاية، وإنما هناك اللحظي مع ذكريات عائمة وقد فقدت الشخصَ الذي كان يثبتها في تاريخه أو حياته. والفضاءات التي كانت مألوفة لديه تظهر له غريبة. ويتجول دون هدف كما لو أنه لم يعد يدرك إلى أين يذهب. ويصبح الفكر غير متماسك. ويتفكك الكلام، ويفقد بعده

التبادلي. وتظهر للعيان علامات القلق. ويتعمق الاستسلام. ولا يعود للزمان وللمكان معنى. وتتفكك حتى ذاكرة الجسد أحيانا تاركة المكان لاضطرابات اللغة، وفرط التوتر العضلي، وفرط الحركة وارتخاء مخارج الفضلات ...

يتخلى الشخص عن انخراطه في العالم الخارجي وينطوي على ذاته، ويقطع الاتصال لأنه لم يعد يجد له فيه مكانا، وتمّحي الدلالات. هناك تفكير، لكن اللغة تفشل في إيجاد طريق في الفوضى الداخلية لكي تصاغ للآخرين. إن مرض اضطراب الذاكرة أو الزهايمر هجران، وبياض يعتري الفرد من غير أن يستطيع الاستيقاظ. إنه يذهب بالاختفاء عن الذات الى نهايته، ولا يعود هناك حساب يدفعه للعالم الذي لم يعد يفهمه، أو لم يعد يريد أن يفهمه. «لم تعد هي المرأة التي كنت دائما أعرفها طيلة حياتي، ومع ذلك ففي شكلها اللاإنساني، وبصوتها، وبحركاتها، وبضحكها، لم تعد المرأة التي كانت هي أمي، أكثر من أيّ وقت مضى» (إيرنو Ernaux، 1997، 13). يصبح الجهد المبذول للعيش فوق ما يحتمل، ويمتنع الشخص أن يحمله على عاتقه. «لقد فقدت كل أغراضها الشخصية وقد أصبح جدارٌ متين يفصلها عن الآخرين. لكنها لم تعد تبحث عنهم. لا زلت أتذكر مجهودها اليائس في بيتي للعثور على محفظتها لأدوات الحمام، لتظل هناك إمكانية التحكم في العالم عن طريق الأشياء. هذه اللامبالاة الحالية تعصر قلبي. لم يعد لها أيّ شيء. لقد اختفت ساعتها اليدوية، وعطرها للحمام» (35). لا يعود الشخص يتعرف على نفسه، ولكنه يجهل ذلك، هو الوحيد

الذي يجهله. ولا يعود قادرا على أخذ قرار بصدده.

ينسلخ الشخص مما يجعله متفردا وفاعلا في أحداث العالم. ينفصل عن أقربائه حتى قبل أن يتوفى، يوقف الزمان ويبقى في نوع من الركود. لا يعود للماضي وجود، وليس المستقبل بأفضل حالا، ولكن جمود للّحظة. ينزلق الشخص نحو اللامبالاة لكي لا يقتل ذاته. يظل هو هو، لكن دون أن يكون له حضور بالنسبة إلى أيّ أحد، يوافق عل أن يُبقي شيئا فشيئا من حواليه على طول تقدمه في السن، هذا الشعور بأنه زائد عن الحاجة مع الرغبة في عدم التفكير في ذلك.

يبدو أن الدلالات التي تعطى لحركات الوجه والمتعلقة بالإيماءات، يبدو أنها تظل مستمرة، ولكن خارج السياق، أو مع التأخر، أو أنها تخطئ الشخص المعني بالأمر. وتتدهور الطقوس الخاصة بالحياة المشتركة، آداب الملبس، وكيفية السلوك، وكيفية الكلام مع الآخرين. ولا يعود بعد يخشى الظهور عاريا أمام الآخرين، ولا العبارات أو الحركات المخلة بالحياء، ولا الأكل بملء يده، أو تقليب صحن المجاور له... إنه يغادر عالم التواصل العادي ويختبئ أو يلتجئ داخل بُعد لا يعود بالإمكان ولوجه بواسطة لغة أو حركات ذي قب. يقول ب. باشي P. Pachet عن والدته: «لم يعد باستطاعتي حاليا أن أكون معها، لا بالقرب منها ولا عن بعد. في الحالة التي هي فيها ما يمكنني أن آمله من الذهاب لزيارتها، هو أنها ستنظر باتجاهي دون أن تتعرف عليّ حقا، وأنها

ستسمح لي هكذا بأن أكون أمامها، وأن أحدثها، لإيقاظ قدرتها على تمثيل محادثة ما، ولو لفترة وجيزة [...]. لن أعرف كيف أسمي الامتداد الذي فيه تقيم، وحيث هي ممددة أو جالسة، ليس 'فضاء' ولا 'زمانا'، فهذا غير موجه، ولا يقود لأيّ مكان، ولا حتى للموت» (2007، 7-8). إنها في فضاء آخر، وفي زمان آخر، في بُعد آخر من الواقع الذي لم يعد في علاقة بالشفرات المعتادة التي تسمح بالكلام أو بتفاعل أكثر اتساعا مع الآخرين.

ينزع مرض الزهايمر طبقات التواصل الاجتماعي بتجريد الشخص من استعمال المواضعات المجتمعية ومن فهمها. فلا يبقى سوى نسخ تقريبية ومقتطفات منفصلة عن كل مضمون، تطفو كقطع منزل عائم في نهر. وحدها تبقى كتل غير منتظمة من المحادثات القديمة، فخيوط الذاكرة مبتورة. تغيب ك. فلوس لبضعة أشهر، وبعد عودتها تقول عن والدتها: «لم أستطع التعرف عليها بعد. كنت قد فقدتها، وكانت هي قد ضاعت[...]كنت لا افهم بعد شيئا. تغير وضع قطع الأثاث وكانت قطعة زبدة مدعوسة على شعرها، كما كان لديها أعقاب السجائر في حمالة -الصدر نصف المفتوح، وكانت تائهة بين المطبخ والغرفة. كانت عيناها غائرتين إلى حد كبير» (1989، 35). ما تفتأ تتكلم، ولكن الجمل المنطوقة كانت مفككة. لم يعد الشخص الممسوس يملك المفاتيح لإضفاء الوحدة على حياته، وربط الحقب بعضها ببعض في صيغة تاريخ حياة، بل يعيش كل قطعة أو جزء معزولا منغلقا على نفسه، ككلية تمحي مباشرة لصالح ما سيأتي، ولكنه يستمر في الإعجاب بالعديد

من أشياء الحياة في الوقت نفسه الذي يتأثر فيه بأخرى بكيفية مؤلمة. يحضر المعني بالأمر دوما هنا، ولكنه غارق في بعد آخر من أبعاد الواقع وقد أعيد تعريف وجوده جذريا على ضوء تاريخه أو حكايته.

هو موت رمزي عن طريق الاختفاء عن الذات. إذ يدخل الشخص في القفار noman 's land وقد أصبح غريبا عن نفسه حتى وعن ذويه، وقد آل الى بعض الصيغ، وبعض الحركات، محروما من الذاكرة. تنهك قوى الأقارب لأجل المحافظة على العلاقة به، وعلى حبهم له عن طريق مراقبته بكيفية مستدامة ما إذا كان بإمكانه القيام بأفعال خطيرة تجاه نفسه هو ذاته، أو تجاه الآخرين، لكن المصاحبة مؤلمة جراء الإخراج اللاإرادي للفضلات بشكل متكرر، وسلس البول، وفقدان القدرة على التحكم في العضلات، ونوع من التقهقر العضوي، وأحيانا انبعاث غير متوقع لطبع انفعالي، عدواني وعنيد... ويتم الدفع بهم الى أقصى حد من طرف هذا الآخر الذي يلتهمهم، والذي لم يعد سوى شبح مأساوي مؤلم للشخص المحبوب لديهم. في فيلم ل م. هانيكM. Hannecke ، **حب** (2012)، يخنق عجوز زوجته بسبب عجزه عن مساعدتها حبا لها وفقدانا للأمل في إنقاذها. تخطر نفس المحاولة للمرافقين عند استنزاف قواهم، أو أنهم يمتنعون عن ذلك في النهاية، ليس دون شعور بالذنب، فيبحثون عن مكان استقبال لقريبهم أو قريبتهم لأنهم قدروا بشكل كبير جدا درجة صعوبة مهمة كهذه. ويهرب الكثيرون قبل مدة طويلة، لأنهم لا يتحملون أن يعاينوا استفحال التدهور بشكل يومي.

يحول الزهايمر الشخص المحبوب، وحتى القريب جدا، إلى شخصية مقلقة، ومضنية. فالأم، والأب، الزوج، والزوجة يصبحون غرباء بشكل جذري. وتصبح المعالم العاطفية باطلة، لا تعود الأم تفهم بعد حركات حنان لابنها، فتدركها باعتبارها صادرة من شخص مجهول لديها، وترفض الزوجة زوجها بشكل مرعب. وتغيب القدرة على التعرف على الأهل، وتعجز الذاكرة عن الربط بين المعالم في الزمان والمكان. كما ينتج عن مرض الزهايمر تقهقر، وعودة نحو الطفولة، بنفس التصرفات المسلية، ونفس التراجع فيما يتعلق بالتحكم في الذات. «لقد أصبحت طفلة من جديد لكنها لن تكبر» *(إيرنو Ernaux، 1997، 105)*. تختلط طبقات الزمان في جميع الاتجاهات. ويجر تلاشي ذاكرة الشخص نحو دوامته تدهور الكيفية الشخصية التي بها يعيش الأقارب حياتهم. وتتأثر سلبا عملية تقاسم الذكريات أو الأحداث الحالية حينما لا تستطيع الأم التعرف على أبنائها، أو ينتج أيضا، بسبب غياب اللغة، عدد هائل من لحظات الصمت ومن الاحتكاك أو المواجهة الجسدية، إلا أن مثل هذه التقاربات غالبا ما يتم رفضها لأن الشخص لم يعد يفهم هذا الحنو من طرف رجل أو امرأة أصبحا غريبين في نظرهم.

يصف س. ريزفاني S. Rezvani (2007) السنوات الأخيرة لرفيقته قائلا: «آه، كم أرغب فيها، حبيبتي التي كانت من قبل! بينما هذه التي هي الآن تغيبني، لأنه كان هنالك شيء آخر بداخلها، شيء ما لم يعد موجودا». لولا غائبة عن نفسها، وهي تجهل التغيرات التي

تطرأ عليها فتجعلها تفقد البوصلة. «مرض لا أمل في علاجه هو ليس حتى مرضا... ولا حتى كابوسا. يعادل الوعد السخي بـ 'موت بدون جثة'، الذي أعلنته طبيبة الأعصاب والأمراض العقلية الباريسية الكبيرة هذه، لبضعة أشهر من قبل، يعادل إدانة مزدوجة، عقدت العزم على أن أدافع عن نفسي ضدها» (17). بلغت لولا حد أن تخلط بين زوجها وأمها، مازجة بين الأجناس، والأسماء، والوجوه...«إنها تريد العودة إلى البيت، أي أن تسترجع لقاء والدها الذي كان لها معه خلاف سابقا، وملاقاة والدتها، والغطس بجسد ضائع في طفولة تحسب نفسها فيها ابتداء من الآن». وإذا كانت ذاكرتها تتدهور، فالأمر يسري كذلك على جسدها في كثير من مراحل حياتها العادية». «لا نوم يستقيم بعد تقريبا ليلاً، لأنها تختنق وتغرق في لعابها. ويكون عليّ دون توقف أن أجعلها تستدير على الجانب. وهي تسعل كما لو أن الماء قد ملأ رئتيها» (54). بعد وفاة لولا، يتساءل س. ريزفاني قائلا: «بما أنها استغرقت عشر سنين لكي تبتعد عني، وتغادر شيئا فشيئا، كأنها تفعل ذلك خلسة، شبهها المثالي، نعم، لأجل مغادرة المرأة الذكية والجميلة التي جعلت من حياتي نعيما لا ينضب، لقد أرادت، من دون شك، أن أحيا من بعد وفاتها، وأن أحتفظ بها حية بداخلي إلى أن أموت. لقد حالت دوني والانتحار الحتمي، والذي كان من الممكن أن استسلم له لو كانت ضحية موت عنيف، ونحن كنا حينها نعيش روعة حبنا الخارقة» (188) يعتبر داء الزهايمر بالفعل بالنسبة لبعض الأشخاص ربما، طريقة للرحيل عن العالم وعن

أقاربهم باستغراق الوقت، وبتهييئهم للغياب عنهم، وبالكف عن أن يظلوا معنيين بأمر وجودهم الخاص، وإنما إعادة وضعه بين أيديهم.

إن الزهايمر، أو أنواع الجنون الأخرى المرتبطة بالشيخوخة، هي انقطاع يحدث في استمرارية الذات، وتحول يعتري الفرد على شاكلة أرخبيل بلا نهاية من الصور المفككة والكلمات المشوشة النظام. لم يعد هناك أي أحد لضمان حضور واع ومستمر. حتى ولو استمر الأقارب أحيانا في الشعور بنوع من بقايا وعي، كما يعبر عن ذلك ج.-ب. فيرنان (J.-P. Vernant) تجاه زوجته: «أنا مقتنع بأنه بالنسبة إلى الذي يعاني من الزهايمر، واقع أن يكون داخل محيطه ليس المكاني فحسب بل حتى العاطفي أيضا، واللقاءات والكلام، كل هذا يوقظ صدى داخل شخص المصاب الذي له تاريخ أو حياة و تطور نفسي متفرد [...] أعتقد، لا بل أنا متأكد أن الاتصال أو اللقاءات، وواقع توجيه الكلام له ولو حين يظهر أنه شارد، فإن هذا يتردد صداه في الداخل، وينبئ بشيء ما يحدث» *(في جزيل Gzil، 2009، 230)*. ولكن الشخص يوجد في ضفة أخرى، المفردات لتسميتها أو التكلم عن مشاعرها تصبح غير مؤكدة ولا يمكن الحسم بصددها أو تأكيدها، كما يكتب ذلك أو. روزونتال (O. Rosenthal): «يجب بذل مجهود للنسيان، وللفصل. فصل ما هو كائن اليوم عما سبق أن كان في الماضي، فصل الرجل الذي أحببناه عن ذاك الذي زرناه للتو دون نزع المحبة عنه. الحفاظ على المحبة دون فصل، هي مهمة مستحيلة. الإبقاء على الحب المحبة منفصلا»

(2007، 163). الكسر بيّن واضح، لقد اختفى الآخر، وحده جسده بقي قابلا للتعرف عليه، ولكنه مهجور. يتساءل ج. بايلي نفسه أمام رفيقته، الروائية البريطانية إيريس موردوش (Iris Murdoch)، المنغلقة داخل عالم لم يعد يدركه: «هي من هذه ال "هي" التي قامت بالظهور والتي نحن الآخرين، وحتى أنا أيضا، معها في ألفة غير سارة؟ نحن في ألفة لأننا نراها من الخارج. امرأتي صارت "الضمير هي"» *(بايلي 2000 Bailey، 214).*

تورد س. دوبوفوار S. de Beauvoir شهادة امرأة قائلة: «تدريجيا، جن جنونها جراء الحزن والقلق من فكرة أنها مسنة [...]. لم تعد تقوم بأي شيء يذكر. لم تعد ترتدي ثيابها، ولم تعد تنزع عنها ثيابها. تتيه طوال اليوم كالدابة المطاردة، وهي تئن، وتجر ألما لا يحدث لها ضررا في أي مكان [...]. بدأت في عدم التعرف علينا، وفي عدم تذكر ماضيها؛ ليس لأن دماغها قد ارتخى، ولكن لأنها لا تريد» (بوفوار(دو)،303،1970 . محاولة للانسحاب من وضع مؤلم بعدم الانخراط في اللعبة الاجتماعية، وبحذف كل ما يتعلق بالرابط الاجتماعي، وبالارتباط بالآخرين الذين يحبسون الفرد بالتأكيد في هوية هي اليوم محاولة مرفوضة. يدمر الشخص نفسه عن طريق استحالة أن يبقى مستمرا في كونه هو ذاته، فتتلاشى معالم التعرف عليه الفردية والاجتماعية، ويتهرب من كل تحديد تعريفي من شأنه أن يثبته في هوية هي من الآن فصاعدا مرفوضة لديه دون علمه بذلك. إنه يحطم الروابط التي تمت بلورتها على مدار وجوده، مصالحه، وقيمه، وعاداته. يسيج تاريخه أو حياته عن طريق إفقارها.

إنه من شخصه الخاص ينوي التخلص، وذلك من خلال انفصال جذري. فهو انطلاقا من الآن لم يعد موجودا هنا.

مرض الزهايمر هو نوع من نسيان ما تعلمه الفرد عن أكثر المعطيات أولية لكي يشعر بذاته، وللتفاعل مع الآخرين، أو لحركة الحياة اليومية، وللغة، ولذكاء الجسد، وللزمان، وللمكان. إنه الدخول في أرض غريبة بشكل نهائي، وهو استسلام بلا رجعة. يتغيب الشخص المصاب كما لو أنه ينسل داخل كواليس شخصه لكي يأخذ راحة من ضرورات التمثيل الاجتماعي. لا يريد بعدُ الصعود فوق الخشبة، ثم قريبا بعد ذلك لا يعود يستطيع.

وحدها الأشكال المبكرة أكثر، ما بين الأربعين والستين سنة سترتبط بأرضية جينية واضحة بينة. إذا كانت بعض أنواع الجنون تتجذر دون شك في شكل إتلافات دماغية، فإن الإتلاف يمكن أن يكون أيضا نتيجة الاستسلام، وليس مصدره، كما لو أن الفرد، الذي لم يعد يبالي لوجوده من الآن، ينأى أيضا بنفسه عن دماغه، ويتخلى عن جسده بتوقفه عن دعمه. كثيرا ما لوحظ التفاوت بين الآفات التشريحية الدماغية والإعاقات. استحالة تفسير مرض الزهايمر فقط عن طريق تدمير الخلايا. علاوة على ذلك، ففي كثير من الأحيان، تحدث بشكل مؤقت، فتعود لحظات من صفاء الذهن للظهور، وكذا انفراجات فجائية للذاكرة. فالفرضية العضوية هي في الغالب ربما خدعة، وطريقة عملية للاطمئنان ولطرح الوضعية كقدر محتوم.

بهذا المعنى يمكن لتشخيص مرض الزهايمر أن يعاش من طرف الأقارب كارتياح وشكل من التخلص من الشعور بالذنب. يتعلق الأمر بمرض، وإذن بقدر جائر، لا حول ولا قوة لأي كان إزاءه (*لو رو Le Ru، 2008*). ومع ذلك، حالة مثل هذه لا تعني أبدا أن الدماغ تعطل، وإنما المعنى الذي كان يحمل الحياة في كل أبعاد الجسد وفي العلاقة بالعالم لم يعد موجودا هنا، عن طريق نوع من «القرار» من طرف الشخص ذاته، حتى ولو تضرر بالكامل. الانهيار النفسي يترتب عنه الانهيار العضوي والموت سريعا.[9] «ألا يكون خلل في الهوية هو ما يشكل خصوصية الجنون، بدل الأهمية التي للإتلافات؟ على كل حال من الواضح أنه يجب علينا أن نعتبر الأزمة الجنونية كتفاعل بين الإصابة العضوية والشخصية» (*باليير Balier، 1979، 173، لو رو Le Ru، 2008*). ليس الزهايمر مرضا عقليا عصبيا كلية وليس مرضا نفسيا كلية، وليس بعدا شخصيا، إنه تأثير تعاضدي يمارس ويساهم في تدهور العلاقة بالعالم. يستمر الشخص في أن تكون له ذاتية، ويشعر بعواطف وبملذات، وبحرمانات، ولا يزال يصدر أحكام قيمة. ولو أنه مقطوع عن تاريخه وصار آخر، ويتوفر على قدرة على الاعتماد على النفس داخل سجل خاص (*كلود Collaud، 2003، جزيل Gzil،*

---

(9) كما هو معلوم، لا يتعلق كلامي هنا بأنواع الجنون المرتبطة بوضوح بإتلافات دماغية، وبتدهور عضوي ناتج عن اختلالات عضوية واضحة (فيري Ferrey و لوجوويس، Goues 2008)، ولو كان من الملائم التساؤل حول واقع ان الأمراض لا تدخل مرحلة استفحال أعراضها في نفس الوقت، ولا بنفس الشدة. معنى الوجود يكون هنا أيضا دعامة واقية، ولو أن هذه الأخيرة ليست أبدية وهي تتآكل شيئا فشيئا بفعل تقدم المرض.

2009، جاوورسكا، 999 Jaworska، بوست Post، 1995)، ولكنه مأخوذ برغبة في النسيان، وبعملية الاعتراض على الذاكرة، وعلى استمرارية الذات. فالوعي والإدراك ليسا هما الكل في الشخص، وتدهور ذاكرته لا يحرمه من الانتماء إلى الجماعة، ولو كان في عالم آخر من المعنى.

الرضا عن الجسد أو التلاؤم بين النفسي والجسدي الذي أشار إليه فرويد هو النتيجة المترتبة عن الحمل الرمزي أو الوهمي الذي يبصم الوضع الجسدي. والتمظهر الجسدي للخلل النفسي يكون في الغالب عبارة عن تأويل دلالي (لوبروتون، 2011)، مما يترجم التداخل الغامض بين الجسد والمعنى. يصنع الفرد ما فوق وعيه المفكر، كما يصنع الشروط لبعض أنواع الوعكات الصحية لأنه في حاجة ضرورية داخلية لكي يستند على هذه المحن أو التجارب لأن يستمر في الوجود. وبالخصوص في الوقت الذي يبدأ يشعر فيه بشيخوخته وبوهنه يكبر على تحمله ثقل حياته اليومية، وينقاد دون وعي منه الى غيابه، ويتخلى عن شخصه لكي لا يتأثر بالآخرين، حتى الأكثر قربا منه، ولا يعود يتحمل مسؤولية حياة حيث يعتقد أنه لم يعد له فيها مكان.

ومع ذلك، ولو أن الشخص يدخل في حالة رفض واعتراض، فإنه يظل هنا مع ذلك، حتى بهوية من مستوى آخر، يصعب من الآن تعيينها. يشارك المصاب دائما الجماعة لا متناهية التنوع، ولو أن الكلمات تفشل في التعبير عن معرفة أين «هو». إن له إدراكا خاصا

به للعالم المحيط، وهو يساهم فيه بكليته ولو أنه لم تعد له هوية قابلة للتعيين في نظر المحيطين به. يعجب بالأشياء البسيطة في الحياة ولو انه لم يعد يربط الأمس باليوم، ويبدو أنه قد فقد آثار الشخص الذي سبق أن كانَه من قبل. لسلوكياته دلالة، ولكن مفتاحها لم يعد يعمل في الغالب بالنسبة للمحيطين به، وأحيانا يكون مسموعا، قابلا للفهم، وبعد ذلك يصبح منغلقا، مبعثرا، متحديا هكذا لكل شكل من أشكال التوقع. «نمط من التواصل يوقع في المفارقة» *(بلوتون Ploton، 1990، 179)*. يعرف الطاقم المعالج أن المصاب يخرج أحيانا من عالمه الباطني ليقول كلاما منسجما وأحيانا بوضوح هائل.

مرافقة الانفصال

يعمل تشخيص الإصابة في هذا السياق كما هو الأمر بالنسبة لفرض تشريع ما. لا يمكنه أن يكون إلا صحيحا ما دام يمنع كل إمكانية أخرى للتطور. يحبس الشخص من خلال المعالجة الطبية والاجتماعية في قدر ما. إنه نبوءة لا يمكنها إلا أن تتحقق بالتأكيد.

لا يعود بإمكان الشخص المعني أن يختار ولا تعود له القدرات الكافية لقلب المواقف تجاهه أولئك الذين تبنوا هذا التشخيص، وما انفكوا يريدون تأكيده دون علمهم بذلك. اللهم إلا إذا رفض الطبيب المعالج هذه النظرة، واعتبر الشخص دائما كشخص مؤهل لكل معاملة كند، وللتقدم في مسار العلاج *(ميزونديو Maisondieu، 1989؛ ميسي Messy، 2002 ، بلوتون*

ploton ، 2004). صحيح أن الاختفاء عن الذات أمر محسوم دون شك، وأن الاقتراب من الشعور بالهوية القديم هو دون شك مرشح للفشل، ولو أن حضورا عائليا أو اجتماعيا والقيام بعلاجات ناجعة كل ذلك يبطئ تطور الداء. يتم القيام بالعديد من الإجراءات الوقائية حينما تظهر العلامات الأولى ليس فقط فيما هو طبي بل أيضا بواسطة التأثير في البيئة المحيطة، وعلى الأقارب أو على الشخص المعني ذاته لحثه على تجنيد كل مقدراته. إنها مكابح ضد النزوع نحو الانفصال، ونداءات لأجل ألا يستسلم.

إذا اعترف الشخص بمبادراته واستثمرها محاولا القطع مع الدوامة، وإن تم تذكيره أن حياته شيء ثمين، يتوقف الاختفاء عن الذات أو يتباطأ إلى حين القيام باستثمار أقصى للوجود. حالة انفتاح كهذه، وعناية بحياة وبعلاقة مقابل شخص يبدو أنه لم يعد له حضور، تقتضي عدم اعتبار الإصابة كأمر محتوم وميؤوس من شفائه، وإنما تقتضي اعتبارها كحالة أخرى للهوية قابلة للتحول *(ميزونديو Maisondieu،30،1989، وما يليها)*. ينبغي أن يظل الشخص حتى النهاية محاورا منخرطا داخل اعتراف المحيطين به. امّحاؤه خارج الروابط الاجتماعية، واختفاء نفسيته، لا تمنع المصاحبة، والعلاج، والمحبة، وحضورا ذا قيمة قرب فراشه، وسرعة تطور العجز تتعلق في جانب منها باقتناع محيط الطاقم المعالج والعائلي أنه لم يعد هناك شيء يمكن عمله. صحيح أن تكفل المؤسسات ليس متساويا بين المؤسسات بحسب قيمة المؤسسة والطاقم الطبي الذي يعمل بها ومدى اهتمامهم أو لا بجعل المريض

يحافظ على اعتماده على نفسه وعلى شعوره بهويته السابقة. تؤدي المهمة، إذا تم القيام بها، إلى التخلي أحيانا عن الاضطرار على مواجهة الشخص ذاته الذي يرفض العلاج أو الاهتمامات، ويفضل الاستسلام.مكتبة سُر مَن قرأ

يقود غياب كل اعتراف اجتماعي داخل المؤسسات التي فيها تم التكفل بالشخص إلى إخفاء الوجه، علامة بارزة على الانتماء للجماعة. يعكس الفرد لا مبالاته بالعالم بدرجته الصفر من الإغراء والقدرة على التعبير. لكن القريب أو المعالج الذي يقف أمام هذا الوجه ويعترف به في كامل إنسانيته يعيد ربط انتمائه للرابط الاجتماعي. وهو يعيد للشخص قيمته وبعده القدسي، فيختفي العمر وتتوارى الحالة المتدهورة لتكشف عن وجه آخر، ويستعيد وجه مكتئب استبشاره من جديد. من هنا تطرح أهمية أوراش التجميل التي تسمح للشخص بالعناية بوجهه، وبحلاقته ومظهره. أو تلك الحاسمة أكثر بنفس هذه الحركات المنجزة من طرف المعالج أو فرد من العائلة حينما يصبح الشخص متوقفا على الآخرين بكيفية مبالغ فيها. فبالتأثير إيجابيا على الإحساس بالوجه نوفر وننمي لديه إمكانية العودة إلى نرجسية أولية كان من قبل قد انفصل عنها شيئا فشيئا. كما نعيد إرساء القيمة للعلاقة بالذات، وننتزعها من اللامبالاة التي كانت قد غرقت فيها. بالمحافظة على قيمة للوجه نعيد بناء الشعور بالهوية لدى الشخص *(لوبروتون2012)*.

يدعم الطاقم الذي يتكفل بالشخص الهرم في قسم خدمة للإقامة

طويلة أو قصيرة الأمد يدعم الرغبة في الغياب أو، على العكس من ذلك، يبطئها، بل قد يبطلها حتى بدفء معاملته. له القدرة على المساهمة في المحافظة على المعنى. عديدة هي الإجراءات الممكنة والتي تتطلب من الطاقم المتعهد الصبر والقدرة على الابتكار: الحرص على محافظة الشخص المسنّ على هويته بتسميتها، وبالبحث عن إعادة بناء الخيط الناظم لحياته؛ وتنمية إمكانية الإبقاء أو المحافظة على العلاقات الأسرية وعلاقات الصداقة؛ ترتيب فضاء المؤسسة على نمط شخصي أكثر أو أكثر خصوصية بخلق أمكنة مواتية وملائمة للتواصل والتبادل؛ تشجيع سياسة الحركة للحد من البقاء في الفراش ومن الاستقالة الفسيولوجية؛ العناية بالملابس وبتسريحة الشعر أو الحلاقة للحفاظ على النرجسية؛ إعادة إدخال الشعور بالمتعة في الحياة اليومية؛ تنمية الاتصال معالِج معالَج في الاتجاهين معا؛ دعم و تشجيع لقاءات مع الشباب المدرسي المرتبط ببرامج التاريخ أو الجغرافيا؛ العناية والحفاظ على ذاكرة العلاقات الاجتماعية؛ إعطاء أهمية للتنشيط الداخلي للفضاءات باستدعاء موسيقيين، وممثلين أو كوميديين، وبهلوانيين، إلخ .(سيباك- لانوي،٢٠٠١)[10]. بالتأكيد، لا شيء يعتبر مكسبا أبدا، وبالرغم من كل المجهودات، والحب الذي يحيط به، ورغم المثابرة في كل

---

(10) نعرف، موازاة لذلك، القوة المثيرة للذكريات التي للغناء او للموسيقى بالنسبة للأشخاص المصابين. أعتقد، وقد رأيت أشخاصا بإصابات عميقة يبكون أو يرتعدون وهم يسمعون لعمل موسيقي لم يكونوا قد سمعوه أبدا من قبل، يكتب او. ساناك. أعتقد أنهم قادرون على معايشة كل سلم الأحاسيس التي تحركنا[...]. ليست الموسيقى بالنسبة لهم ترفا وإنما هي ضرورة، ولها القدرة دون اي شبيه آخر بتاتا، على إعادتهم لذواتهم وإلى الغير خلال بعض اللحظات على الأقل"

لحظة، يستقر الشخص أحيانا بين جدران ذاته، رافضا الرغبة في العودة للرابط الاجتماعي أو أنه لا يعود قادرا على الاستجابة لانتظارات هذا الرابط.

5. الاختفاء دون ترك عنوان

«ليكن كل شيء أبيض حتى يكون كل شيء ولادة»

جابس، **كتاب الهوامش** (Jabès Le Livre des marges)

الغياب

الإقامة في مكان آخر، خلال عطلة أو سفر، يعطي طابعا جغرافيا للابتعاد عن الذات، إنه كيفية أوميوباتية للتحلل، خلال أيام أو أسابيع، من التزامات الحياة المهنية، والشخصية أو العائلية. إنها فترة تعليق كل الإكراهات المعتادة للهوية، وهي فضاء تكون فيه الأدوار قد وزعت من جديد مع فاعلين مختلفين داخل سياق يصبح فيه كل شيء ممكنا، لأن كل واحد يختار نمط كينونته دون أن يعرف بذلك أي كان أبدا، ويمكن أن يندهش أو أن ينتقد مظهره أو تصرفاته. فترة بين قوسين، نوع من الاستراحة الاجتماعية حيث تكف الأدوار المعتادة عن تدبير الحياة اليومية لصالح حرية تحرك قصيرة. لا يعرف أيّ كان كل سلم الأحاسيس التي تحركنا، ولا بماذا يلتزم تجاه مسافر ما، مشاء مثلا (لوبروتون،2012). اللهم إلا إذا لم يعلن هو نفسه عن معلومات عمن يكون، ولكن يمكنه أن يظل

مجهولا مع مشاركته في التواصل والتبادلات دون إعطاء تحديد لحالته المدنية، أو لتاريخه الشخصي، أو أن يختلق لنفسه شخصية ما. الممارسون لرياضة المشي، أو حجاج كومبوستيل أو حجاج مكان آخر، أو حتى المشاؤون المؤقتون يلاقون بعضهم بعض في الملاجئ أو المآوي، ولكنهم يجهلون لمدة طويلة أحيانا من يكونون، حتى حينما تنسج بينهم روابط الصداقة. ولا تعود الحياة الشخصية بعد تطرح في المقدمة، وكل واحد يقرر أو لا أن يعلن كذا أو كذا باعتبارها الخاصية التي تلازمه، أو التي يتمنى حقا استبعادها عنه. فلا حاجز اجتماعيا كان أو ثقافيا يحول دون عقد اللقاءات أو عقد علاقات الحب.

اختفاء مؤقت ومراقب والذي لا يقطع الروابط وإنما يسمح بتنفس الصعداء شيئا ما. الخلاص من نظر الآخرين الذين يدورون في فلك معارفه المعتادين تخلي عن التزامات الوضع الخاصة بالحياة العادية حيث من الصعب على الفرد الفكاك من وضعه الاجتماعي ومن علاقات الصداقة أو الجوار، ومن الروابط العائلية، ومن تاريخ مزدحم مزعج.

حينما يكون كل أولئك الذين من المحتمل أن يتعرفوا على الفرد بعيدا عنه، يصبح كل شيء ممكنا من جديد بالنسبة له، ولا تثير تنقلاته بعد احتمال أن تتم المناداة عليه ما دام المسرح الاجتماعي للدور بعيدا. أمام مجهولين لدينا، لا يعود هناك بعد ضرورة لتحمل الشخصية التي تكون لنا في الحياة العادية، ويضع الفرد نفسه خارج

اللعبة الاجتماعية، وقد أعيد من جديد توزيع الأوراق بصدده. وهكذا يجعل ن. بوفيي (N. Bouvier) من السفر «تمرينا على الاختفاء» *(1992، 153)*. بجول الطريق بالفعل المسافر الى مجهول، هو فقط مضطر لإظهار جواز سفره عند الحدود، ولكن بقية الوقت لا يكون له أن يقدم الحساب إلا الوقت الذي ليس عليه أن يقدم الحساب إلا لنفسه هو شخصيا. في كتابه «السمكة-العقرب» (Le Poisson-scorpion) وقد انغمر في سبات طويل الأمد أفنى شخصيته، وغرق داخل **بياض** تخترقه نقط حادة من الألم، يكتب: «حلقت لحيتي هذا الصباح، وكنت أحملها منذ بإيران: الوجه الذي كان يختبئ من تحت عمليا اختفى. لقد أفرغ، وصقل مثل حصاة مكسرة الجنبات. فلم أعد أدرك بالفعل إلا هذا المحو. لمحة من الاندهاش، وسؤال يطرحه عليّ بأدب مهوس لست متأكدا من إدراك معناه. خطوة نحو الأقل وخطوة نحو الأحسن. كم من السنين لازالت باقية لأجل التمكن تماما من هذا الأنا الذي يشكل حاجزا لكل شيء؟ لم يكن أوليس يعتقد إذا أحسن القول حينما كان يضع يديه في شكل قرنية لكي يصرخ في وجه سيكلوب بأنه كان يسمى "لا أحد"» *(بوفيي Bouvier، 1982، 60-61)*. يختفي البعض هكذا في الأسفار المحافظة على سريتها لأجل إزالة خطر الفضول، لا أحد بتاتا يعرف وجهتهم (أوربان Urbain، 2002)، ويعرف آخرون أن تغيير الديكور، ولو في مدينة قريبة، يكفي لمنحهم النفس الذي يأملونه. وهم يعودون فيما بعد، وقد ارتاحوا، وعلى استعداد لاستئناف التزاماتهم الاجتماعية. وإلاّ يقررون أخذ

مفتاح الحقول كما تقول العبارة الفرنسية، أي أنهم يقررون الذهاب دون رجعة.

لكن بطريقة أقصر، ولكن يوميا لدى البعض حسب الظروف، يكون عالم الليل قادرا على القضاء على مهزلة المظاهر لأجل استقبال عدد لا يستهان به من التحولات لبضع ساعات، وتغيرات ترفيهية للهوية وللنوع والجولات التي تسمح بمغادرة أحوال التحضر واللباقة الخاصة بالواجهة الرسمية للذات.

ولكن من الممكن للتعطل من الذات أن يدوم، ويصبح السفر هو الإقامة في مكان بعيد، وإمكانية للولادة من جديد. وتكون أحيانا الرغبة في الاختفاء، وفي ألاّ يكون على الفرد بعد تحمل إكراهات هويته، رغبة لا تقاوم إلى حد ترك كل شيء والذهاب بحلم التخلي إلى حده. ويشخص المحلل النفسي س. ميلمان (C. Melman) مرضا حديث العهد اكتشف في البرازيل، هو فقدان مزمن للمصابين لذاكرة هويتهم. يتيه الأشخاص، ولا يعود لهم أوراق الهوية، لا يعودون يعرفون بعد من يكونون ولا من أين يأتون (2009، 77). حينما تنكشف بداهة العيش، ويضغط الوجود مثل العبء الثقيل، فإن التحلل من الذات لأجل البداية من جديد في مكان بعيد، يصبح أحيانا ضرورة داخلية، يغادر الفرد ليكون عليه أن يستأنف وجوده انطلاقا من لا شيء.

الاختفاء قديما

في ظروف تاريخية مختلفة، حيث لم تكن توجد حدود إلا في أشكال رمزية بالأحرى، يمر الرجال وأحيانا النساء من عالم إلى آخر بتغيير جذري للهوية. يتبنون وجودا آخر، ولغة أخرى، يتخذون اسما آخر. يصبحون «منشقين» *(بيلورجي Belorgey، 1979)*. سأتحدث هنا عن بعض الصور المأخوذة من القرن XVIII-XIX يعقد الصائدون علاقات مع القرى المحلية، ويتخذون بها امرأة، ولكن يحدث لهم أن يطلقوا النار على هنود مشبوهين جراء اقتحام دخيل لأراضي صيدهم لا يفهمون لا مظهره ولا لغته. يتبنون كيفياتهم في العيش وفي التفكير، متقاسمين معهم مواقفهم وقيمهم، ومؤسسين لذريتهم. يجب أحيانا التقاتل مع بيض آخرين أغرتهم غنيمة الفراء المحصل عليها سريعا. بعضهم يكونون ضحايا الاختطافات، وسجناء أثناء المواجهات أو ضحايا غرق المراكب، ولكن كلهم لا يرغبون في الرجوع إلى «حضارة» الهنود البيض *(جاكان Jacquin، 1987)*، الذين أتوا من أوروبا، يحسمون قرارهم وينزلون في قرى الهنود حتى يسهلوا تبادل التجار الأوروبيين الذين يشترون بأثمنة رخيصة جلود الحيوانات التي طاردها القناصون. يألف الوسطاء العادات الهندية، وينظمون الاصطياد بدلالة ثمن الفراء، ويوفرون بعد ذلك اللقاء مع المشترين بتعلم لغة المحليين وبالانصهار معهم. يستقرون أحيانا داخل الجماعة، وينضمون للصراعات الداخلية للقبائل المختلفة، ويؤسسون في هذه الجماعة أسرة، ولا يكتفون بعد بدورهم كوسطاء. هم أيضا يدفعون مركبا على الأنهار، ويتعودون

على المشي على الثلج بواسطة مضارب كما على مطاردة الحيوانات، يتغلغلون دائما أكثر بعدا في أرض مجهولة بموارد لا تنضب، يتعلمون كيف يبطلون الكمائن ويجعلون لهم حليفا. لا يعود للبرية سر بالنسبة إليهم.

يعرف هؤلاء الصائدون كيف يدافعون عن أنفسهم ضد قسوة الطقس، وشدة البرودة، وشراسة الذئاب أو الدببة التي تملأ هذه الأراضي. إنه استقلال شرس بالفعل لرجال ملتحمين بالطبيعة التي منها يأخذون العناصر الضرورية لبقائهم على قيد الحياة، منغمرين في وحدانية لانهائية، داخل مملكة بدون رحمة يتعلمون كيف يتغذون داخل الجسامة والشساعة: يقطعون الغابات مشيا، والأنهار، والبحيرات، يرون قطعان البقر البري، ينصبون مصائد للحيوانات ذات الفرو. لا حد لعزمهم الذهاب إلى الأمام دائما. يصلون إلى منطقة البحيرات الكبيرة، أو ينزلون نحو نهر الميسيسيبي، والميسوري. عمليات القنص والاستكشاف تتشابك، ولكنهم لا يعرفون في الغالب لا القراءة ولا الكتابة، وتبقى اكتشافاتهم هي امتيازهم، وحده تبادل تقليد شفاهي يسمح بالتواصل بين الصيادين لأجل التلاقي في أماكن معينة.

تحتقرهم السلطات الاستعمارية، وتسعى دون جدوى إلى توظيف تحركهم، وإلى إقناعهم بامتلاك الأراضي التي يعبرونها «باسم ملك فرنسا». يرجع كولبير (Colbert) في وقته مبادرة مثل هذه إلى تناسب أكثر دقة، بالتذكير بصعوبة التحكم في أراض مشتتة

حيث يكون من غير المريح الإقامة بها. لا يترك هؤلاء الصائدون آثارا أبدا، متحررين من كل إكراه، وليس لهم من هوية إلا الاسم الذي أعطوه لأنفسهم، إنهم يستمتعون بحرية نادرة. تتحمل السلطة المركزية بشكل سيء هذا الترحال، وهذه الرغبة بلا مكابح في التحرر، متوجسين من هذا المرور للخط الذي يجعل هؤلاء الأوروبيين غير معروفين، قريبين جدا من الهنود الذين ليسوا بالنسبة للسلطات إلا مصدر تشويش وإرباك، أو يد عاملة متحملة للمشاق. التبني لنمط عيشهم من طرف عدائي الغابات يفتح فجوة أنثروبولوجية. إنهم يعكسون رغبة لا تقاوم بالنسبة لأولئك الذين مازالوا يتشبثون بالأرض مثل التشبث بعوامة النجاة.

تضاعف السلطات التهديدات تجاه الصيادين، وتسعى لتكسير المثل السيء الذي يعطونه لأولئك اللذين يستعمرون البلد بكيفية حكيمة، و تعمل على وصمهم بنعتهم بالمارقين المنحلين، و برفض أنماط عيشهم و الهزء بكيفيات معاملة أنفسهم كهنود؛ ويسعى لتزويجهم بالأوروبيات لتثبيتهم في القرية التي لن يبرحوها بعد ؛ يلجأ لطلب العون من القس لتخويفهم من ضعف تدينهم المسيحي في الحياة التي يمارسونها في البراري ال «وايلدرنس wilderness» يمنع على المعمرين أن يبتعدوا لأكثر من 24 ساعة عن قريتهم؛ ويتم إعادة أولئك الذين تبين عدم انضباطهم وكان من سوء حظهم أن ضبطوا وإذا استسلموا رغم كل شيء لعباب الأراضي، ترسل ميليشية في أثر هؤلاء الجاحدين الذين لم يعرفوا كيف يقاومون نداء الـOuest. . يصرح أحد الإداريين الفرنسيين

أن عدائي الغابات «يتصرفون كلصوص بحق» وكصدى له. يضيف آخر بأنهم «أناس متشردون وأنَّهم لا يتزوجون وأنهم لا يعملون على استصلاح الأراضي، الذي هو العمل الرئيسي للمعمر الجيد، والذين يقترفون ما لا ينتهي من الخروقات بسبب حياتهم الماجنة والمتحررة. يذهب هؤلاء الرجال وهم يعيشون دائما على منوال المتوحشين الى خمسة أو ستمائة مكان من كيبيك Québec لمقايضة الجلود» *(ذكره جاكان Jacquin، 1987، 160)*.

الدول أو خدامهم هم دوما متوجسون من إغراء الترحال الذي يحرر الرجال من مسؤولياتهم القديمة.[11] في القرن XIX وفي قلب المدن الأوروبية حتى، «مئات الرجال يغادرون بيت الزوجية لأجل التجوال بالصدفة متناسين الى حد تناسي وجود أطفال لديهم، وينتهون بعد ذلك بالاستقرار في مكان بعيد قصد ممارسة مهن أخرى تحت أسماء أخرى» *(أرنو Arnaud، 2006، 396)*. لا زالت الحقبة مواتية للاختفاء الإرادي، ولا زالت الإدارة لم ترس بعد سلطتها على مجموع الأراضي والنسيج الاجتماعي، ولكن مع مرور الوقت ستصبح صعبة أكثر فأكثر، وكل بطاقات الهوية بجميع

---

(11) الشيء نفسه بالنسبة للانيرو les Llaneros من منطقة لورينوك l'Orenoque، و الغوشو les Gauchos من لا بامبا de la pampa ، البحارة الحاربون من الخدمة الذين يتبنون التقاليد الخاصة بساكنة الجزر في البحر الهادي أو الأنتيي les Antilles واللاءي يتحدث عنهم في كثير من الأحيان هاء.ميلفيل H. Melville   R. L. Stevenson. الملايين من المهاجرين الأوروبيين الذين غادرو أوروبا العجوز la vieille Europe في بداية القرن xx و استقروا في الولايات المتحدة aux Etats-Unis. ولكن ليس هنا موضوع هذا الكتاب.

أنواعها ستنغلق على جميع أشكال الترحال.

الاختفاء اليوم

من الممكن أن يصبح المرء غريبا عن نفسه ذاتها، من توافق الى توافق، ومن تخل إلى تخل، هذا مع الاستمرار في السير قدما دون محاولة تغيير وجوده. ويقوم البعض بإجراء انفصال ويذهبون للعيش في البادية أو يستقلون من عملهم، وينفصلون عن شريك حياتهم، ويتخلون عن أسرتهم، محاولين هكذا عقد الارتباط بمعنى وجودهم عن طريق البداية من جديد في مكان آخر بعيد. فإذا كان البعض يكتفي بوضع مسافة بينه وبين ذاته مع البقاء في المكان حيث هو، ولكن بترتيب فضاء للعزلة وللوحدانية، فإن آخرين يفضلون الابتعاد في المكان الواسع، لأجل القطع نهائيا مع الشخص الذي هم عليه في أعين الآخرين. لأسباب متعددة، يختارون أن يختفوا جذريا دون ترك عنوان ولا أثر مهما كان ضئيلا، ويستقرون بعيدا، يخفون هويتهم أو يعيدون تعريفها من جديد، وأحيانا يتزوجون وينجبون أطفالا. إن الرغبة في الاختفاء تطابق أحيانا الرغبة في الإمحاء من شبكة العلاقات الاجتماعية لبداية الوجود في ضوء يوم جديد. التخلص من الالتزامات القديمة بأن يصبح الشخص شخصا آخر في منطقة أخرى، وبلد آخر، وقارة أخرى بتحويل حالته المدنية، أو بالاحتفاظ بها إذا كانت حظوظ العثور عليه نادرة. الهروب هكذا من العدالة، ومن الدائنين، ومن الاختناق داخل العلاقة الزوجية، من الأسرة، من العمل، أو الاستجابة لطموحات

تم إخفاؤها لمدة طويلة جدا، والبدء في دور من الوجود لا يدين بشيء للوجود القديم بالعيش هكذا لموت وولادة رمزي من جديد.

في البحث الاستطلاعي الواسع الذي قاده ه. برولونجو (H. Prolongeau) بصدد «المختفين» أو عائلاتهم يدرك غالبا أسبابا «حقيقية»، في نظره على الأقل، لبعض الاختفاءات إذا لم تكن بفعل إرادة الهروب من العدالة، لم يكونوا دائما رجالا أو نساءً سعداء في أسرهم أو مع أقاربهم. من الممكن أن العلاقات الزوجية كانت صعبة التحمل، وخانقة، وأن الآباء كانوا يراقبون دوما الوقائع والحركات التي يقوم بها أبناؤهم أو بناتهم إلخ *(برولونجو، 2001، 68)*. يسرد ه.بولونيو حكاية الأشخاص الراغبين في الهروب مثلا من سياق علاقة زوجية غير سعيدة والذين يذهبون على إثر قرار فجائي متسرع بعد خصام بدون أن يعرفوا جيدا ما إذا كانوا سيعودون أم لا، والذين غالبا ما يرجعون إلى البيت بضعة أيام أو بضعة أسابيع لاحقا، بعد القيام بإعادة ترتيب الأوراق من جديد وقد قاموا بتطهير مشاعرهم. بينما لا يعود آخرون أبدا. بل أحيانا يبدؤون حياة أخرى على بعد بضع عشرات الكيلومترات فقط من مقر إقامتهم. ويخطط آخرون مطولا لذهابهم، منتظرين اللحظة المواتية لكي يمحوا. وذات يوم يتغيبون، أمام مفاجأة محيطهم. تشهد العديد من الحالات حقيقة أن شخصا متفتحا ومتنورا لن يكون له أبدا مبرر للاختفاء. وبالتأكيد، يمكن للفرد أن يعطي الانطباع بأنه فرح لكي يعطي صورة جيدة حينما يكون الشعور بالوجود ليس من بين السعداء أكثر. ويحيل الاختفاء إلى الرغبة في

التخلص من صيغة من الذات أضحت بالية منذ الآن، وأصبحت شاقة على التحمل أو مملة بشكل مبالغ فيه. فشعور الفرد بأنه ي يدمر حياته وأن لم يعد له بعد أي شيء يخسره يستدعي تجربة جديدة بالقيام بمسح الطاولة. ويكون الفرد إذن في سعي الى إعادة الانتماء الى العالم وإلى فرصة ثانية، وإلى توزيع جديد للأوراق لاستئناف اللعبة.[12]

ترتيب الاختفاء الذاتي

يقتضي الاختفاء عن الذات في مكان آخر، بعيد أحيانا بعدا لانهائيا، يقتضي من الفرد ترتيبا بعناية منعا لخطر العثور عليه بسرعة. أولئك الذين لا يخبرون أحدا في محيطهم يستمرون في إعطاء الرد إلى آخر ساعة، كما لو أن لا شيء قد كان. يبدو أن الوجود المشترك يستمر بكل ثقة وإلى الأبد، لكنهم ينظمون خلال هذا الوقت بتمام الدقة رحيلهم المرتقب. يدّعون أنهم ذاهبون إلى عملهم أو إلى موعد ما ولا يعودون أبدا، تاركين محيطهم في قلق على

(12) يختفي البعض باتخاذهم هوية مستعارة يجهلها حتى أقاربهم، مثل أحدهم جان-كلود روماند الذي اختلق لأجل عائلته وأصدقائه شخصية عظيمة جدا لكي يهرب من الشعور باللا معنى. وحينما ضاق عليه الخناق وتهيأ لإعلان أن الملك عار، سيقتل عائلته كلها بدل أن يقع في مواجهة الفشل. ويعلق ج. بودريار" لكي تكون الجريمة مكتملة تماما، لا يجب أن يكون هناك شهود يقرون، بل لا ينبغي أيضا أن يكون هناك شهود ينفون من أأولئك الذين يحاولون بأي ثمن أن يفسروا فعله وفك عقدة هذ شهود إثبات... شهود نفي أو دفاع عقدة هذا لمقلب الفريد"(بودريار، 2004، 51). يكتب E.Carrère عن الحياة المزدوجة ل روماند:"خارجا يجد نفسه عاريا. يرجع إلى الغياب، الى الخواء، الى البياض، الذين لم يكونوا حادثة مسار، ولكن التجربة الفريدة لحياته التي لم يعرف غيرها أبدا، أعتقد، حتى قبل الانشطار أو التشعب"(كارير2000، 101؛ باموازاة أرنو، 2006).

مصيرهم، وفي شك أن يكونوا قد وقعوا ضحية لقاء سيء أو حادثة. يبقى الأهل مشدوهين لاختفائهم، وفي تحطم عميق لحياتهم الشخصية، وألم لا ينتهي أبدا، كما يلاحظ ذلك ها. برولونجو (2001) والذي قابل الكثير من العائلات التي واجهت الاختفاء الغامض لواحد من ذويهم. إن الاختفاء بالنسبة للبعض هو شكل مموه للانتحار، وطريقة حقا للضرب على الوتر الحساس للأهل، بالإمحاء دون موت والاستفادة في النهاية من فرصة ثانية، مع الأخذ بالثأر من افتقاد الحب أو الاعتراف الذي يعتقدون أنهم كانوا موضوعا له. كان يجب القطع، بالنسبة لآخرين، مع خطر معاناة أهلهم جراء ذلك، لأنهم كانوا على حافة الانهيار وأرادوا التحرر جذريا من كل رباط مهما كان الثمن الواجب أداؤه.

أولئك الذين لم يعطوا أي مؤشر مهما كان ضعيفا على مغادرتهم يتعرضون لخطر أن يفهم اختفاؤهم كأمر «مقلق» حسب عبارات القانون، يتطلب انتباها خاصا للأمن المرتاب بإمكانية جرم ما ناشرا لصور ومعلومات، بينما هم لا يتمنوا أي إشهار لأجل الانفصال بسهولة عن شخصيتهم. ويترك البعض رسالة وداع إلى الأبد لأجل شرح فعلهم هذا، وتفادي حزن أهلهم والتساؤلات اللامنتهية حول غيابهم، وبدون شك لإعفائهم من كل شعور بالذنب. إنهم يحمونهم هكذا من القلق الذي يعيشه أولئك الذين يجهلون كل شيء عن قرار المختفين ويخشون موتهم في حادثة أو جريمة. وبهذا العمل، يمنعونهم من اللجوء للأمن لإجراء البحوث. لكن الرسالة لا تزيل بكل سهولة الشعور بالذنب، ولا معاناة الحزن عن أولئك

الذين يظلون في لا يقينهم وهم لا يتوقفون عن اجترار لغز هذا الغياب.

كثيرة هي مواقع الأنترنيت المخصصة للاختفاء عن الذات للحيل من أجل تحقيق إمحاء ناجع وإعادة بناء الفرد لوجوده بعيدا بحالة مدنية أخرى أو في سرية مع الاحتفاظ بحالته. وقد ظهرت أو نشرت العديد من الأعمال حول هذه التيمة. ففي كتاب بعنوان «كراس الاختفاء»، Manuale di sparizione ب. دارينو P. D'Arino (2006) يلخص المتطلبات المصاحبة لاختفاء مأمول وناجح. من الضروري قبلا معرفة أين الذهاب والتفكير مليا في الوجهة المقصودة. مكان سبقت زيارته إن أمكن، وبعيد عن المكان الذي يعرف فيه الفرد. يقترح الكتاب أن يتم قطع كل علاقة مع الأهل بهدوء بجعلهم يفهمون رغبته في إيجاد فترة وحدانية في مكان آخر حتى تتسنى له إعادة النظر، دون تدقيق طموح المشروع لتفادي كل بحث عنه استقبالا. وينصح مؤلفون آخرون بالسفر متواترا دون إخبار لتعويد الأهل وعدم إثارة شكوكهم سريعا جدا لحظة المغادرة بالفعل.

بعد ذلك، وفي حالات عديدة يستحسن تزوير الحالة المدنية، وهي مهمة دقيقة ترتكز على كفاءة المتعهدين الوسطاء. يمكن أن يقتضي اختفاء الفرد تدمير أوراق هويته والاستعلامات المتعلقة به والتي من شأنها يوما أن تعطي لأحدهم الفرصة لاقتفاء أثره. إذا كانت الأوراق ترسم الوجود الإداري للفرد وبالتحديد في دول

القانون فإن ضياعها أو تدميرها سلاح دو حدين، إنها تحرر من جهة من الهوية الاجتماعية لكنها تمنع كل تنقل أو جولان اللهم إلا إذا تم التعرض لمراقبة أمنية. تعتبر بطاقات الهوية في مجتمعاتنا أساسية للوضعية المشروعة الشخص (داردي Dardy، 1998). فاللقب بشكل خاص هو تسجيل في قلب سلالة، إنه يعبر عن ذرية، وعن انتماء اجتماعي، ويصاحب تاريخ حياة من الولادة حتى المات ويتجذر هكذا في قلب شبكة عائلية. يثبت الفرد، ويدخله في جسده مدافعا في أصل عن تاريخ، وعن حالة مدنية. يقتضي الاختفاء نهائيا تغيير الاسم لأجل تشويش الآثار اجتماعيا. فالاسم لحمة الهوية، بالنسبة للذات و للآخرين لأجل الأحسن أو للأقبح، حماية أو سجنا في علامة يمكنها أن تصبح إشارة، وتأشير (لا بيير Lapierre، 1995، 368). يفضح أحيانا أصول الفرد بتعريضه للعنصرية أو للريبة. لكن، إنه وبكيفية بسيطة، يسجن داخل تاريخ شخصي، وفي هوية، وخصوصا في عصر الأنترنيت حيث ما لا يحصى من الآثار تظل أحيانا على مواقع التواصل الاجتماعية دون علم الفرد الذي كان يعتقد أنه قد أخد احتياطاته. إن الاسم هو الشخص، ما يفتأ يصاحبه مثل ظله. التخلص منه دون تحديد آخر، ذا مصداقية، يؤدي إلى أن يصبح المرء دون سمك، وشفاف، ودون صوت. الخطوة الأولى للمهاجر السري، كيفما كانت صفته هي بالتأكيد أن يجد له اسما، ولو على الأقل أن يكون معروفا من طرف رفاقه في حالة حركة جماعية أو عند لقاءات بالصدفة والخطوة الثانية هي أن يكون بعيد المنال بالتخلي عن جميع العناصر التي من شأنها

أن تترك أثرا لمرور ولإمكانية التعرف. الولوج اليوم ضرورة ملحة تجد أدواتها بالتحديد بواسطة الهاتف الخلوي والأنترنيت. أن يصبح المرء صعب المنال، ولا يمكن الوصل إليه، على سبيل المثال دون هاتف خلوي ودون أنترنيت هي كيفية للبقاء بعيدا عن شكل مكتسح من الحياة الاجتماعية، وعدم المشاركة في التنقل دون نهاية للمعلومات والأخبار.

يتخلى عدد من الشبان في حالة تيهان، وقطيعة مع عائلتهم، عن هويتهم القديمة ويدينون إرادتهم للتغيير باتخاذ اسم شخصي آخر أو كنية أخرى. لم يعد لهم بعد أن يقدموا الحساب لأقربائهم (أنظر ما بعد) ولكن لا يكفي أن يصرح المرء بالقطع مع حالته المدنية لكي يتحرر من إكراهات هويته، فلا تقبل لإدارة التعريف الذاتي أو المرجعية المحددة ذاتيا وبقرار شخصي. «إن الموانع الاجتماعية للمسخ هي الأكثر أهمية منها جميعها» *(كانيتي Canetti، 1976، 403)*. فقطع هوية مدنية ما هو بالفعل تشويش على توقع المصلحة الاجتماعية، وعلى التعريف الضروري اجتماعيا للفاعلين بعضهم تجاه البعض. إن هذا القطع استغلال للثقة.

ما الأهمية اليوم؟ أي هدف يتتبع الآن؟ إذا لم يعد يعرف بعد أي أحد مطلقا من هو من، وإذا كانت الهويات تتبدل بغير علم الآخرين، يصبح من المتعذر على المرء اتخاذ وضع ما وتأسيس ثقته على الأشباح. وغالبا ما يرتبط المسخ بضرورة التستر لأجل القيام بأعمال إجرامية، وإرهابية، أو بهدف التجسس. لكن بإمكان هذا

المسخ أن يكون أيضا بفعل إرادة التخلص من الممارسات الروتينية القديمة لأجل ولادة من جديد في مكان آخر وبهوية أخرى ليبدأ المرء من جديدة حياته بمعطى آخر جديد.

يذكر مانكيل(Mankell) في **حقيبة شاي** (Tea Bag) أن عددا من اللاجئين أو المهاجرين يدمرون بطاقاتهم للهوية، لأنهم يدركون سريعا بأنه «يصعب كثيرا التخلص من شخص بلا أوراق تعريف أصعب جدا، وكذا صده بالضرب بالعصا أصعب جدا مقارنة بأحدهم الذي لازال له اسم. إنه لمن الذهاب بعيدا جدا عند اعتبار الناس الذين هم غير موجودين هم حقيقيون أكثر من أولئك الذين يرفضون التخلي عن هويتهم» *(2007، 253)*. هنا تصبح الهوية فخا. ومن أجل إعادة بناء حياتهم يهمل البعض جذريا حالتهم المدنية القديمة. حين يضغط الوجود أو أن بكون الفرد يعج بالناس جدا داخل نفسه ذاتها لكي يستمر، يمكن له أخذ واحدة من الهويات المستعارة أو أكثر ويحولها شيئا فشيئا إلى ما يشكل ما هو. وسوق البطاقات الزائفة حكاية طويلة، يفرض اليوم على المهاجرين دون وضع قانوني، وعلى المهاجرين السريين، وعلى الهاربين، والمنفيين، وعلى كل أولئك الذين عليهم تغيير الجلد لأجل الذوبان في الكتلة والإقامة كما يحلو لهم دون إثارة شكوك سلطات البلد المضيف أو ذاك الذي كانوا عليه من قبل.

يشتري البعض بثمن مرتفع هوية أخرى بالالتجاء إلى وكالات مختصة، في الغالب في قارة أخرى. دون أن يدلوهم على عناوينهم،

يتحدث ف.دارينو (F. D'Arino) عن مخابر سرية ومكلفة من شأنها تهيئ الطريق للهارب عن طريق تنسيق مراحل اختفاءه وبتهييئ الأوراق اللازمة، مع إعلان نقطة الوصول، قبل الإمحاء مع استشراف نقطة الوصول قبل امحاء هذه المخابر ذاتها بمجرد إتمام المهمة. مثل هذه الوكالات «توجد، كما يقول، لكن في لا مكان. يمكن الاتصال بها ولكن لا يمكن الوصول إليها[...] في مكتب لا مرئي موجود في مكان لا مرئي، بفضل طاقم عمل كفء ومؤهل، ومواد وخدمات تعرض، يروج لها وتباع» *(2000، 100 و 105)* وتعمل مواقع الأنترنيت في السرية و فوق كل تقنين مشروع لإعطاء زبائنهم أحسن الظروف للتستر عن العيون. يعطي ف. دارينو(103) المثال بصحفي الذي بواسطة مقدار مهم من المال استطاع هكذا أن يؤسس لنفسه هوية مستعارة دائمة ولا تثير الارتياب في نظر القانون. ويلاحظ ه. برولونقو (H. Prolongeau أيضا السهولة التي يعطي بها كل من يتوفر على المقدار الكافي من المال يعطي لنفسه حالة مدنية أخرى *(2001، 153 وما يليها)* تساهم عملية كهذه على كل حال لمدة طويلة لكل محاولة للمجرمين، والإرهابيين أو للمنفيين في الهروب من كل مراقبة أمنية من طرف رجال الشرطة.

لقد آن الأوان للاستقرار وبداية حياة أخرى. يقتضي ذلك الاقتلاع من الجذور دون أمل في العودة، يقتضي التشطيب على امتيازات وذكريات الحياة السابقة في كليتها، منها إلى الصور الفوتوغرافية إلى كراسات الذكريات الشخصية أو الحميمية إلى

الملابس، ومن المهم في بعض الحالات التخلص حتى من المظهر، ومن هيئات معينة من خلال الالتجاء للجراحة التجميلية أو إلى صناعة لوك مغاير جذريا. فتغيير الحالة المدنية يواكبه اقتلاع الكيفيات القديمة للتعرف على الفرد المكره على أن يمسح الطاولة من وراء الذات وعلى عدم ترك أي مؤشر، وأي أثر. تغيير الوجود لا يتم دون امحاء جذري من التاريخ الماضي.

ينبغي على الهارب أن يعين جيدا ممن ومن ماذا يرغب في الاحتماء في أن يكون في مأمن حتى يتسنى له أن يستر هشاشته أو أن يتهيأ بالفعل للانطلاق دون انتظار. فيعيش وجودا متسترا ليتفادى لفت انتباه السلطات إليه، والسلطة الأمنية خصوصا ويتبادل مع جيرانه الحديث ببلورة قصة خيالية قابلة للتصديق حول شخصه، وأصوله، وأسباب استقراره في هذا المكان... وأحيانا تتم حمايته من طرف جماعة الاستقبال التي يذوب داخلها في مشاركة وتقاسم إيديولوجي أو ديني أو سياسي، وفي هذه الحالة فإن هذه الجماعة تكون قد وفرت له أوراق التعريف والتغطية الضرورية لبقائه مجهولا. لا ينفي الاختفاء جميع الإكراهات. وغالبا ما يكون عليه أن يجد عملا ما لضمان عيشه، اللهم إلا إذا كان يتوفر على ما يكفي من المال لكي يعيد بناء حياته في مكان آخر بعيدا.

يسجل رجل أمن خصوصي مختص في البحث عن المختفين عند استجوابه عن مدى حظوظ التشويش التام والنهائي لطرق البحث في فرنسا، يسجل الصعوبة بصدد ذلك. يمكن لعمل كهذا أن يلعب

خلال بضع سنوات دون شك. ولكن في هذه الحالة يجب على الشخص الذي اختفى أن يظل دائما في حالة تأهب ويظل حذرا. وأصعب شيء هو عدم ترك أثر أبدا، سواء على مستوى البنوك، والضمان الاجتماعي، وكل الإدارات على العموم. وبالإجمال يجب الحرص على ألا يكون للمختفي أي وجود اجتماعي. مما يعني العمل في الخفاء بشكل غير قانوني، والحذر من الأصدقاء والتكفل بتدريس طفله... ويوما ما وبكيفية لا بد منها يتراخى الانتباه ونرتكب خطأ ما *(مذكور في مازو Mazeau، 1999، 96)*. تسهر جمعيات متعددة أيضا ما فوق المباحث الخصوصية والتي توظفها أحيانا العائلات للعثور على أحد أفرادها المختف تسهر أيضا على إعطاء الدعم لأقاربه الدعم اللوجستي والمعنوي في نفس الوقت، وأحيانا بالتمويل، في خضم بحثهم عنه.

إذا نجح الفرد في المرور، بالمعنى المبدئي تماما للكلمة، يشرع في تحول جذري بالذهاب بعيدا إلى مكان آخر لكي لا يتعرض لإمكانية ملاقاة أحدهم قد يكشف أمره، ولكي يسعد بهامش من مباشرة مشروعه تكون أكثر اتساعا في عملية إعادة بناءه لشخصيته الجديدة، بهامش من المناورة يكون أكثر يشرع في التحول الجذري، له أرض الله الواسعة للاختفاء في مكان حيث لا أحد بتاتا سيقطع من جديد معطيات هويته، إنه شخص مجهول على مر مقامه، يتكلم لغة أخرى ربما، لأنه حافظ على سرية تنقله أو أصوله. إنه يخفف عبء هويته البائدة، وعبء واجباته، ويرتبط بإعادة بناءه من جديد، ويستفيد من فرصة أخرى لأنه لا يحمل تاريخه، ربما هناك

نحس مرسوم على وجهه. إنه جاهز لولادة جديدة. ولا يلتفت إلى ماضيه، بلط يتخلى عليه في كليته ويترك وراءه أيضا كل الشهود الذين من شأنهم أن يذكرونه بهويته حتى أولئك الذين كان مرتبطا بهم.

في فرنسا في الأول من نونبر 2010، كان قد تم تسجيل 406849 شخصا في لائحة الأشخاص المبحوث عنهم (ف ب ر)، إلا أن هذا الرقم يشمل مع ذلك أيضا كلا من المراهقين الهاربين كما النصابين أو المجرمين الباحثين عن الإفلات من العدالة، والإرهابيين، أو الأشخاص المفقودين والمبحوث عنهم لصالح العائلات. كل اختفاء في ظروف مقلقة يسجل مباشرة على لائحة الأشخاص المبحوث عنهم وبالأحرى عندما يتعلق الأمر بالقاصرين أو الأشخاص المحميين. تتدخل خدمات الأمن والدرك بعد الإخبار من أجل إجراء البحث. كان من بين بعضهم من كان ضحية حوادث، واختطافات أو جرائم. يسمح لضابط الأمن بترخيص من وكيل الجمهورية بالولوج لسجلات الهيئات العمومية أو المكلفة بمهمة من الخدمة العمومية.

كان سجل آخر إلى حدود أبريل 2013، يدخل أشخاصا بالغين يشكلون موضوع بحث لصالح عائلات (ر ي ف) ولكنهم ذوو اختفاء لم يكن يصنف قضائيا بالمقلق. وحدهم الأقرباء بالمصاهرة أو بالنسب كان يرخص لهم بالإخبار عن هذا الغياب وكانت الشكاية توجه لدائرة الأمن، ولفرقة الدرك أو للعمالة. وكان

الشخص المهتم بالبحث عن راشد اختفى يملأ استمارة كان سجل آخر الأقرباء بالمصاهرة أو بالنسب يملأ الاستمارة المطلوبة والأمن أو الدرك يفتح أو لا يفتح التحقيق بهذا الصدد. وقد تم اليوم إلغاء هذه المسطرة. يمكننا أن نقرأ على الموقع الإلكتروني لمحافظة الشرطة وبالتأكيد في يونيو 2013: «أخذا بالاعتبار تطور وسائل جديدة للتواصل اللاسلكي وبالخصوص الأنترنيت، فإن عدد طلبات البحث لصالح العائلات قد انخفض بشكل قوي هذه السنوات الأخيرة بكيفية جعلت هذا الإجراء يسقط شيئا فشيئا في الإهمال[...]. فأنتم مدعوون ومدعوات لأجل القيام بالبحوث التي ترجون خوضها أن تستعملوا الأنترنيت، وبصفة خاصة شبكات التواصل الاجتماعي التي من شأنها أن تشكل وسائل بديلة ناجعة (وتستجيب لانتظاراتكم)».

إذا لم يتم العثور على الشخص في أجل ستة أشهر فإن شهادة توقف البحث تمنح للعائلة تحت طلبها. وتحصي وزارة الداخلية حوالي 2500 من المختفين الراشدين دون إعطاء أقاربهم أي مؤشر مهما كان ضئيلا على وجودهم. وكان قد تم العثور على بعضهم، ولكنهم رفضوا إعطاء أخبار عن محاورهم الجديدة لعائلتهم ويحتفظون بالسر لأن الاختفاء حق. وتعلن الشرطة فقط لأقربائهم بأنهم في مكان آخر، وأنهم بصحة جيدة، وأنهم لا يحبذون العودة. فإن إمكانية إعادة بناء الحياة بالنسبة لكل شخص راشد هي مسجلة في الفصلين 1 و4 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

عملت الصحفية باتريسيا فاجي (Patricia Fagué) لحساب برنامج تلفزي مشهور على العثور على مئات الأشخاص الذين لم يغادروا بالضرورة بدون ترك عنوان، ولكن الوقت وظروف الحياة كانت قد أبعدتهم عن أولئك الذين كانوا في البحث عنهم. لقد روت عملها في (Disparus) ديسبارو؟ **كيف العثور عليهم** (1998). وتصرح أنها قامت بالتعريف بعدة مئات من الأشخاص الذين اختفوا عن الأنظار، ولكن في أغلبية الحالات، فإن هؤلاء لم يكونوا يرغبون في عقد الارتباط من جديد بماض لم يعد له معنى في نظرهم.

كثير من المختفين يتم العثور عليهم في الشارع، بسرعة أكثر بدون موارد، يذوبون في حالة مجهولي الهوية للأشخاص الآخرين بدون مأوى، مسحوقين أحيانا بالمعاناة التي جعلتهم يغادرون مكان عيشهم القديم: انفصال، وطلاق، وصراع زوجي، وبطالة، وانهيار عصبي،إلخ. لا يتركون أي أثر يُذكر (برولزنج2001 Prolongeau) وشيئا فشيئا يتغيبون عن ذواتهم نفسها بإدمان الكحول واللامبالاة. للاختفاء متروكوه لحالهم، ومهمشوه أو بؤساؤه الذين سحق ثقل أحلامهم قواهم الخائرة. لا يبقى الرجال، وأحيانا النساء، بالضرورة في أحياء مناطقنا. بعضهم وثق في إمكانية إعادة بناء نفسه بعيدا، لكن التجربة أذاقتهم مرارة التكذيب من جديد. لقد أتوا ليفشلوا على جنبات متخيلهم، في الصحاري أو الأدغال، والجزر، حيث كانوا يعتقدون أنهم سيجدون بهجة الحياة. كان جوزيف كونراد (Joseph Conrad) خصوصا، أو (George

Simenon) جورج سيمونون، قد قاما فيما قبل بإرساء ملمح قرابة العشرة من هذه الوجوه المنزوع منها كل كرامة، والمريرة، والتافهة، مثل هذه الشخصية التي التقاها جاك مونيي في أمازوني. حديقته مملوءة بالليمون، يصطاد بيرانا باستعمال ديناميت المتفجرات، ويردد دائما شيئا ما بشكل مبالغ فيه، أنه هو على الأقل، «لا يقف في الطابور داخل المحلات»، كما لو أن كل طموحه قد توقف هنا *(مونيي Meunier، 1987 82)*.

اختفاء ماجورانا (Majorana)

يعد الفيزيائي ماجورانا المولود في 1906، في كاتان، بسيسيليا، واحدا من ألغاز القرن العشرين فيما يتعلق بالاختفاء. لقد مر مثل نيزك آتيا بمساهمة كبيرة في الفيزياء الكوانتية لنهاية سنوات 20 ولسنوات 30. موهوب بشكل عظيم جدا، لكنه لا يرتاح للآخرين، ويسعى مع ذلك لأن يظل غير مثير للانتباه، ويبقى في الظل، وينشر قليلا. دافع في 1929، على أطروحته ولأول مرة في إيطاليا، بتطبيق قوانين الفيزياء الكوانتية على نواة الذرة. والمعادلات هي بالنسبة إلى ماجورانا أجسام ملموسة، وعرائس بحر اختار أن يستسلم لها ومعها يتعايش داخل بين-اثنين عوالم، يعلق أو. كلاين (E. Klein) إنها الأشياء الوحيدة التي ليست خيالية فالواقع، والحقيقي، لا علاقة له مع ما هو عيني ويترك نفسه لبلوغه عن طريق رياضيات متطورة جدا. فالجسم أو اللحم البشري، الحقيقي، لا تمثل له على ما يبدو أية أهمية" (2013، 55). يحضر قليلا إلى

عمله في المعهد «معهد روما للفيزياء» على العكس من زملائه. يوصف بكونه "نحيلا، بخطو خجول، يكاد يكون غير أكيد، من طرف زميله أمالدي Amaldi *(سياسيا Sciascia، 1977، 123)*. ينظر إليه دائما تقريبا كشخصية «غريبة الأطوار»، «محيّر» من طرف أولئك الذين يلاقونه، منغلق في عالم خاص. منظر خالص، لا يميل إلا قليلا للمشاركة في النقاشات، لا مبال باكتشافاته الخاصة، استبقت توقعاته أبحاث هايزنبرغ (Heisenberg) ، ولكنه اغتبط لنشر هذا الأخير لها، معفيا إياه من همّ ضرورة القيام بذلك بنفسه. التقى هايزنبرغ ماجورانا في لايبزيك وارتبط معه بعلاقة صداقة. و قبل الاستجابة لطلب مضيفه كتابة مقال حول بنية النوى الذرية التي تصحح على مستوى بعض النقط نموذج هايزنبورغ *(كلاين Klein، 2013، 87)*. وسيقول مع ذلك فيما بعد إنه قد لاحظ صعوبات ماجورانا في التواصل مع الآخرين. وعند العودة من سفره، «لم يكن يريد بعد أن يترك لنفسه فرصة رؤية رفاقه القدامى له»، تكتب لورا فيرمي Laura Fermi *(سيياسيا، 1977، 138)*. لم يعد بعد إلى المعهد وانطوى في غرفته، رافضا أغلب الزيارات. يتغذى قليلا، ويكتب بكثرة هائلة، ولكن دون أن ينشر أي شيء. أعاد قراءة عمل مواطنه بيرانديللو كما لو أنه يبحث قبلا عن نمط استعمال من أجل الهروب من صعوبة أن يكون هو نفسه. يخرج بالكاد من بيته، لمدة أربع سنوات. لا أحد بتاتا يعرف ما إذا كان سيستمر أم لا في أبحاثه.

يبدو ابتداءً من 1936، أنه تحسن وأنه أصبح يقيم أحيانا مع

عائلته، تم تعيينه في أكتوبر 1937، أستاذا للفيزياء النظرية في نابولي (Naples). يعطي بضع حصص لكمشة من الطلبة، ولكنه يفعل ذلك بصوت منخفض يكاد يكون وشوشة. أحضر في 25 مارس 1938 صندوقا من كارتون مملوءا بالمخطوطات لإحدى طالباته. ركب بعد ذلك على متن سفينة تقوم بالربط البريدي بين نابولي وباليرمو. يكتب لزميله بألا يندهش لـ«اختفائه المرتجل». وعبر له عن صداقته وعرفانه. تبدو الرسالة كما لو أنها تعلن عن إرادة الانتحار المبرمجة في «الساعة الحادية عشرة هذا المساء». ولكن كاريللي تلقى رسالة مقتضبة أخرى ملغزة، فيها يكتب ماجورانا بأن «البحر رفضه» وبأنه يعود لفندق بولونيا. وصرح له برفضه للتعليم. تنبئ بعض المؤشرات بعودته إلى نابل. حتى أنه شوهد في الشارع ما بين القصر الملكي والغالري من طرف ممرضة كانت تعرفه. لكنه يوم الإثنين 28 لم يكن لا بالفندق ولا بالمعهد. ومنذ هذا الوقت ظل غير معثور عليه. بحثت عنه الشرطة والدرك لمدة طويلة. وتم العلم بضعة أيام بعد اختفائه، بأن رجلا يشبه كثيرا ماجورانا شوهد وهو يطلب من كبير كنيسة جيزو نووفو في نابل أن يدخله في نظام اليسوعيين. ولكن أمام الجواب بأنه يجب اتباع قواعد القبول، كان قد ذهب ولم يعد أبدا. سحب كل أمواله من البنك بضعة أيام قبل اختفائه واتخذ الاحتياط بأخذ جواز سفره معه أثناء سفره، مما يبدو أنه يدحض فرضية الانتحار. ويبقى اللغز كلية قائما إلى اليوم. عند كتابته لمؤلفه، يحيل أو. كلاين على كتاب إيطالي يدافع عن فكرة أن ماجورانا اعتكف في دير كالابريي بتواطؤ مع

عائلته. ويتحدث كثيرا بيرانديللو في النص الذي كتبه، ل. سيياسييا ليس لأجل الشخصية ماتياس باسكال، ولكن لأجل ذاك الذي لواحد، لا أحد، مائة ألف، الذي هيأ مطولا لاختفائه.

أشكال أدبية للاختفاء

توجد الرغبة في التغيب في قلب الأدب والسينما المعاصرين. ويطرح ما يرتبط بالتخييل خطوط هروب تجر مؤقتا الشاهدين عليها إلى نوع من التخلي عن التزاماتهم الاجتماعية، وإلى تحديد هوية متناقضة وشخصيات لا سمك لهويتها، ولا تاريخ، فهي تمر مثل الظلال. في سياق الفردانية الديموقراطية لمجتمعاتنا الغربية، في عالم يكون على كل واحد أن يتحكم في ذاته، وفي قيمه دون أن يملي عليه الرابط الاجتماعي توجيهاته، تكون الحرية نوعا من الدوخة، والإحساس بنسبية الوجود. خط التصدع يعبر القرن مع كثير من المؤلفين، لتزدهر في السنوات الأخيرة في سياق نزعة فردانية يصعب أكثر فأكثر تحملها. تعرف هذه الأفلام وهذه الروايات نجاحا لا يمكن نفيه رغم نظرتها أحيانا أو قراءتها غالبا، وهي تعبر جيدا عن التعريف المؤقت الذي يبحث عنه المشاهدون أو القراء، أو تعبر عن الحلم الذي يحقق لهم نوعا من التخفف من الذات.

توضح جيدا شخوص بيرانديلو (Pirandello) هذا الدوار أو الهوس بإمكانية إعادة بناء الذات بعيدا في مكان آخر بهوية أخرى حينما لا يعود وجودها الحالي يلبي الكثير مما ترغب فيه.

وهكذا ففي رواية **المرحوم ماتياس باسكال** (Feu Mathias

Pascal) ، شاب بدوي غير مرتاح مع نفسه يتشاجر يوميا مع زوجته وحماته، و ينتهي به الأمر إلى الهرب من بيت الزوجية. يجتر خلال بضعة أيام بؤسه مع التفكير في عودته. يربح بالصدفة ثروة في صالة قمار، ويأخذ علما في الغد بموته على صفحة الوقائع المختلفة لأحد الجرائد. لقد تم الخلط بين هويته وهوية شاب كان قد القى بنفسه في بئر. وستسارع عائلة أصهاره للتعرف عليه باعتباره المتوفى. وسينتهز الفرصة لإعادة بناء ذاته من جديد في مدينة روما بمأوى عائلي صغير متخذا اسم أدريان مييز: «كل ذكرى من حياتي السابقة قد تم بترها تماما، وانتهى الفكر الى اتخاذ القرار بإعادة بناء حياة جديدة، فقد كنت مجتاحا ومرفوعا ببهجة كابتهاج الأطفال» (1965، 112). ومع ذلك سيعيش في التوجس من أن ينكشف يوما ما. ومع وقوعه في حب فتاة شابة، لا يستطيع أن يصرح بنفسه ما دام قد مات بشكل رسمي. وذات ليلة سيسرق منه جزء من ثروته، ولن يجرؤ على تبليغ الشرطة بالسرقة مخافة القبض عليه هو نفسه بسبب انتحال الهوية. وسيكتشف الحدود الضيقة للحياة التي لا تحددها أي حالة مدنية في المجتمعات المبنية على نظام الشرطة. وسيقرر الرجوع إلى قريته لكي يسترجع بها مكانه، يجد زوجته قد تزوجت من جديد. ويشعر بأنه لم يعد شيئا ذا أهمية: «ظلُّ إنسان ميت: هذه هي حياتي» (245). يشير بيرانديلو في تعليقه الأخير على الكتاب وهو يكتب باستلهام عمل كهذا، الى سلسلة من الوقائع المختلفة من نفس الوضع التي عرفها عن طريق الصحافة.

يحكي جورج سيمونون (Georges Simenon) في **«هروب**

السيد عالَم» La Fuite de Monsieur Monde سنة 1945، يحكي قصة رجل يقارب الخمسين سنة، نجح في كل شيء على ما يظهر، لكنه يحس بمرارة العيش، محبط من زوجته و أبنائه. سيقرر أن يترك كل شيء بين عشية وضحاها بلا نقود تقريبا ومن دون أن يعلم أي أحد. وأول ما قام به هو حلقه لشاربه. وسيستيقظ ذات يوم بعينين دامعتين: «ما كان يسيل من ذاته من خلال عينيه الاثنتين، كان كل التعب المتراكم لمدة ثمانية وأربعين سنة، وإذا ما كانت هذه الدموع حلوة فلأن المعاناة أو المحنة قد انتهت الآن. وكان قد استسلم، ولم يعد يقاوم[...]. وكان رجلا قد جر من ورائه لمدة طويلة ظروفه كرجل من دون أن يعي بذلك كما يجر الآخرون مرضا ما كمجهول» (1945، 52 و170). يعيش لفترة حياة تيهان وفقر قبل أن يجد نفسه متورطا رغما عنه في خصام زوجي في الغرفة المجاورة لغرفته في الفندق البائس الذي كان قد وجد به ملجأ. إذ سيمنع باليل المرأة من الانتحار. وسيؤخذ لفترة بقصة الآخرين. وسينتهي هو أيضا مثلما هي شخصيات بيرانديلو، بالرجوع إلى هويته القديمة بعد عطلة طويلة. تحط روايات أخرى لسيمونون من نفس الإرادة في التخلي عن الذات قصد العيش حياة المجهول.

تعد روايات بول أوستر (Paul Auster) ذات دلالة بالنسبة للتساؤل حول الاختفاء، فشخصياتها متغيبة عن ذاتها في غالب الأحيان، إما بإرادة المؤلف الذي لا يعطيها للوهلة الأولى أي سمك بيوغرافي ويترك لها بقايا وعي (**الثلاثية النيويوركية**)، وإما أن هذه الشخصيات تبذل جهدا للاختفاء من مسارها بين لحظة و أخرى.

ففي **قصر القمر** (Moon Palace)، وفي مواجهة سلسلة من الصعوبات، يكون الراوي غير متأكد من إرادته في الاستمرار في بذل الجهد للعيش. «كنت أحاول الانفصال عن جسدي، ومراوغة حيرتي بإقناع نفسي أنها غير موجودة. وكان آخرون قبلي قد اتبعوا هذه الطريق، وكانوا قد اكتشفوا هذا الذي انتهيت لإدراكه: لا يستطيع العقل أن يغلب المادة، لأنه بمجرد ما يجد نفسه مطلوبا بشكل مبالغ فيه، يفصح عن نفسه هو أيضا كواقع مادي. ولكي أرتفع فوق ظروف حياتي كان لزاما عليّ أن أقنع نفسي بأنني لم أعد واقعيا، ونتيجة لذلك أن كل واقع كان قد أصبح بالنسبة لي غير مؤكد» (1990، 56). يفرغ شقته من كل الأشياء ويترك نفسه تنزلق شيئا فشيئا: «تبدو لي وحدها حركة عدم القيام بأي شيء ذات أهمية، لم أكن أجد حرجا في أنني كنت أترك الساعات تمضي في الفراغ» (56). ويجد نفسه في الشارع. لقد تحرر من نفسه، ولم يعد يرضي سوى جوعه كمتسول أو كمقلّب في حاويات الأزبال الى الحين الذي نخرته الحمى لينزلق فيه بين الأدغال ويستسلم للموت بهدوء. استطاع بعض الأصدقاء العثور عليه في نهاية المطاف. ويعود بهدوء للرابط الاجتماعي ويعمل في خدمة رجل مسن راغب في كتابة قصته. تلك أيضا قصة اختفاء لأنه هو ليس الرجل الذي يدعي أنه هو. ويقطع الراوي مسارا مبدئيا من حضيض إلى آخر. وفي نهاية السرد، سيشاهد الشمس وهي تختفي في الظلام وقد أخذ منه كل شيء، وبدون أفق، وقد سقط في مدينة لاكونة بيتش (Laguna Beach)، قبالة البحر الهادي: «كنت قد وصلت الى

حد العالم، وما وراءه لا يوجد إلا الهواء والأمواج، كان فراغ يمتد دون حواجز حتى إلى ضفاف الصين. أقول في نفسي هنا سأبدأ، هنا حيث ستبدأ حياتي». (468)

في «الغرفة المكشوفة» (في أوستير، b1988)، يختفي فانشيوي متذرعا بزيارة لأمه بنيو جيرزي. وستكتشف زوجته أنه لم يذهب لزيارتها. ستنتظره لشهور على أمل رجوعه، خصوصا وأنها حامل. وستجري الشرطة تحقيقا سريعا قبل إهمال الأمر، كل شخص راشد له الحق في الاختفاء إذا لم يطرح أي شك في ارتكاب جريمة. يرفض كوين المخبر السري أيضا البحث عنه. وسيمتنع فانشيوي ككاتب الاتصال بناشر، راغبا في التفرغ لعمله. ولكن تحت إلحاح زوجته، كان قد اقترح عليها يوما بأنه إذا لم يأخذ المبادرة هو ذاتيا بإعطاء مخطوطاته لأحد الناشرين قبل متم السنة، فإن عليها أن ترسلها إلى أحد أصدقاء الطفولة، الذي أصبح ناقدا أدبيا، وهو الناقد الوحيد الذي يثق فيه، والذي كان يخضع لتقييمه. ولم تكن صوفي تدري ماذا تفعل بالحقائب التي بها كتابات زوجها. كتبت مقتنعة أكثر فأكثر أنه لن يعود، كتبت لهذا الرجل الذي كان قريبا منه فيما مضى. هذا الرجل لم يكن معروفا أبدا لكنه راوي القصة، وسيؤخذ باللعبة وسيكتشف أن للمخطوطات قيمة رفيعة. وسيعرف أول عمل نشر نجاحا بينا. وكذا الأعمال التي تلته. وسيقترب من صوفي، ومن بين (Ben)، ابن فانشيوي، الذي ولد إذ ذاك. وسيعيشون حياة سعيدة. تخيل الراوي أن يستمر هو نفسه في نشر روايات تحت اسم فانشيوي حينما ستنفذ كتابات الصندوق. لكنه سيتلقى رسالة من

المختفي الذي يصرح، بكيفية مسيئة بأنه يوجد دوما على قيد الحياة، ولكنه يؤكد للراوي عدم رغبته المطلقة في الظهور مجددا. أخفى مرتبكا الخبر عن صوفي، التي تزوجها وتبنى بين. وسيقبل اقتراح أحد الناشرين بتحرير عمل حول فانشيوي ثم انطلق في أثر صديقه لزيارة أمه بالتأكيد وبقراءة الرسائل التي كان يبعثها لها. إلا أن العلاقة مع صوفي ما فتئت تتدهور، والراوي في وضع غامض معها غير مدرك جيدا من يكون هو ذاته في النهاية. سيذهب إلى باريس للبحث عن فانشيوي. وسيعيش هناك فترة انحراف، وانعدام التحكم في الشخصية الذي احتد مع إدمان لا منته على الكحول على خطى رجل ما انفك يختفي. سيعود إلى نيويورك بعد العبور ليلا، لكن الحياة مع صوفي تستأنف، في سعادة، إلى اليوم الذي يتلقى فيه السارد رسالة جديدة من طرف فانشاو يطلب منه فيها القدوم إلى بوسطون كي يراه. أخفى الرسالة عن زوجته، واتجه نحو العنوان المشار إليه. مر بمحنة اللقاء النهائي مع الرجل الذي انتحل هويته. بعد مناقشة خلف باب مغلق في شقة عمارة متهدمة، تركه لكي ينتحر. عندما قرأ الدفتر الذي ألقاه الكاتب من تحت الباب، تبين أنه لا يفهم في الأمر شيئا. «كل جملة تمحو السابقة، وكل فقرة تجعل الفقرة الموالية مستحيلة» *(1988 b، 427)*. مزق صفحات الكتاب راميا بذلك فانشاو في اختفاء نهائي. ينبغي على هذا النحو تحليل كل مؤلف من مؤلفات بول أوستر من هذه الزاوية، زاوية التخلص من الذات.

يذكر أوستر نفسه كاتبا أمريكيا آخر (أوستر،1991، 244-

245) وهون. هاوتورن (N. Hawthorne)، يقول عنه إنه، بعد دراساته الجامعية، عاد إلى والدته، فأغلق عليه الغرفة، ولم يغادرها خلال اثني عشر سنة. في إحدى قصصه، هناك رجل يدعى واكفيلد قرر خداع زوجته. استقر بفندق، غير بعيد عن البيت. وبعد بضعة أيام، وبعد أخذ الوقت يمر، الشهور، فالأعوام. ذات يوم كشف خطوطا جنائزية على واجهة منزله. إنها جنازته هو. مرت أعوام، وكان يصادف زوجته في الطريق من غير أن تراه. ذات مساء، حيث كان يمر أمام منزله القديم، ألقى بنظره حول النافذة، فرأى النار مشتعلة في المدفأة. تسلق الدرج ودق الباب.

في رواية أخرى يذكر أوستر كلاسيك د.هاميت D. (Hammett)، **الصقر المالطي** (Le Faucon maltais) ، وخصوصا استطراد الكاتب الذي يروي قصة وكيل عقارات ناجح يعيش حياة زوجية سعيدة خرج من بيته ليقضي حاجة بسيطة، لكنه لم يعد. سنوات فيما بعد أشير إلى رجل كثير الشبه به في مدينة مجاورة، لكن زوجته الحائرة تطلب من سام سباد أن يتأكد من صحة الوقائع. سرعان ما يجد المحقق الرجل الذي لم يكن مختفيا. حينئذ شرح له هذا الأخير أنه عندما غادر بيته سنين عديدة فيما قبل، كان هناك عمود منفصل عن السقف كاد يقضي عليه. عندما فكر في الحادث، ووعى أن الوجود ليس إلا مجموعة لامتناهية من المصادفات، غادر إلى مدينة أخرى حاملا معه فكرة أن يعيد بناء حياته. إلا أنه كان قد تزوج من جديد، فكان يعيش هناك حياة

شبيهة تمام التشابه بتلك التي كان قد ودعها[13].

مثل هذا التقارب الذي يمثله التخييل، والذي يمكنه أن يستمر لفترة طويلة من خلال العديد من الإحالات، يدل على مدى الانبهار بهذا الجانب الخفي للرابط الاجتماعي حيث لم تعد هناك ضرورة لكي يستمر المرء في تطوير شخصيته بكل تهور. إنه حنين إلى الانسحاب، على الأقل عن طريق التفويض للقارئ أو للمشاهد، تماهيا مع شخوص أدبية أو سينمائية تتحدث بعمق عما يعوزنا وما نأسف عليه، وكذا عن تطلعاتنا الخفية. بدل أن نذهب نحن بأنفسنا، أو نتخفف من شخصنا، نترك الآخرين يغادرون، فنتخيل أننا غارقون في التجربة ذاتها خلال بضع ساعات.

(13) كثير من الروايات والأفلام تتحدث عن الاختفاء والغياب عن الذات، وخصوصا ابتداء من السبعينيات مع أفلام ميشيل أنجلو أنطونيوني Michelangelo Antonioni، وفرنر هيرتزوك، Werner Herzog وفيم فيندرس، Wim Wenders وجيم جارموش Jarmush، وأكي كوريسماكي Aki Kaurismäki، وكيوشي كوروشاوا Kiyoshi Kurosawa، وغوس فان سانت Gus Van Sant، وشوه اي إيمامورا Imamura، الخ. ينبغي أن نختار عددا كبيرا من الكتاب حيث يسود عندهم شكل الاختفاء مثل كلاريس ليسبيكتور Clarice Lispector، وهنري ميشو Michaux، وسيلفي جيرمان Sylvie Germain(وعلى الخصوص مؤلفها **خارج الحقل، والمختفي**) وأوليفي آدم Olivier Adam، وآنطونيو طابوشي Antonio Tabucch، وبيتير هاندكي Peter Handke، وآخرون عديدون.

6. الذات تخييلا

«الوقائع رنانة، لكن بين الوقائع، هناك همسة».

كلاريس ليسبكتور(Agua viva)

الهوية مسلسلا

الإحساس بالهوية هو المكان دائم الحركة حيث يشعر الشخص بتفرده واختلافه. إنه إرث التاريخ الماضي داخل تشكّل اجتماعي عاطفي، وهو أيضا إرث ما لا يعد من أشكال التماهي التي ما يفتأ أثرها يتحدد طيلة حياة الشخص، وخصوصا التماهي مع الوالدين، ومع الوجوه المحيطة، أو تلك التي، هي أكثر شهرة، وتُستعار من المخيال الثقافي. فالبعد الجنساني، وكون الفرد ذكرا أو أنثى، ومدى إحساسه بالارتياح في هذا الوضع، كل ذلك يلعب دورا أساسيا. وهو يمزج بين التماهي والتجريب تحت راية تاريخ متفرد. إنه مكان التحكم في الذات، ومنبر التأمل والانعكاس على الذات، ومداولة مع الذات وذكاء عملي، الإحساس بالذات هو خزان المعاني الذي يضبط العلاقة مع عالم الفرد. وهو يكون قارا نسبيا، لكنه منفتح على

العالم، وهو يتخذ صيغته وفق المجموعات التي يشارك فيها. إنه ليس كلا منظما وكيانا أخلاقيا، وإنما هو صيغة للوعي توجه الوقائع والإيماءات أو الأفكار، وهي صيغة لا تنفك تتحدد وفق السياقات. إنه يتغير مع مرور الزمن، إلا أن سلكا موصلا يبقى كما هو، وهو الذي يوحي بالإقناع بأنه يظل الشخص نفسه. الهوية حركة نحو التطابق، بمعنى أن جوهر الذات يبقى ويدوم، فيسمح للفرد بأن يتعرف على نفسه من عهد لآخر. لكنها أيضا مرنة، من حيث إن مختلف الوقائع المتعددة في الحياة تترك فيها بقايا تأتي لتغذي التجربة، وتساعد على التوجه نحو تغيرات في إدراك الذات. نسيج متحرك من القيم والتمثلات والنماذج، والأدوار، والعواطف، كلها تقيم أسس الإحساس بالذات، وتبني تاريخا خاصا، وأسلوبا في الحضور، وحياة عاطفية وهي تعمل. فلا يكون الوجود الاجتماعي ممكنا إلا من خلال قدرة الفرد أن يتبنى أدوارا متتالية تختلف حسب الجمهور والأوقات وذلك بحفاظه على وحدة (لوبروتون، 2003). «لكن، حتى من وجهة نظر أكثر أشياء الحياة تفاهة، كما كتب بروست، فإننا لسنا كلا مكونا من مادة، متطابقة بالنسبة إلى الجميع، بحيث يكون على كل واحد أن يتعرف عليها، كما لو كانت دفتر تحملات، أو شهادة وصية. إن شخصيتنا الاجتماعية هي من خلق فكر الآخرين» (بروست، 1988، 24). إن العمل لا يشمل إلا جزءً مما في استطاعة الفرد أن يستثمره. وعندما يجسد أحد شخوصه في المشهد الاجتماعي، فإنه يضع الشخوص الأخرى بين قوسين. بعضٌ من جمهوره المعتاد سيكون مرتبكا لمقابلته خارجا وفي

سياق آخر، بعيدا عن الدور الذي اعتادوا أن يروه يلعبه. الإحساس بالهوية في جزء منه وليد الظروف. الفرد نفسه، في فريقه الكروي، أو في رفقة زملائه، أو أمام تلامذته في الثانوية، لا يشبه نفسه. والكيفية التي بها يلعب الدور، يمكنها أن تتخذ صيغا لا حصر لها بحسب المحاورين أو الأوضاع والمواقف. لاحظ و. جيمس أنه «بالمعنى الدقيق للكلمة، أن إنسانا له من الأنوات الاجتماعية بمقدار ما هناك من الأفراد الذين سيعرفونه ويكوّنون عنه فكرة أو رأيا من الآراء(...) عمليا، للإنسان من الأَنوات الاجتماعية بقدر ما هناك من مجموعات متمايزة من البشر الذين يهمه رأيهم فيه. عامة، فإنه يظهر نفسه تحت زاوية خاصة لكل واحدة من هذه المجموعات. فهذا الشاب متواضع مع والديه ومعلميه، وهو صعب وعديم الوجدان مع أصدقائه المقربين. فنحن لا نُظهر أنفسنا لأطفالنا، كما نظهرها لأصدقائنا الحميمين. من هنا يتولد عمليا تفتيت للشخصية إلى أَنوات مختلفة يمكن لأحدها أن يكذب الآخر، كما عند كل إنسان شغوف بأن يخفي عن فئة من أصدقائه الوجه الذي يظهره خارجا، لكنها يمكن أن تنسجم فيما بينها وتظهر نوعا من تقسيم العمل مثلما هو الأمر عند الإنسان الذي يدخر حنانه لأبنائه وصرامته للجنود أو للسجناء الموضوعين تحت إمرته» (1999، 230). كل أنا من هذه الأنوات يعكس إحساسه بالهوية.

الهوية هي مثل جوهرة الماس متعددة الوجوه، كل وجه من وجوهها يعطي عنها رؤية خاصة، وهي لا تنكشف في أي وجه لوحده، وإنما تشكل ذلك الانعكاس المرآتي. إنها تاريخ لا يكف

الفرد يحكيه لنفسه وللآخرين معدلا صيغته في بعض الأحيان، وهي لا تتخشب أبدا، إنها دائما علائقية وحركية. وهي لا تكف تنفلت «كلما كتب عن هذا الموضوع، كما قال إيريكسون (Erikson)، دلت الألفاظ عن محدوديتها حول حقيقة لا يمكن حصرها بقدر ما هي مكتسحة» *(1972، 5)*. وبدوره يكتب ليفي ستروس، استخلاصا لندوته: «الهوية بؤرة افتراضية ينبغي لنا أن نحيل عليها (...) لكن من غير أن يكون لها وجود فعلي» *(1983، 332)*.

لا يتعلق الأمر فحسب بأن يكون المرء هو ذاتَه، وإنما أن يتحمل الوجوه التي تتطلبها الأدوار التي تتوالى في الحياة اليومية. كل سياق يولد فردا هو في الوقت ذاته مطابق ومخالف. لا أحد متأكد تمام التأكد من صحة المسار. وكل فرد هو خزان من الشخوص تلتصق بجلده، ولكن ليس اعتباطا، لأن كل فرد يتحرك داخل طيف هوياتي، وهالة لا تحدد من المعاني، ولا تتضح إلا في إطار الظروف. لا يبلغ الفرد مجموع شخوصه، وهو لا يملك إلا حياة، وليس عدد الحيوات التي كان يمكنه أن يحياها.

كتب رامبو (Rimbaud) «أنا آخر». وهو أيضا أَلْفٌ آخر على مدار الجمهور الذي يتعامل معه، ومساره في حياته الشخصية، وهو منجذب بين مختلف الشخوص التي تتحرك بداخله، فلا يتمكن قط من بلوغ مجمل ما هو عليه، والذي لا يمكن إدراكه على كل حال. تتواجه داخله أشكال من منطق الفكر ومنطق العمل في الآن نفسه *(كوفمان Kaufmann، 2003، 2007، دوبار Dubar، 2000،*

لاهير *Lahire*، *1998*، دوبي *Dubet*، *1994*) وتتوصل إلى قرارات صعبة، مختلطة، وإلى أشكال من الحسرة والندم، ومن القطيعات، التي تتخذ شكلا جذريا في بعض الأحيان، الخ. إنها دائما متعددة، وتحت تأثير آخرين في الذات أو تأثير آخرين خارج الذات. يتكون الفرد من متاهات لا حصر لها تتشابك عنده منسوجة في أصوله الاجتماعية والثقافية، وما يفعله بها اليوم، والدينامیكية العاطفية التي نشأ في حضنها ومازال يتحرك في كنفها، والمؤثرات الخارجية التي تؤثر عليه، وتجربته الماضية، وعلى الخصوص المآسي أو المسرات التي عرفها. على نحو ميمون أو مؤلم، فإن البحث عن الذات هم متكرر عند معاصرينا. وهو أكثر حيوية عند المراهقة، لأن أي نموذج لا يمكنه أن يرشد أكثر من الطريق التي ينبغي للفرد أن يبنيها بنفسه (لوبروتون، 2007، 2013). والأمر لا يكون أقل من ذلك عند الشيخوخة، حيث تتزايد الخسارات، ويكون الفقد والنسيان أشد من التعلم والتقدم، وحيث لا ينفك الفرد يغير نغمة علاقته بالعالم بفعل ما يلحق وضعه الاجتماعي وحالته الصحية من تغيرات. المراهقة والشيخوخة لحظتان يصطدم فيهما الاستمرار في أن يكون المرء هو ذاتَه أحيانا مع كثير من العقبات الذاتية وخارج الذات، إنها فترات عياء وملل من ضرورة تحمل الشخص لنفسه تدعو إلى التخلي ووقف شد الحبل، بكيفية أو بأخرى، خفضا للتوتر.

لا يكون الوعي الذي يتجذر في الإحساس بالهوية قط تنبها لا يخطئ بحيث يتنقل بشكل واضح من حالة إلى أخرى. فهو يعرف

تذبذبات لا حصر لها بين اليقظة والسكر ولحظات التردد المعيشة باطنيا، حيث يكون الفرد هنا وخارجا في الوقت ذاته، غارقا في أحلام اليقظة أو في قلق يؤدي به إلى فقدان جزء من حضوره في العالم. الوعي يطبعه الانفصال والتقطع، وهو يتخذ نغمات متباينة حسب الظروف، وهو لا يكون قط خطا متماسكا منسجم الأجزاء، مستقيما على غرار الكوجيطو الديكارتي الحاضر باستمرار أمام ذاته. الوعي، كما يقول شولتز (Schutz)، مملوء «ثغرات، وتوقفات وقطائعا» (2007، 44). غالبا ما يختبئ الفرد عن ذاته في الوقت الذي يوحي فيه للآخرين، سواء عن صواب أم عن خطأ، بالإحساس بأنهم داخلون في دائرة التفاعل المتبادل معه. غير أن الوعي يشمل إمكانية التيهان اللحظي أو الدائم، فهو ليس المنارة التي تسلط الأضواء بشكل دائم على العالم المحيط، فتجعله قابلا للعيش، بل إنها تحجبه في بعض الأحيان. لقد حللنا بما فيه الكفاية هذه الرغبة في المحو الجذري المؤقت التي يفصح عنها المراهقون أو الشباب الناضج من خلال تعاطي الخمور المبالغ، أو ألعاب الاختناق، أو ممارسات أخرى ما زال يتقاسمها الأكبر منهم سنا (أنظر الفصل 3). ليس استمرار الذات في النهاية إلا اعتقادا ضروريا من أجل القدرة على العيش. «أن يكون الفرد هو ذاتَه، رغم ما تخلفه العبارة من صدى مألوف، ليس إلا إحساسا، واعتقادا ضروريا» (كوفمان، 2008)، ومجهودا يبذله الفرد ويمارسه على نفسه.

هويات هشة

تبدو لنا الهوية التي تؤسس العلاقة بالعالم مضمونة غير قابلة للتفنيد، ولكن لا شيء أكثر هشاشة، وأكثر قابلية للتهديد من طرف نظرة الآخرين، أو أحداث التاريخ الشخصي. فهي ليست منغلقة، وإنما تنسج ذاتها في اللامكتمل، إنها قابلة للتكييف. الظروف تصنعها وتفككها وفق الكيفية التي يؤول حسبها الفرد تلك الظروف، أو يعيشها وفقها. فلسنا منغلقين على أنفسنا بكيفية لا تعرف التبدل كما لو كنا في قلعة صلبة محروسة أشد الحراسة. فالفرد يرتبط دوما بعلاقة، وهو يتقدم في وجوده متحسسا طريقه، وغالبا ما يكون مضطرا إلى أن يعيد النظر في أهدافه، وأن يغير نظرته إلى ذاته. بما أن الإحساس بالهوية يكون متشابكا مع الظروف الاجتماعية، فإنه يؤخذ في سير الزمان والأحداث غير المتوقعة التي من شأنها أن تغير من رتابة العلاقة بالعالم. إن عدم الضرورة التي تطبع الأمور تقتضي من الفرد السير في طريقه متوقعا خطر فقدان موضوعات يرتبط بها (كفقدان شغل على سبيل المثال) أو أقرباء (حداد، فراق، ابتعاد، الخ). فتغيير وسط العمل المهني، وترقية رائعة، ولقاء حب، وزواج، وولادة طفل، والإعلان عن الإصابة بمرض خطير، الخ، كلها أمور من شأنها أن تغير إحساسا بالهوية ما ينفك يتعرض لتقلبات الحياة. الفرد هو دائما مسلسل متنقل. ومسار الحياة لا يعرف الثبات والتوقف، وهو ليس نهرا هادئا، وإنما صياغة دائبة للذات وتكيّف لا يكَل مع السن، وتقلبات ظروف العيش. فالعالم في ذاته، والعالم خارج الذات، لا وجود لهما إلا من خلال

الدلالات التي يسقطها الفرد عليهما. وإن الإحساس بأنه هو هو، وأنه فريد، ومتماسك وأنه يقف على أرض صلبة، كل ذلك ليس إلا مجرد وهم شخصي ينبغي للآخرين أن يدعموه على الدوام بحسن نية يزداد أو يقل. لا يكف الفرد يولد. وظروف عيشه تُبدّله، بمقدار ما يؤثر فيها. إنه يظل هو هو على مرّ الزمن، في الوقت ذاته الذي يعرف فيه تحوّلا بشكل غير محسوس، وأحيانا بشكل عنيف تحت نيران الظروف. إنه يتغير لكي يظل هو ذاتَه. ليست الهوية هي التطابق، وإنما هي العبور. يكتب وليام جيمس، واصفا تجربة مشتركة، إلى أي حد يتغير الوعي بالذات مع مرور الوقت وانسياب الزمن: «غالبا ما تصدمنا الفروق الغريبة التي توجد بين مختلف ملاحظاتنا المتوالية في شأن الموضوع نفسه (...) وهكذا فمن سنة لأخرى، نحن نرى الأمور على ضوء جديد. فاللاواقعي يغدو واقعا، والمثير للاهتمام يصبح لا طعم له. والأصدقاء الذين كانوا مبررا لحبنا للحياة، يصيرون مجرد ظلال متبخرة. والنساء اللواتي كن سابقا معبودات، والنجوم، والغابات، والمياه، كيف صار كل هذا باهتا ومبتذلا» *(1999، 236)*.

لا يتمكن الفرد مطلقا من بلوغ كلية باطنية، وهو لا يعرف إلا طبقة رقيقة من الوعي لا تنير إلا جزءا مما هو عليه. قال أ. غرين: «ليس الأنا هو الذات» *(1983، 82)*. على عكس وعي بالذات على طريقة ديكارت، وهو وعي لا يكف عن الانكماش على نفسه، وعن التنبه والتأمل، وعي الشفاف لا تاريخ له، يمارس سيادة مطلقة لا تشوبها شائبة، فإن الوعي عائم متناقض متشبع بتقلبات مسار

حياة. الوعي سجل من الدلالات. لا يستنفد وعيُ لحظة بعينها كل تعقيداتها. فعلى الأقل هناك اللاشعور الذي يخفي عن الوعي نصيبا مما هو عليه، ولكن أيضا، هناك تلك الظلال الهائلة التي راكمها تاريخه، وكل تلك الطبقات المترسبة عن مصادر الدلالات التي يشملها، والتي لا تكشف عنها إلا الظروف. يرى كلود ليفي ستروس أن «الهوية العقلانية الديكارتية، هوية الحالة المدنية، تتعارض مع هذه الهوية الخاصة التي تكونها نظرات المجموعة بكاملها إلى فرد بعينه (...) لكن، ربما ينبغي طرح السؤال: إلى أي حد لا يعمل الفرد ذاته على أن يصنع لنفسه هوية متعددة؟» (1983، 284).

لا يكون الفرد قط صانع وجوده، وهذا ليس فقط بسبب اندماجه الضروري في الروابط الاجتماعية، التي تستدعي العلاقة مع الآخرين، لكن أيضا، لكونه لا يعرف إلا جزئيا، ما هو عليه، وماذا يعمل. ليس الجهاز النفسي شيئا متجانسا، فهو في توازن لا يستقر، وهو لا ينفك يتحرك، بين توترات متناقضة، متبدلة. كان فرويد يتحدث بهذا الصدد عن التوتر بين لذة الحياة والموت، بين الإيروس والتناتوس، بين البناء والهدم. لا يكون الفرد فقط جهة الوعي، وما يعتقد أنه عليه، وما يفكر أنه هو، إنه يجهل ثقل تاريخه الشخصي، الذي يدفعه إلى القيام بتصرفات متجهة نحو ماضيه على حساب الحاضر. في الحياة العادية، لا أحد يتساءل عما هو، اللهم إلا بعد انفصال وفراق ومحنة شخصية، وهذه النظرة إلى الذات، حتى ولو كانت حادة، ليست إلا ضربة آلة فحص في سجل للذات لا يمكن

بلوغه، لأنه دائم الحركة، ولأنه ظرفي في محيطه، ولا يمكن وصفه في جوهره الأكثر دواما.

من هنا تتخذ كتب السير الذاتية في المجتمعات الغربية أهمية قصوى، وكذا المدونات عند الأجيال الشابة، وضرورة الحديث عن الذات لمعرفة من نكون. صحيح أن قصة الحياة لا تكون قط شفافة تعكس الأحداث التي مرت بها، وإنما تأويلا، وقراءة، أو إعادة قراءة على مر الزمان. وهي ليست في أي حال حقيقة، وإنما الصيغة الأخيرة التي يستخلصها الفرد عن نفسه. لكي يوجد المرء، فإن الإيمان يفرض امتلاك وعي، وأنا، وهوية، حتى وإن كان من المستحيل رسم حدودها بكل دقة، وحتى إن كان من غير المريح الإجابة عن السؤال "من أنا؟" ضمن شتات ما نحن عليه على مر الأيام، ووفق الظروف وحسب الجماهير. يتحول الشعور بالهوية إلى حكاية مؤقتة، موضوعها الذات، إنها الهوية السردية لبول ريكور (Ricœur P.)، أو السيرة الانعكاسية لبيك (U. Beck.) إن الحكاية عن الذات، هي مسعى، يأتي متأخرا، لبناء وجود موحَّد، ليس بموضوعية لا يمكن تصورها، وإنما ببحث عن المعنى وتماسك لا يتنافيان مع إعادة تأويل للأحداث قد تكون صادقة. في كل ظرف وحين، يرتبط الفرد بحكايته، وهو لا يكف عن روايتها باطنيا باحثا عن خيوط مساره في الأحداث الجديدة، والمواقف الحاضرة، يستعيد ذكريات أخرى تقوده إلى أن يظل هو نفسه، وفي الوقت ذاته، إلى أن يعيد النظر في تحديد نفسه على مرّ الأيام. الهوية التي يبنيها الفرد لنفسه ويعيد بناءها من خلال حكايته هي، من دون

شك، سرد من صنع خياله، إلا أنها هي السبيل الوحيد للاقتراب من الذات من خلال مسلسل لا نهاية له ولا تنفك تعاد صياغته. بل إنها قد تلقى عند الآخرين عدم قبول، فهم لا يعترفون بما يرويه عن نفسه، فيعدلون حكايته، ويكملون نقصها، بإعادة دمجه ضمن مجموعة متعددة الأصوات. خصوصا عندما يتدخل الخرف، فيتولى آخرون مسؤولية مواصلة تاريخ الشخص. لا يتم الجهر بالتناقض المتأصل في العلاقة بالعالم دائما بكيفية صريحة، فقد يحصل أن يسبب للفرد بعض التوتر، بل بعض الألم.

صادفنا ذلك على طول هذا البحث، وخصوصا عند الحديث عن السلوكيات المحفوفة بالمخاطر لدى الشباب، وكذلك أعراض انزلاق الأشخاص المسنين. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاكتئاب، والإرهاق، على سبيل المثال، هما أيضا من المحددات الممكنة للعلاقة بالعالم، والانكسارات التي تبدل الشعور بالذات رأسا على عقب. حسب مراحل السيرة الذاتية ومسار وجود الفرد، فإنه يعرف فتنة الهاوية، أو على الأقل، الميل نحو الاختفاء، وأن يصبح آخر، أو على العكس من ذلك، أن يتعدد. ومن غير أن نجعل من ذلك مبدأ تحليل نفسي، لنتذكر بهذا الصدد، ما قاله فرويد، في الفصل الأخير لكتابه **ما وراء مبدأ اللذة**: «إن الميل السائد للحياة النفسية، وربما للحياة العصبية بصفة عامة، هو المجهود الذي يبذل للخفض من التوتر الباطني الذي تولده المنبهات، أو إبقائه ثابتا، أو حذفه والقضاء عليه» (1973، 70)، فهو يشير بهذا المعنى إلى مبدأ النيرفانا (السكينة).

يتلاشى الانشغال بالهوية في الحياة العادية عندما تسير الأمور بشكل طبيعي، وعندما لا ينفك الوسط المحيط بالفرد يعترف بأنه هو من يدعي من هو كذلك. حينئذ لا يطرح الإحساس باستمرارية الذات في مختلف الأدوار ومع تقلب الظروف، أيّ صعوبة. لا تصبح الهوية موضع سؤال، إلا عندما تكفّ عن أن تعطي نفسها بداهةً، عندما لا تكون أمرا مفروغا منه. حينئذ لا يتعرف الفرد على نفسه، فتنهار المعاملة بالمثل مع الآخرين، حتى مع أكثرهم قربا. يمكن للقطيعة أن تأتي، على سبيل المثال، من أحداث اجتماعية مأساوية. حينئذ يكون على الفرد أن يعيد النظر في تحديد ذاته، واستمرار الهوية لا يعود أمرا طبيعيا، فيصبح موضع صراع باطني. في سياق المحرقة، يحلل م. بولاك، الإجراءات التي نهجتها السلطات الألمانية في الخلع، وبصفة مباشرة، الرغبة في «نزع الشخصية» (1990، 261) التي طبقت على المبعدين بمجرد ولوجهم المعسكرات لتدمير هويتهم القديمة. في بعض الأحيان، يكون للحرب المدنية، ومواجهة العنصرية، وغزو لجيش أجنبي، والهجرة، والصدمة، يكون لهذه الأمور كلها الوقع نفسه في تغيير الذات للتكيف مع أقسى الظروف ولكي لا تختفي. إن تجربة البطالة، والهجرة، والانفصال، والحداد، والمرض الخطير تغير هي كذلك إحساس الفرد بهويته. في سياق مواجهة مع الشدائد الجذرية، فإن البقاء على قيد الحياة يتطلب «خلق مسافة معينة بين الذات وتجربتها، لكي تتمكن من ضبطها بشكل أفضل» *(بتلهايم Bettelheim، 1979، 61)*. وهي تقتضي مرونة ومستوى

من الملاءمة مناسبا لموارد الفرد، وكثيرون هم من يعجزون عن القيام بذلك، فيلقوا حتفهم، أو ينهزمون.

لا يكون أنا الشخص، وأعني ردود فعله أمام الأحداث، لا يكون دائما في المستوى نفسه، فالمرض، والمعاناة، والتعب، وكثير من الظروف العاطفية، تأتي لتغيّر من وضعه. وأحيانا، فإن المجموع اللامتناهي للشخوص التي تشملها الذات يتقلص، فيتشابك الفرد مع نفسه، ويغرق في وجوده، فيفشل في تكرار أدواره المختلفة مع مرور اليوم. فإذا كانت هناك، في أغلب الأحيان، بديهة أن يكون المرء هو ذاته، واستحالة أن يفكر على أنه آخر، فإن البعض يشعرون، على العكس من ذلك، أنهم منغلقون على ذواتهم، وأن الظروف والحياة التي يحيونها تسيء معاملتهم. يشعرون بأنهم ممزقون بين مختلف الصيغ التي تتخذها هويتهم. وفي بعض الأحيان يكون المجهود المبذول للحفاظ على هذه الوحدة مجهودا شديد الثقل لا يمكن تحمّله على مر الأيام.

ومع ذلك، فإن التغيير الجذري لا يفترض دائما حدثا صادما أو ميمونا يهز العلاقة بالعالم دفعة واحدة، فقد يستغرق أحيانا مدة طويلة. بشكل غير محسوس، يحمل كل يوم نصيبه من العراقيل التي توقف شيئا فشيئا الحركة المنتظمة للشخص. فيغدو شخصا آخر، غريبا عن ذاته، كما هو الحال في بعض أنواع الخرف، وعلى الخصوص مرض الزهايمر. يحتوي كل منا من الأمور غير المتوقعة أكثر بكثير من المحتملة. ووجودنا تملأه الفرص الضائعة، بقدر ما

هو مليء بالأحداث التي تضبط إيقاعه. ولا يمكن لأيّ كان أن يحيا كل الإمكانات التي كانت له، بل ولا حتى تخيّلها. كل لحظة تمر، تخلف من ورائها ما لا نهاية له من الحيوات الممكنة التي لم تستمر إلا بنفَس ضئيل. فالمصادفة، وما يعمل بها الفرد، ورغبته في الحظ السعيد أو تركه الأمور لعمل الظروف، كل ذلك يرسم مسارات شخصية كان يمكن أن تكون مسارات مغايرة بصفة جذرية.

كان كانط يقول إن الناس لم يصنعوا من الأخشاب الصلبة والمستقيمة التي نصنع منها أعمدة البناء. إذا كان هناك أحيانا في حياة ما نوع من الوفاء للذات، نوع من التماسك، فإن آخرين يعيشون انفصالات لا تصدّق، ويغدون غير قابلين للتعرف على أنفسهم وكذا بالنسبة للآخرين. فكثير من الحيوات المختلفة لا تصدق لديهم. لكن كل وجود في البداية، حتى الأكثر هدوءً، يشمل عددا لا حصر له من الإمكانات لا تكف كل لحظة عن إبراز ما تنطوي عليه.

افتتاح: مساعي الذاتية المعاصرة

«تخلص مما تعلمته. انسَ ظروف ميلادك. انسَ اسمك. كنْ عاريا. اخلع ثيابك الرثة. أخل ذاكرتك. شوّه أقنعتك».

جاك لاكاريير، **سور** (Jacques Lacarrière Sourates)

تتبعنا من خلال هذا الكتاب، المسالك المتعددة التي تنهجها الذات لاختفائها، واستراتيجيات معاصرينا لكي يندسوا من بين ثغرات النسيج الاجتماعي، كي يولدوا من جديد في صيغة أخرى، أو كي يمّحوا في الغياب والعزلة... وهي إغراءات متعددة لكي يتخلصوا من إكراهات هوية تثقل كاهلهم في بعض الأحيان. لقد توالت مع تقليب صفحات هذا الكتاب وجوه سعيدة وأخرى شقية. ما من شك في أن كثيرا من الوقائع كانت تتطلب مزيدا من التفصيل. إلا أن ذلك من شأنه أن يحوّل الكتاب إلى موسوعة متناقضة حيث سيصبح الغياب مادة للمبالغة في الامتلاء. بطريقة مبسطة ومثيرة في الوقت ذاته، كان طموحنا هو أن نقف على بعض أشكال الامّحاء، في إطار مجتمعاتنا الغربية، حيث غدا الوجود أقل قسوة من ذي قبل، ولكن حيث صارت مهمة أن تكون فردا، مهمة

صعبة بالنسبة إلى عدد كبير من معاصرينا، مهما كانت وضعيتهم الاجتماعية أو مرجعياتهم الثقافية.

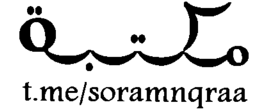
ليس **البياض**، كشكل من أشكال الغياب، واللامبالاة، بعيدا عن الفضائل المتناقضة للحياد كما يظهر في التقاليد الصينية على حد قول ف. جوليان (F. Julien) (1991)، فهو عندهم نوع من التحفظ، والانفصال الذي يسمح بالتمتع الكامل بالعالم. وهو أقرب إلى عدم الفعل أي وو وي (Wu-Wei) (ومعناها بالصينية هي «لا»). وبما هو شكل من أشكال الحياد، فهو يترجم «عدم الاختيار»، أو بالأحرى، عدم الاكتراث بالاختيار. وهو يتخذ وجهين مختلفين حسب رولان بارت (R. Barthes): «شكل من "لا تختر" مذهول، وجلان، ومرفوض» (2002). إلا أن هذه ليست هي التجارب التي وصفناها في الصفحات السابقة. في "لا تختر" الأخرى، الهادئة والمقبولة، يتعلق الأمر بحياد حامل لفعالية متناقضة، وبانعكاس يصطدم مع مستلزمات الانخراط في المجتمع، وعلى الخصوص، ما يدعوه بارت «أيديولوجيا أخلاقية للإرادة (الاستيلاء، السيطرة، فرض حقيقة بعينها، الخ) (...). حتى ولو كان هناك تاوو حكيم، فإننا لن نتعرف عليه» (2002،223). يتعلق الأمر إذن باختيار حياة متسترة، بعيدة عن المسارات المطروقة، تسير في الدروب الجانبية، دروب اختراع حياة خاصة، وإيقاع ذاتي، يحتفظ دوما بالمبادرة. يظل الفرد منسحبا في انتظار. يتنازل عن صلاحياته دون أن يتخلى عنها كلية. يرفض أن يرتب عناصر العالم وفق سلم متدرج، إنه في تحفظ. وهو ليس جهة الرفض، ولا جهة الرضا، لكنه

في انتظار.

إذا كان **البياض** يلغي العالم مؤقتا أو بصفة دائمة، فإنه أيضا افتراض لامتناه، وهو مصدر تجديد، حتى وإن كان يؤلم الذات وما يحيطها. ليس **البياض** هو اللاشيء، أو الفراغ، وإنما هو نمط آخر للوجود منسوج في تستر، وبطء، وامّحاء. هذا **البياض** مبدئيا، ليس حالة قارة، ولكنه ملجأ يزداد دوامه أو يقل، كأنه غرفة معادلة الضغط. إنه وضع انتظار عندما يسعى الفرد إلى البحث عن مكانه الذي لا يكفّ يتوارى ويتقنع. هو لم يعثر عليه بعد، لذا ينسحب أو يظهر بكيفية مبالغ فيها. ليس **البياض** شكلا من أشكال الجنون، وحتى ولو كان مؤقتا، لأن الفرد لا ينفك يكون هو ذاتَه، حتى ولو كان في نوع من تعطيل التمثلات الاجتماعية العادية، وهو يعلم أيضا كيف يؤثر إذا ما اقتضت الظروف ذلك، وقد يحصل له أن يستعيد القبضة على حياته بعد هذه الأشكال من الكسوف. إنه على علم بما يفعل، في الوقت الذي يتخلى فيه عن نفسه. ربما يكون **البياض**، في بعض الأحيان، قوة وطاقة كامنة تنتظر أن تعمل. فالأمر يتعلق بتعليق المعنى، وليس بانقراضه.

تؤدي بعض الأساليب إلى إمكانية الاجتياز للتخلص من تعب تحمّل الذات، فتوفر فترة استراحة وتهدئة، وإجازة للابتعاد عن الذات. إن المبالغة في التضحية وإعطاء الكثير، تقتضي استرجاع الذات، واستعادة النفس، وإعطاء نفَس جديد لطعم الحياة عن طريق استراحة يومية أو فتح قوس كبير، كي يستعيد المرء ذاته في

النهاية. يتمّ اختفاء الإكراهات المرتبطة بالهوية حينئذ في وضع ميمون. وهو يذكرنا بقولة مونتيني(Montaigne): «علينا حجز غرفة خلفية لنا وحدنا، فيها نبني حريتنا الحقيقية، واستراحتنا الأساس وعزلتنا» (مونتيني، 1969، 292). الكتابة والقراءة، والإبداع بصفة عامة، والمشي، والسفر، والتأمل، الخ. كل هذه الأنشطة هي ملاجئ أقل حدة من تلك التي حاولنا مسحها خلال هذا الكتاب. إنها فضاءات لا يكون فيها على أيّ كان أن يقدم الحساب ويخضع للمساءلة، إنها فضاءات تعطيل ميمون، سعيد ومبتهج بذاته، وهي طريق غير مباشرة تعيدك إلى نفسك، بعد بضع ساعات أو بضعة أيام أو أكثر. وهي وسائل متعمدة لاستعادة الحيوية والحياة الحميمية، واسترجاع طعم الحياة.



المراجع

Abgrall J.-M., *La Mécanique des sectes*, Paris, Pocket, 1996.
Agamben G., *Bartleby ou la création*, Belval, Circé, 1995.
Agier M., *Aux bords du monde, les réfugiés*, Paris, Flammarion, 2002.
Albou P., *Alzheimer, Pick, Cotard et les autres*, Paris, Glyphe, 2005.
Appelfeld A., *Le Garçon qui voulait dormir*, Paris, L'Olivier, 2011.
Arnaud C., *Qui dit je en nous ?*, Paris, Hachette Littératures, coll.Pluriel,2006.
Aubenas F., *Le Quai de Ouistreham*, Paris, Points, 2011.
Aubert N., *Le Culte de l'urgence. La société malade du temps*, Paris,Flammarion,2003.
Aubert N., (dir.), *L'Individu hypermoderne*, Toulouse, Érès, 2006.
Aubry G., *Personne*, Paris, Calmann-Lévy, 2009.
Audiberti M.-L., *Le Vagabond immobile. Robert Walser*, Paris, Gallimard,1996.
Auster P., *Cité de verre*, Arles, Babel, 1987.
Auster P., *L'Invention de la solitude*, Paris, Livre de Poche, 1988a.
Auster P., *Trilogie new-yorkaise*, Arles, Babel, 1988b.
Auster P., *Moon Palace*, Arles, Actes Sud, 1991.
Bailey J., *Iris Murdoch, le dénouement*, Paris, Fayard, 2000.
Balier C., "Pour une théorie narcissique du vieillissement", *L'Information psychiatrique*, vol. 55, n° 6, 1979.

Barral E., *Otaku. Les enfants du virtuel*, Paris, J'ai lu, 1999.
Barthes R., *Le Neutre*, Paris, Seuil, 2002.
Baudrillard J., *Le Pacte de lucidité ou l'intelligence du mal*, Paris, Galilée,2004.196
Beaune J.-C., *Le Vagabond et la machine. Essai sur l'automatisme ambulatoire*, Seyssel, Champ-Vallon, 1983.
Beauvoir S. (de), *La Vieillesse*, Paris, Gallimard, 1970.
Becker H., *Outsiders*, Paris, Métailié, 1985.
Beckett S., *Murphy*, Paris, Minuit, 1947.
Beckett S., *Nouvelles et textes pour rien*, Paris, Minuit, 1950.
Beckett S., *L'Innommable*, Paris, UGE, 1972.
Beckett S., *Oh les beaux jours*, Paris, Minuit, 1974.
Belorgey J.-M., *La Vraie Vie est ailleurs. Histoires de ruptures avecl'Occident*,Paris,Lattès,1989.
Benjamin W., Robert Walser, *Œuvres III*, Paris, Folio, 2000.
Bettelheim B., *Survivre*, Paris, Pluriel, 1979.
Blanchot M., *L'Espace littéraire*, Paris, Gallimard, 1955.
Blanchot M., *Le Livre à venir*, Paris, Gallimard, 1959.
Blanchot M., *L'Entretien infini*, Paris, Gallimard, 1969.
Blanco J. (choisis et présentés par), *Pessoa en personne*, Paris, LaDifférence, 1986.
Bobin C., *La Présence pure*, Paris, Gallimard, 2002.
Bonnet A. et Pedinielli J.-L., *Les Conduites à risque*, Paris, Armand Colin, 2013.
Bouvier N., *Le Poisson-scorpion*, Paris, Folio, 1982.
Bouvier N., *Routes et déroutes. Entretiens avec Irène LichtensteinFall*, Genève, Metropolis, 1992.
Bréchon R., "L'inconsolé", *in* Pessoa (1994).
Bréchon R., *Pessoa, le poète intranquille*, Paris, Aden, 2008.
Breton P., *L'Utopie de la communication*, Paris, La Découverte,

1995.
Breton P., *Éloge de la parole*, Paris, La Découverte, 2003.
Breton P. et Le Breton D., *Le Silence et la parole. Contre les excès de la communication*, Toulouse, Érès, 2009.
Bruch H., *L'Énigme de l'anorexie*, Paris, PUF,.1979.
Buci-Glucksman C., *L'Esthétique du temps au Japon. Du zen au virtuel*, Paris, Galiléen, 2001.
Canetti E., *Masse et puissance*, Paris, Gallimard, 1986.
Caradec V., *Vieillir après la retraite. Approche sociologique du vieillissement*, Paris, PUF, 2004.
Caradec V., *Sociologie de la vieillesse et du vieillissement*, Paris, Armand Colin, 2008.
Carrère E., *L'Adversaire*, Paris, Folio, 2000.
197
Castel R., *Les Métamorphoses de la question sociale*, Paris, Fayard,1995.
Castel R., *La Montée des incertitudes*, Paris, Seuil, 2009.
Chobeaux F., *Les Nomades du vide*, Arles, Actes Sud, 2004 (1996).
Chrétien J.-L., *De la fatigue*, Paris, Minuit, 1996.
Cioran, *Écartèlement*, Paris, Gallimard, 1979.
Cochet F., *Nos enfants jouent à s'étrangler... en secret. Le jeu du foulard*, Sens, François-Xavier de Guibert, 2001.
Cochet F. (coord.), *Jeu du foulard et autres jeux d'évanouissement. Pratiques, conséquences et prévention*, Paris,L'Harmattan, 2010.
Cohadon F., *Sortir du coma*, Paris, Odile Jacob, 2000.
Collaud T., *Le Statut de la personne démente*, Fribourg, Academic Press Fribourg, 2003.
Coslin P., *Les Conduites à risque à l'adolescence*, Paris, Armand

Colin, 2003.
Coslin P., *Jeux dangereux, jeunes en danger*, Paris, Armand Colin, 2012.
Coulombe M., *Le Monde sans fin des jeux vidéo*, Paris, PUF, 2010.
Dagnaud M., *La Teuf. Essai sur le désordre des générations*, Paris,Seuil, 2008.
Dardy C., *Identités de papier*, Paris, L'Harmattan, 1998.
D'Arino F., *Manuale di sparizione. La sfida dell'invisibilità nella società del controllo*, Rome, Castelvecchi, 2006.
Daumal R., *Lorsque l'aube paraît*, Paris, Gallimard, 1953.
De Gaulejac V., *La Société malade de la gestion. Idéologie gestionnaire, pouvoir managérial et harcèlement social*, Paris, Seuil,2005.
Dejours C., *Souffrance en France. La banalisation de l'injustice sociale*, Paris, Points, 1998.
Dejours C., *Travail, usure mentale*, Paris, Bayard, 2000.
Dejours C., "La fatigue d'être soi : revers de l'émancipation ou signe d'aliénation", *Revue française de Psychosomatique*, Hors série : Vivre fatigué, 2004.
Dejours C., *La Panne. Repenser le travail et changer la vie*, Paris, Bayard, 2012.
Delaigue A., "L'ivresse des grandes écoles", *in* Huerre et Marty (2007).198
Deleuze G., "L'épuisé", postface à S. Beckett, *Quad*, Paris, Minuit, 1992.
Descombes V., *Le Complément de sujet*, Paris, Gallimard, 2004.
Dibie P., *La Passion du regard*, Paris, Métailié, 1998.
Doi T., *Le Jeu de l'indulgence*, Paris, L'Asiathèque, 1988.
Donnet J.-L. et Green A., *L'Enfant de ça. Psychanalyse d'un entretien : la psychose blanche*, Paris, Minuit, 1973.

Dreuil D., "Le vécu d'attente en institution gérontologique", in *Le Corps vécu chez la personne âgée et la personne handicapée*, Paris, Dunod, 2010.
Dubar C., *La Crise des identités*, Paris, PUF, 2000.
Dubet F., *Sociologie de l'expérience*, Paris, Seuil, 1994.
Duperray A. (éd.), *L'Œuvre de Paul Auster*, Arles, Actes Sud, 1995.
Ehrenberg A., *La Fatigue d'être soi. Dépression et société*, Paris, Odile Jacob, 1998.
Ellenberger H., *À la découverte de l'inconscient, histoire de la psychiatrie dynamique*, Paris, SIMEP, 1974.
Enriquez E., "Approches du for intérieur", *in* C. Haroche (*et ales*), *Le For intérieur*, Paris, PUF, 1995.
Erikson E., *Adolescence et crise. La quête de l'identité*, Paris, Flammarion, 1972.
Ernaux A., *Je ne suis pas sortie de ma nuit*, Paris, Gallimard, 1997.
Fagué P., *Disparus ? Comment les retrouver*, Paris, Marabout, 1998.
Fédida P., *Des bienfaits de la dépression. Éloge de la psychothérapie*, Paris, Odile Jacob, 2009.
Fellous C., *Rosa Gallica*, Paris, L'Arpenteur, 1989.
Ferrey G. et Le Gouès G., *Psychopathologie de la personne âgée*, Paris, Masson, 2008.
Francœur M., *Fin de vie en établissement gériatrique*, Grenoble, PUG, 2010.
Freud S., *Métapsychologie*, Paris, Gallimard, 1968.
Freud S., *Essais de psychanalyse*, Paris, Payot, 1973.
Freud S., *Introduction à la psychanalyse*, Paris, Payot, 1978.
Furtos J., "Le syndrome d'auto-exclusion", *in* J. Furtos (dir.), *Les Cliniques de la précarité. Contexte social, psychopathologie*

et dispositifs, Paris, Masson, 2008.199

Furtos J., *De la précarité à l'auto-exclusion*, Paris, Éditions Rue d'Ulm, 2009.

Gauchet M., *Un monde désenchanté ?*, Ivry-sur-Seine, Éditions de l'Atelier, 2004.

Gaulejac V. de, *Qui est "je" ?*, Paris, Seuil, 2009.

Gennart M., *Corporéité et présence. Jalons pour une approche ducorps dans la psychose*, Argenteuil, Le Cercle herméneutique, 2011.

Gil J., *Fernando Pessoa ou la métaphysique des sensations*, Paris,La Différence, 1988.

Goldberg F. et Gutton P., "L'errance à l'adolescence : une addiction d'espace ?", *in* J. Aïn (dir.), *Errances. Entre dérives et ancrages*, Toulouse, Érès, 1996.

Goncharov I., *Oblomov*, Paris, Livre de Poche, 1988.

Green A., "Atome de parenté et relations œdipiennes", *in* LéviStrauss (1983).

Guillaume M., *La Contagion des passions*, Paris, Plon, 1989.

Gzil F., *La Maladie d'Alzheimer. Problèmes philosophiques*, Paris,PUF, 2009.

Hacking I., *L'Âme réécrite. Étude sur la personnalité multiple et les sciences de la mémoire*, Paris, Les Empêcheurs de penser en rond, 1998.

Hacking I., *Les Fous voyageurs*, Paris, Les Empêcheurs de penser en rond, 2003.

Herfray C., *La Vieillesse. Une interprétation psychanalytique*, Paris, Epi-Desclée de Brouwer, 1988.

Hirigoyen M.-F., *Les Nouvelles Solitudes. Le paradoxe de la communication moderne*, Paris, La Découverte, 2007.

Huerre P. et Marty F. (dir.), *Alcool et adolescence. Jeunes en quêtes d'ivresse*, Paris, Albin Michel, 2007.

Inoue Y., *Histoire de ma mère*, Paris, Stock, 2004.
Jabès E., *Le Livre des marges*, Paris, Livre de Poche, 1987.
Jacquin P., *Les Indiens blancs. Français et Indiens en Amérique duNord (XVIe-XVIIIe siècles)*, Paris, Payot, 1987.
James W., *Précis de psychologie*, Villethierry, Éditions de la Bibliothèque de l'homme, 1999.
Janet P., *De l'angoisse à l'extase. Études sur les croyances et les sentiments*, 2 tomes, Paris, Société Pierre Janet, 1975.200
Janet P., *L'Automatisme psychologique. Essai de psychologie expérimentale sur les formes inférieures de l'activité humaine*, Paris,L'Harmattan, 2005.
Jankélévitch V., *La Mort*, Paris, Champs Flammarion, 1977.
Jaworska A., "Respecting the Margins of Agency : Alzheimer's Patients and the Capacity to Value", *Philosophy and Public Affairs*, vol. 28, n° 2, 1999.
Jolivet M., *Homo Japonicus*, Arles, Picquier, 2002.
Jolivet M., *Japon, la crise des modèles*, Arles, Picquier, 2010.
Julien F., *Éloge de la fadeur. À partir de la pensée et de l'esthétique de la Chine*, Paris, Livre de Poche, 1991.
Kaufmann J.-C., *L'Invention de soi. Une théorie de l'identité*, Paris, Armand Colin, 2003.
Kauffman J.-C., *Ego. Pour une sociologie de l'individu*, Paris, Pluriel, 2007.
Kaufmann J.-C., *Quand je est un autre. Pourquoi et comment ça change en nous ?*, Paris, Pluriel, 2008.
Kelen J., *L'Esprit de solitude*, Paris, Albin Michel, 2005.
Kestemberg E., Kestemberg J., Decobert S., *La Faim et le Corps*, Paris, PUF, 1972.
Klein E., *En cherchant Majorana. Le physicien absolu*, Paris, Équateurs, 2013.
Kleinman A. et Good B. (éds), *Culture and Depression : Studies*

in the Anthropology and Cross-Cultural Psychiatry of Affect and Disorder, Berkeley, University of California Press, 1985.
Krakauer J., *Into the wild*, Paris, 10-18, 2008.
Kundera M., *La Lenteur*, Paris, Gallimard, 1995.
Lacadée P., *Robert Walser. Le promeneur ironique*, Nantes, Éd. Cécile Defaut, 2010.
Lahire B., *L'Homme pluriel. Les ressorts de l'action*, Paris, Nathan, 1998.
Lapierre N., *Changer de nom*, Paris, Stock, 1995.
Laplantine F., *Le Sujet. Essai d'anthropologie politique*, Paris, Téraèdre, 2007.
Laplantine F., *L'Énergie discrète des lucioles. Anthropologie et images*, Paris, Academia-L'Harmattan, 2013.
Lapouge G., *Les Pirates*, Paris, Balland, 1976.
Lawrence T. E., *La Matrice*, Paris, Gallimard, 1955.201
Lawrence T. E., *Les Sept Piliers de la sagesse*, t. 1, Paris, Payot, 1969.
Le Breton D., *Du silence*, Paris, Métailié, 1997, 2015.
Le Breton D., *Passions du risque*, Paris, Métailié, 2000, 2015.
Le Breton D., *La Peau et la trace. Sur les blessures de soi*, Paris, Métailié, 2003.
Le Breton D., *Des visages, Essai d'anthropologie*, Paris, Métailié, 2006.
Le Breton D., *En souffrance. Adolescence et entrée dans la vie*, Paris, Métailié, 2007.
Le Breton D., *Expériences de la douleur. Entre destruction et renaissance*, Paris, Métailié, 2010.
Le Breton D., *Anthropologie du corps et modernité*, Paris, PUF, 2011.
Le Breton D., *Conduites à risque. Des jeux de mort au jeu de vivre*, Paris, PUF, 2012.

Le Breton D., *Une brève histoire de l'adolescence*, Paris, J.-C. Béhar, 2013.
Le Garrec S., *Ces ados qui en prennent. Sociologie des consommations toxiques adolescentes*, Toulouse, PUM, 2002.
Le Gouès G., *L'Âge et le principe de plaisir*, Paris, Dunod, 2000.
Leiris M., *Frêle bruit*, Paris, Gallimard, 1976.
Le Ru V., *La Vieillesse. De quoi avons-nous peur ?*, Paris, Larousse, 2008.
Lévi-Strauss C. (dir.), *L'Identité*, Paris, PUF, 1983.
Louranço E., *Pessoa, l'étranger absolu*, Paris, Métailié, 1990.
MacLeod S., *Anorexique*, Paris, Aubier, 1982.
Maisondieu J., *Le Crépuscule de la raison*, Paris, Bayard, 1989.
Malroux C., *Chambre avec vue sur l'éternité*, Paris, Gallimard, 2005.
Mankell H., *Tea Bag*, Paris, Points, 2007.
Marty F., "La dépendance, un déni de la perte. La dépression masquée", *in* Huerre et Marty (2007).
Marzano M., *Légère comme un papillon*, Paris, Grasset, 2012.
Mazeau J., *Enquête sur les disparitions*, Lausanne, Favre, 1999.
Melman C., *La Nouvelle Économie psychique. La façon de penser*
et de jouir aujourd'hui, Toulouse, Érès, 2009.
Melville H., *Moby Dick*, Paris, Livre de Poche, 1941.202
Melville H., *Bartleby l'écrivain*, in *Benito Cereno*, Paris, Gallimard, 1951.
Messy J., *La Personne âgée n'existe pas*, Paris, Payot, 2002.
Meunier J., *Le Monocle de Joseph Conrad*, Paris, Payot, 1987.
Michaux H., *Qui je fus*, Paris, Gallimard, 2000.
Molinier P., *Les Enjeux psychiques du travail*, Paris, Payot, 2008.
Montaigne M. (de), *Essais. Livre 1*, Paris, Garnier-Flammarion,

1969.
Montani C., *La Maladie d'Alzheimer. "Quand la psyché s'égare"*, Paris, L'Harmattan, 1995.
Moreira V., "La dépression dans la postmodernité", *in* B. Granger et G. Charbonnier, *Phénoménologie des sentiments corporels*, T. II : *Fatigue, lassitude, ennui*, Argenteuil, Le Cercle herméneutique, 2003.
Mulhern S., "La personnalité alternante : de l'acteur social à la personne légale", *in* Sauvagnat (2001).
Nabokov V., *La Défense Loujine*, Paris, Folio, 1991.
Oates J. C., *J'ai réussi à rester en vie*, Paris, Points, 2011.
Pachet P., *La Force de dormir*, Paris, Gallimard, 1988.
Pachet P., *Devant ma mère*, Paris, Gallimard, 2007.
Perec G., *Un homme qui dort*, Paris, J'ai lu, 1998.
Pessoa F., *Le Livre de l'intranquillité*, Paris, Christian Bourgois, 1988.
Pessoa F., *Je ne suis personne. Une anthologie*, Paris, Christian Bourgois, 1994.
Pirandello L., *Feu Mathias Pascal*, Paris, Livre de Poche, 1965.
Ploton L., *La Personne âgée. Son accompagnement médical et psychologique et la question de la démence*, Lyon, Chroniques Sociales, 1990.
Ploton L., *Maladie d'Alzheimer. À l'écoute d'un langage*, Lyon, Chronique Sociale, 2004.
Ploton L. et Cyrulnik B. (dir.), *Résilience et personnes âgées*, Paris, Odile Jacob, 2014.
Pollak M., *L'Expérience concentrationnaire. Essai sur le maintien de l'expérience sociale*, Paris, Métailié, 1990.
Pons P., *D'Edo à Tokyo*, Paris, Gallimard, 1988.
Post S. G., *The moral challenge of Alzheimer Disease*, Baltimore,

The John Hopkins University Press, 1995.
203
Prolongeau H., *Partis sans laisser d'adresse. Ces gens qui décident de tout quitter*, Paris, J'ai lu, 2001.
Proust M., *Du côté de chez Swann*, Paris, Livre de Poche, 1988.
Quesemand Zucca S., *Je vous salis ma rue. Clinique de la socialisation*, Paris, Stock, 2007.
Quinodoz D., *Le Vertige, entre angoisse et plaisir*, Paris, PUF, 1994.
Raimbault G., Eliacheff C., *Les Indomptables. Figures de l'anorexie*, Paris, Odile Jacob, 1989.
Rezvani S., *L'Éclipse*, Arles, Actes Sud, 2007.
Rhinehart L., *L'Homme-dé*, Paris, L'Olivier, 2009.
Richmond D., *How to Disappear Completely and Never Be Found*, New York, Citadel Press, 1994.
Rosa H., *Accélération. Une critique sociale du temps*, Paris, La Découverte, 2013.
Rosenthal O., *On n'est pas là pour disparaître*, Paris, Folio, 2007.
Russell P. *et ales*, "Unintentional strangulation deaths from the 'choking game' among youths aged 6-19 years – United States, 1995-2007", *Jama*, vol. 299, n° 12, 2008.
Sacks O., *Musicophilia. La musique, le cerveau et nous*, Paris, Seuil, 2009.
Sauvagnat F. (dir.), *Divisions subjectives et personnalités multiples*, Rennes, PUR, 2001.
Schutz A., *Essai sur le monde ordinaire*, Paris, Le Félin, 2007.
Sciascia L., *La Disparition de Majorana*, Paris, LN-Maurice Nadeau, 1977.
Sebag-Lanoë R., *Vivre, vieillir et le dire*, Paris, Desclée de

Brouwer, 2001.
Seelig C., *Promenades avec Robert Walser*, Paris, Rivages Poche, 1992.
Simenon G., *La Fuite de Monsieur Monde*, Paris, Presses Pocket, 1945.
Tabucchi A., *Une malle pleine de gens*, Paris, Christian Bourgois, 1998.
Tisseron S., *Virtuel mon amour. Penser, aimer, souffrir à l'ère desnouvelles technologies*, Paris, Albin Michel, 2008.
Tuan Y., *Segmented worlds and the self : group life and individual*
consciousness, Minneapolis, University of Minnesota Press, 1982.204 Unruh D., *Invisible lives. Social worlds of the aged*, Bervely Hills, Sage, 1983.
Urbain J.-D., *Secrets de voyage. Menteurs, imposteurs et autres voyageurs impossibles*, Paris, Payot, 2002.
Utz P., *Robert Walser : danser dans les marges*, Carrouges, Zoé, 1999.
Valère V., *Le Pavillon des enfants fous*, Paris, Livre de poche, 1978.
Van M. (de), *Stéréoscopie*, Paris, Allia, 2013.
Wallraff G., *Tête de Turc*, Paris, Livre de Poche, 1987.
Wallraff G., *Infiltré. Parmi les perdants du nouveau monde*, Paris, La Découverte, 2010.
Walser R., *L'Institut Benjamenta*, Paris, Tel Gallimard, 1960.
Walser R., *Les Enfants Tanner*, Paris, Folio, 1985.
Walser R., *L'Homme à tout faire*, Lausanne, L'Âge d'homme, 2000.
Weber M., *Essais sur la théorie de la science*, Pais, Plon, 1965.
Widlöcher D., *Les Logiques de la dépression*, Paris, Fayard, 1983.

Winnicott D. W., "La capacité d'être seul", in *De la pédiatrie à la psychanalyse*, Paris, Payot, 1969.

دافيد لوبروتون

اختفاء الذات عن نفسها

يحدث أن نفقد الرغبة في التواصل، والرغبة في الارتماء في المستقبل، بل وحتى الرغبة في المشاركة في الحاضر، فنغدو بلا روابط ولا مشاريع ولا رغبات. ونودّ أن ننظر إلى العالم من ضفة أخرى: هذه هي الحال التي يطلق عليها هذا الكتاب اسم البياض. وهو حالة غياب الذات عن نفسها، مهما كانت درجتها حدةً. إنها انفصال عن الذات، بشكل أو بآخر، نظرا لما يلقاه المرء من صعوبة أو من عقوبة كي يكون هو ذاتَه، وهي الحال التي يُؤخذ فيها المرء بـ «شغف الاختفاء»، شغف الغياب الذي تتنوع أشكاله ودرجاته، والذي يصيب الذكور مثلما يصيب الإناث، والكهول كما المراهقين. إنها الحالة التي يتحرر فيها المرء من الروابط الاجتماعية فيختفي ويتحرر من ذاته... تعلقا بالحياة، وشغفا في البقاء، واسترجاعا للذات.


ISBN: 978-603-8387-41-2
9 786038 387412

WWW.PAGE-7.COM